

النور
كتابان في كتاب
ليلى
بين
الجنة والنار
خالد أبو شادي
Dr. Khaled Abu Shady

ليالي

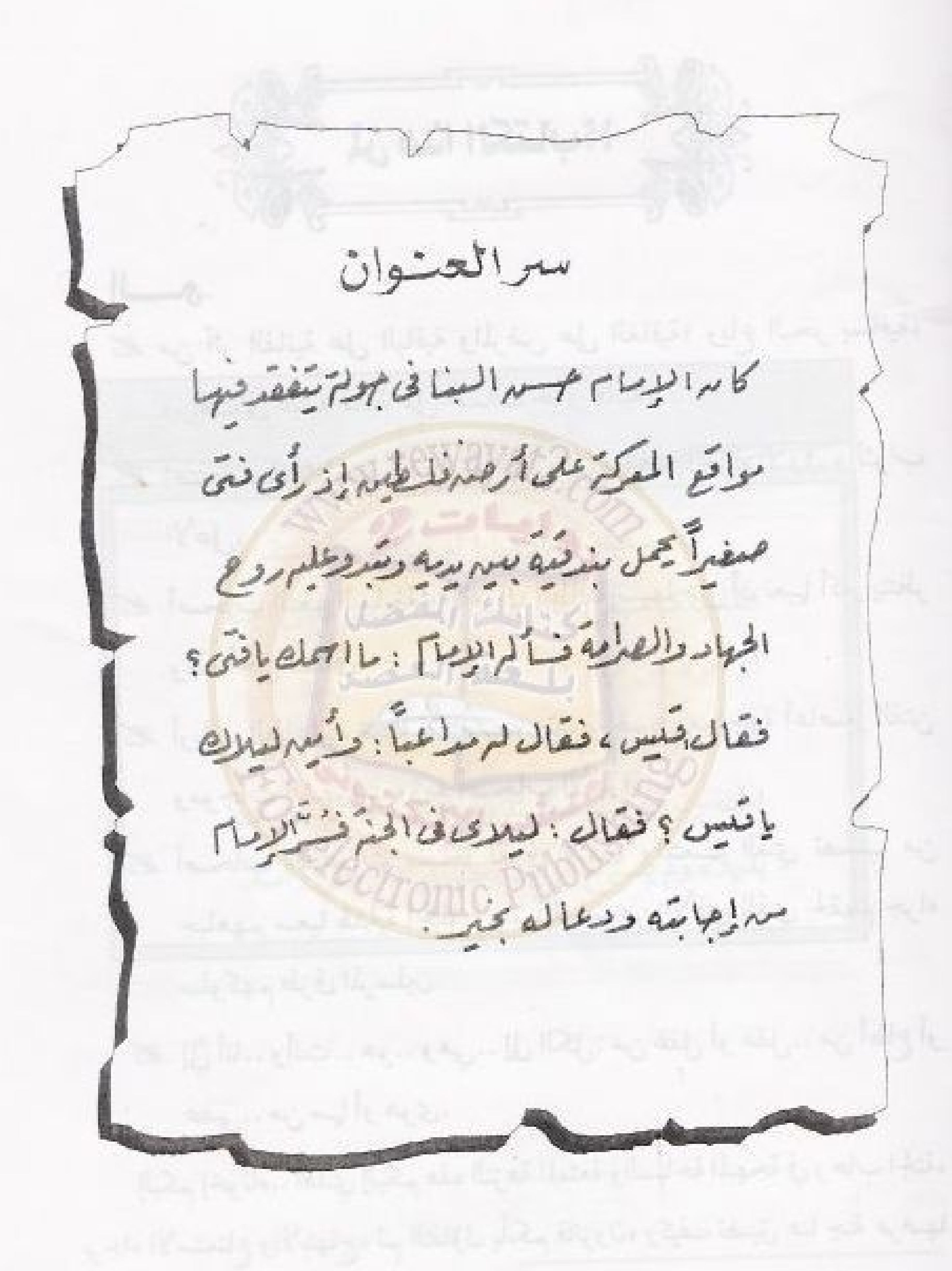
بين الجنة والنار

د. خالد أبو شادي



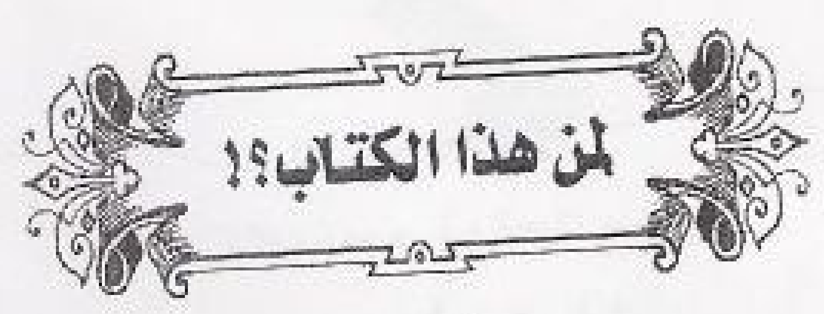
اسم الكتاب : ليلى بين الجنة والنار
المؤلف: د. خالد أبو شادي
المقاس : ١٤×٢٠
الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ
تصميم الغلاف : 8 gates
الإخراج الفني: مركز السلام للتجهيز الفني
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٦٢٢٨
الترقيم الدولي: 978-977-6283-01-5
الناشر: النور للإنتاج الإعلامي والتوزيع
www.elnoor.com
العنوان : ٣٣ ش هارون - المساحة - الدقي - مصر
التليفون: ٣٧٦٠٧٧٧٩ ٢٠٢+ موبيل : ٠١٢٣٣٢٩٣٠٩
فاكس: ٣٧٦٠٤٧٧٣ ٢٠٢+





سر العنوان

كان الإمام حسن البنا في جولة يتفقد فيها
مواقع المعركة على أرض فلسطين إذ رأى فتى
صغيراً يحمل بندقية بين يديه ويبدو عليه روح
الجهاد والصرامة فسأله الإمام: ما اسمك يا فتى؟
فقال: قيس، فقال له مداعباً: وأين ليلاك
يا قيس؟ فقال: ليلاي في الجنة فسُرّ الإمام
من إجابته ودعا له بخير.



لمن هذا الكتاب؟!

إلـــى:

- من آثر الفانية على الباقية والمرض على العافية؛ وباع البحر بساقية، وراقت في عينيه غانية على حساب حور غالية.
- أصحاب البلايا تسلية لهم وتفريجا، وتذكيرا لهم بالجزاء الأوفى والثواب الأعلى.
- أصحاب النعم السابغة والأموال الطائلة تنبيها على أن نعيما أكبر ينتظر ولذة أحلى تشتاق.
- أرباب الطاعات تثبيتا لأفئدتهم، وتقوية لهم في مواجهة أعاصير الفتن وموجات الشهوات وزيغ أصحاب الأهواء.
- أصحاب الدعوات مسحا لعرق البذل والتعب الذي تصبب من جباههم سعيا لهداية الخلق، وتسلية لهم عن الأذى الذي لحقهم جراء سلوكهم طرق المرسلين.
- إليّ أنا.. وأنت.. هو.. وهي.. إلى الكل: من غفل أو عقل.. من أطاع أو عصى.. من سما أو هوى.

إليكم إخوتاه.. أهدي إليكم هذه النزهة الممتعة والسياحة المبهجة في رحاب الجنة، برجاء الاستمتاع والابتهاج، ثم التفاؤل بأنكم فائزون، وكيف تضيق عنا جنة عرضها السموات والأرض؟! وكيف لا تسعنا رحمة الله التي وسعت كل شيء؟! تفاءلوا.

الهدف

قال سفيان الثوري: « لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحا وحزنا، شوقا الى الجنة أو خوفا من النار »[1].

فاقرأ هذا الكتاب بروية وعمق لتتذوق طعم الجنة وتوقن بها، فمن تذوق طعم الجنة لم يجد عنه بديلا، ولم يسترح أو يهدأ حتى يراها بعيني رأسه.

(1) حلية الأولياء ٧/ ١٧

نقطة التحول!!

ليكن هذا الكتاب نقطة التحول في حياتنا جميعا، فحقبة ما بعد هذا الكتاب تامة الاختلاف عن ما كان قبله، وإنما يُعذر المسلم بجهله، فإذا انتفت الجهالة سقطت الأعذار وألجمت الحُجَّة، فهذه الصفحات إما حجة لك أو عليك، وأنا واثق بفضل الله أنها ستكون حجة لك.



أين ليلاك يا قيس؟!

هل هي في ساحات البذل وحلبة المجتهدين

أم هي

في آهات المحبين وزفرات العاشقيـن

هل في دموع السجدات وثنايا الخلوات

أم هي

في لهو التجارات وأموال الشبهـات

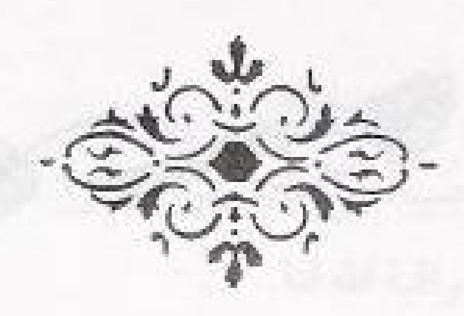
هل هي في هموم المسلمين ونصرة الدين

أم هي

في أحوال اللاهين والنجوم الزائفين؟!

فقـال خليلـي إذ رأى الـدمع دائمـا ... يفيض دمـا مـن مقلـتي ليس يُـدفع

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة ... علـى غـير ليلـى فهـو دمـع مُضيَّع





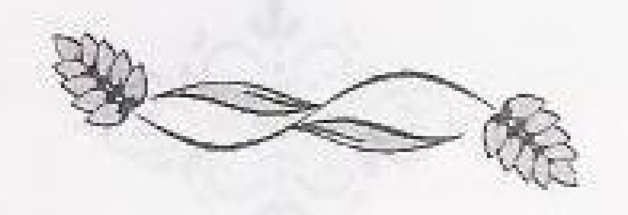
آخر تنبيه قبل البدء!!

ليس هذا الكتاب هروبا من الواقع إلى الخيال، ولا غيبوبة تأخذك بعيدا عن دنياك، بل هو حل لمشاكل الدنيا بطريقة الآخرة، وإصلاح الحياة الحاضرة تحت تأثير الحياة الأخرى، وعمارة الأرض التي أمرك الله بعمارتها طمعا في الثواب الأعلى والأجر الأغلى.

أريدك بهذه الصفحات أن تُدخِل الدنيا في دائرة اهتماماتك لا أن تطردها لأنها السوق التي تُشترى فيها الجنة ويُباع بين جنباتها الرضوان، فتترقَّبَ أي فرصة فيها توصلك إلى الجنة فتقتنصها.

ليس هذا الكتاب إذن عن الموت وما بعد الموت بل عن الحياة وكيف تملأ الحياة!!

كيف تتقن عملك وتتفوق في دراستك وتربح تجارتك وتُسعِد أهلك وتصل رحمك وتفعل كل هذا طاعة لله ونصرة لدينه وخدمة لعباده. وقوتك التي تدفعك: الفردوس الذي يسكن القلب، ورضا الله المنشود، والطمع في ثوابه الرائع، والله يُعينني ويُعينك.





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد..

فإن للإيمان محطات، يتزوّد فيها المرء في الدنيا ويعيد شحن قلبه بكل ما ينفعه في الآخرة، ومن رحمة الله الواسعة أن جعلها محطات كثيرة نتنزّه في ما بينها حتى لا نمل أو ننقطع، فمنها:

- ذكر الموت.
- تدبر أسماء الله وصفاته.
- التأمل في حب الله لعباده وبِرِّه بهم.
- استشعار مراقبة الله لنا.

- الآثار الجميلة للحسنات في الدنيا قبل الآخرة.
- عاقبة السيئات المدمِّرة.

ومن ضمن مُكسِبات الإيمان ومثقِّلات الميزان : ذكر الجنة والنار، فهما من أهم ما يحتاج المرء في رحلة سيره إلى الله، ومن أنجع الأدوية في معالجة القلب المتعب؛ يتخفَّف فيها من حرارة الذنوب وعناء الشهوات، لذا كان من توفيق الله لي أن أسطر هذه السطور في محاولة متواضعة لبلوغ هذه الغاية الكبرى، وأبدأ الآن .. والله المستعان، فأقول:

واحسرتاه! كيف قُرِّبوا وأُبعِدْنا؟! واأسفاه! كيف دنوا وطُردنا!! أين لَدَعات الوجد؟! أينَ دموع الفراق؟! أين لهفة الأشواق؟! أين شدة الحسرات؟! اقتطع القوم في الجنة الحور والدور، وأنت تائه وراء تجارة تبور، الجنة عروس لا يؤثر عليها أبدا، بل ولا يُصبر عنها لحظة، فكيف ثم كيف ثم كيف؟!

كيف يصلح في شرع المحبين نومٌ بعد ترغيب، وفتور بعد وصال، يا هذا.. مثلُكَ لا يصلح للجنة.

يا رجل.. أعظمُ الظُلمة ما تَقدَّمها ضوءٌ.. أقسى العمى ما كان بعد بصر.. وأصعب الهجر ما سبقه الوصال.

ما كنتُ أعرفُ ما مقدارُ وصلِكُمُ حتى هجرتَ وبعضُ الهجرِ تأديبُ

يا معاشر العُصاة! تُعرضون ويُقْبِل.. تبارزونه بالذنوب ويستركم.. تُقْصُون أنفسكم ويُدنيكم.. تُنفقون من نعمه في مخالفته ويُمِدُّكم، وتنأون عنه ويستدعيكم.. يا ويحنا من عبيد مسيئين ، ويا له من إله محسن إلينا غاية الإحسان.

يا قيس المحبة مُتْ في سبيل ليلى تحيا



أخي.. إن كانت قلبُك قد قسا وصار كالحديد فَقَرِّبه إلى نار الأشواق، ودعني بهذا الكتاب أنفخ في شعلة المحبة عندك كي تضطرم، وإلا فما ينفع الضربُ في حديد بارد؟!

يا غافلا عن الجنة وقد فتحت أبوابها اليوم، تعرّض لنفحات الخير لعل زمان الدخول حلَّ وأنت في الغافلين.

العشق نَبْض القلب لا تَفْتُر حركته، وسكون النبض علامة الموت، فأنت إما عاشق وإما ميت!!

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى
فكُنْ حجرا من يابس الصخر جلْمدا

الناس رجلان:

رجل ينام في الضوء، ورجل يستيقظ في الظلام، فأي الرجلين أنت؟!

أخي.. ما كلُّ رقبةٍ تَحْسُن فيها القلائد، ولا كلُّ نفسٍ تستحق الفوائد، فلا تُهْدِ المزكوم ريحانا، ولا تُنِل السّفية برهانا، وأعيذك بالله أن تكون من هؤلاء.

كُلٌّ يعمل على شاكلته، وكل إناء بالذي فيه ينضح.. جميل قتله حبُّ بُثينة، وكُثيِّر قتله حبُّ عزَّة، وعروة قتله حبُّ عفراء، وقيس قتلته ليلى، وأنت من قتلك؟!

ولا أدرك الحاجاتِ مِثْلُ مثابرٍ   **ولا عاق مَنها الفوزَ مِثْلُ توانِ**

إخوتاه الدنيا بحر، والجنة ساحل، والمركب التقوى، وكلنا على سفر.

أخي..



ليس هذا الكتاب وصفا تفصيليا للجنة، بل هو صفحة من صفحات التشويق، وقلم من أقلام الترغيب يستهدف في النهاية قلبك، ينفخ فيه نفخةَ عشقٍ لدار الخلود، يدفع إلى الذكر الدائم لها مع الاستعداد والبذل في سبيلها. وعندها تكونُ أولَ مبادر لأي صيحة خير تطرق أذنك، وتسهل عليك التكاليف بل تطيب لك، فتؤديها سجية وعفوية لا معاناة وتكلفا، لسان حالك:

وما زرتكم عمدا ولكنَّ ذا الهوى ... إلى حيث يهوى القلب تهوي به الرِّجْلُ

حبيبي في الله..

لا يحلِّق الصقر بغير جناح، فخذ كتابي هذا جناحا تطير به إلى الجنة، فإذا دخلتَها فلا تنسني عندها بشفاعة.

عاشق الجنة اليوم..

لا تمد أملك إلى غيرَ اليوم، عصفور واحد خير من ألف على الشجرة، التفكير في الأمس انشغال بوقت ماض وهو في حقيقته تضييع وقت ثان، أما الغد فلا تدري تكون من أهله أو لا تكون، فيومك يومك.. يومك يومك.

وأخيرا:

هذا الكتاب مشروع إصلاح شامل، على الجنة يرتكز وبذكرها يرتوي وإلى نعيمها يرنو، فبه تنتفع الأمة بأسرها لا الفرد بمفرده، وهو مجرَّد تذكرة لكم بما علمتم كما **قال الفضل الرقاشي:** إنا والله ما نعلّمكم ما تجهلون ولكنا نذكِّركم ما تعلمون[1].



(١) نثر الدر ٢/ ٦٣.

الفارق
بين الحب والعشق

كل عشق يسمى حبا، لكن ليس كل حب يسمى عشقا، لأن العشق اسم لما فاض عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الحد من الجود، والبخل اسم لما زاد عن الاقتصاد، والجبن اسم لما فضل عن شدة الحيطة، والتهور فوق الشجاعة.

هناك مخزون فطري عاطفي في قلب كل واحد منا، وإن لم يوجَّه ناحية الفضائل وأعمال الخير وما يترتب عليها من الجنة والنعيم استُنزِف القلب ولابد في عشق امرأة أو تجارة أو عمل، والسباق بين الجنة وما دونها من هذا الحطام قائم اليوم على أشده، أيهم يحظى بقلبك أولا، وأيهم يمتلك روحك قبل الآخر، ومن ظفر وانتصر صعب عليه أن يتنازل لغريمه عما ظفر به.

القلب تتصارع بداخله أهواء كثيرة، فإذا قوي واشتد أحدها غلب القوي منها الضعيف، وأخرج الأعز منها الأذل، وإذا حازت الدنيا قلبك تحولت داخلك إلى عدو، وكيف الاحتراز من عدو بين الضلوع؟!

الخلاصة في حكمة فارسية:



قال أحد الملوك لعابد من العُبَّاد: ألا تذكرني أبدا؟!

قال: أجل.. كلما نسيت ربي!!




الفصل الأول
لماذا الجنة

١- منازلنا الأولى:

قال النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[١].

فطبيعة الحياة التي أراد لنا النبي ﷺ أن نحياها: حياة الغربة، فقد كنا نسكن الجنة إلى أن أُخرِج منها أبونا آدم عليه السلام إلى هذه الدار، والطريد من أمثالنا يسعى إلى الرجوع ويطلب العودة استجابة لدعوة العقلاء والحكماء من أمثال ابن **القيِّم** حين نادى:

فحـــيّ علـــى جنـــات عـــدن فإنهـــا
منازلُـــك الأولى وفيهـــا المخـــيَّمُ
ولكننـــا سَبْيُ العـــدو فهـل تُـرى
نعـــود إلى أوطاننـــا ونُسْـــلمُ

ومن مستلزمات السفر وبدهياته:

أ- الشوق إلى الوطن:

تشتاق الروح إلى وطنها في الدنيا حين تقاسي الغربة حينا بحثا عن رزق أو طلبا لعلم، وكثيرا ما تكون بلاد الغربة أجمل من الوطن وأطيب منه وأكثر رفاهية وترفا، ومع ذلك تحِنُّ النفس إلى الوطن الأول على فقره وبساطته، فكيف بحنينها إلى الوطن الذي في فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التي لا تنقضي؟!

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن عبد الله بن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٨٧٠٨.

١- منازلنا الأولى:

قال النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(١).

فطبيعة الحياة التي أراد لنا النبي ﷺ أن نحياها: حياة الغربة، فقد كنا نسكن الجنة إلى أن أُخرِج منها أبونا آدم عليه السلام إلى هذه الدار، والطريد من أمثالنا يسعى إلى الرجوع ويطلب العودة استجابة لدعوة العقلاء والحكماء من أمثال ابن **القيِّم** حين نادى:

فحـــيَّ علـــى جنـــات عـــدن فإنهـــا
منازلُـــك الأولى وفيهـــا المخـــيَّمُ
ولكننـــا سَبْيُ العـــدو فهـل نُرى
نعـــود إلى أوطاننـــا ونَسْـــلمُ

ومن مستلزمات السفر وبدهياته:

أ- الشوق إلى الوطن:

تشتاق الروح إلى وطنها في الدنيا حين تقاسي الغربة حينا بحثا عن رزق أو طلبا لعلم، وكثيرا ما تكون بلاد الغربة أجمل من الوطن وأطيب منه وأكثر رفاهية وترفا، ومع ذلك تحِنُّ النفس إلى الوطن الأول على فقره وبساطته، فكيف بحنينها إلى الوطن الذي في فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التي لا تنقضي؟!

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن عبد الله بن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٨٧٠٨.



نقّلْ فؤادك حيث شئت من الهوى ... مـا الحـب إلا للحبيـب الأول
كم منزلٍ في الارض يألفه الفتى ... وحنينـه أبـدا لأول منـزل



وكيف إذا كان هذا الوطن أروع وأجمل وأعلى وأغلى؛ الشبر فيه يعدل الدنيا بأسرها بل أحلى:

« موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها »(١).

أتدرون لماذا خصّ النبي ﷺ السوط بالذكر؟!

لأن من شأن الفارس إذا أراد النزول في منزل أن يلقي سوطه قبل نزوله إعلاما بقدومه، فإذا كان مجرّد موضع السوط من الجنة خيرا من الدنيا وما فيها وأنت لم تنزل بعدُ من راحلتك إلى الجنة، فكيف إذا نزلت فيها وأقمت.

لذا يسعى أي غريب دنيوي حثيثا في العمل الشاق ويصل الليل بالنهار ويعانق التعب ويخاصم الراحة ليرجع إلى أهله وأرضه في أسرع فرصة، لسان حاله: أسمى أمنية لي أن أعود وبأي ثمن، ومسافر الآخرة أولى بذلك، لا يطيق اللبث في الدنيا والبعد على الجنة. قال إبراهيم بن أدهم: «نحن نَسْل من نسل الجنة، سبانا إبليس منها بالمعصية، وحقيق على المسبيّ ألا يهنأ بعيشه حتى يرجع إلى وطنه »(٢).

سقى الله أرض العاشقين بغيثه ... وردّ إلى الأوطـان كـلّ غريـبِ
وأعطى ذوي الهيئات فوق مُناهمُ ... ومتّـع محبوبـا بقـرب حبيـبِ

(١) صحيح: رواه البخاري والترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٣٥.
(٢) نثر الدر ٢/ ٦٤.

ولولا أن القلب على أمل باجتماع ثان ولقاء قريب لتفطَّر من لوعة الفراق وألم الهجر.

أعلّل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحةُ الأمل

وقد عبَّر عن كمال انتباه هذا المسافر المشتاق ويقظته وقوة عزمه الإمام ابن القيِّم حين وصف مسافرا أخرويا بقوله: « لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه »[1].

ولعل هذا ما دفع بعض الصالحين إلى إمساك العصا ليظلوا دوما متذكِّرين حالة السفر. قيل للشافعي: مالك تُدمن إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: لأذكر أني مسافر.

حملتُ العصا لا الضعف أوجب حَمْلَها ... ولا أني تحنَّيت على كِبَرَ

ولكنني ألزمتُ نفسي حملها ... لأُعْلمها أنَّ المقيم على سفر

لكن عدوك مستميت في أن يحول بينك وبين هذه النهضة القادمة ووثبتك نحو الجنة؛ يريد أن يحول بينك وبين حياتك الحقيقية، ويريد أن يقتلك، بل يريد أن يوقع بك ما هو أشد من القتل وهو ضياع الجنة وتمني الموت بين جنبات النار وهيهات!!

أخي..



الجنة أمامك والشيطان خلفك، فإذا تقدَّمت ربحت وإذا تأخَّرت أدركك العدو فأهلكك.

---

(١) طريق الهجرتين ١/ ٩٢.

ب- قصر الأمل:

وهل رأيتم مسافرا قط يبالغ في تزويق بيته وعمارة مسكنه وهو راجع إلى وطنه غدا أو بعد غد؟! ألا يتهمه الناس في عقله وينعتونه بالسفه؟! أليس من الأجدى أن يدّخر ما جمع من مال ليرجع ويتمتع به في وطنه؟! فمن استشعر أنه مسافر إلى الجنة، وأن إقامته في الدنيا مؤقتة زهد ولابد في ما بين يديه، وجعل عينيه على ما في الوطن الأول، وهو عن قريب إليه سائر ولدار غربته مغادر، وادخر ما يستطيع في دنياه من قربات وطاعات ليستأنس يوم الجزاء في الجنات.

وما حياتك الدنيوية إلا **الرحلة الأولى** من إجمالي أربع رحلات إجبارية، ومدتها على أحسن الفروض ما بين الستين والسبعين عاما، هي متوسط أعمار بني آدم إن لم يكن أقل، أما **الرحلة الثانية** فهي من الدنيا إلى القبر، ويستغرق مكوثك في هذه الحفرة آلاف الأعوام، أقل أو أكثر علم ذلك عند ربي، و**الرحلة الثالثة** من القبر إلى ساحة الحشر، ويستغرق العرض في ساحة الحشر يوم القيامة خمسين ألف سنة، و**الرحلة الأخيرة** هي من ساحة الحشر إلى الدار الأبدية في الجنة أو النار، فرحلتك الدنيوية هي كما ترى أولى هذه الرحلات وأقصرها على الإطلاق، لكنها الرحلة المحورية التي تحدّد الشقاوة أو السعادة التي تنتظرك في باقي الرحلات.

لا فناء إذن لأي بشر على وجه الأرض، إنما هو الانتقال والسفر فحسب، وهو ما عبّر عنه **بلال بن سعد** بما كان يقول في مواعظه:

«يا أهل الخلود، ويا أهل البقاء: إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما خُلِقتم للخلود والأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار»(١).

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٨٨.



فالموت ليس نهاية المطاف، إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبَّرة، التي لم يُخلق شيء منها عبثا ولا سدى.

ج- معرفة الوطن:

فالمسافر لا يهتم بمعرفة الكثير من التفاصيل عن مكان الغربة سوى المكان الذي يعيش فيه، ولا يتطلع إلى تفاصيل لا يحتاجها، فيكفيه من المعرفة ما بلَّغه المقصد من رحلته، ولا يأبه بما زاد عن ذلك، أما وطنه الأصلي فهو على دراية تامة به: يعرف طرقه وسككه، وحدائقه ومتنزهاته، وأسواقه ونواديه، وكذلك المؤمن في الدنيا يعرف الجنة أكثر، ويعلم نعيمها ووصف أركانها قبل أن يدخلها، لأنها وطنه الأبدي ومستقره الأخير، لذا كان التفكير فيها ومعرفتها من البدهيات، حتى إذا ما وصلها العبد لم يحتج إلى أن يستدل أحدا على بيته من وسط ما لا يُحصى فيها من البيوت، وكأنه سكنها منذ خُلِق، فيكون المؤمن أهدى إلى درجته في الجنة وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦].

ومصداق قول النبي ﷺ:

«فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا»(١).

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥٥٨٩.

فهذا دليل على أن الله ألقى في روع المؤمنين أين بيوتهم ونعيمهم هناك فساروا إلى هناك بغير دليل، أو أنهم من كثرة ما عرفوا عن الجنة في دنياهم لم يحتاجوا في الآخرة إلى تعريف.

أخي المسافر:



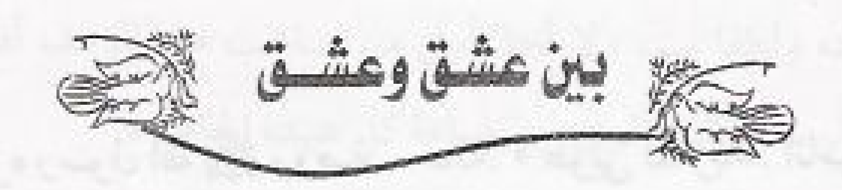
ماذا عرفت عن وطنك الأول ومستقرك الأخير ومحل إقامتك الأبدية؟! هل ما عرفته عنه هو مثل ما عرفت عن دنياك؟! أو نصف ما عرفته عنها؟! أو حتى العُشر؟!

وفي الآية قول آخر أنه من العَرْف وهو الرائحة الطيبة، ومنه طعام مُعرَّف أي مُطيَّب، وهو قول **الزجّاج**[1]، وهي الرائحة النفَّاذة للجنة التي قال عنها النبي ﷺ: «**وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**»[2]، وفي رواية: سبعين عاما، وفي رواية: مائة عام، وهذا من كرم الله وتفضُّله على عباده المؤمنين أن جعلهم ينتفعون بريح الجنة قبل أن يدخلوها، ولعله أيضا من التشويق اللذيذ حين يجد العبد هذه الريح التي لا توصف فيسرع ويسابق ليرى منبع العطر الفوّاح: الجنة!!



(١) حادي الأرواح ص ١٠٠.

(٢) صحيح: رواه البيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٨٨.



بين عشق وعشق

ماتت ليلى ولما عرف قيس بموتها ركض كالمجنون مسرعا ناحية القبور، ثم أخذ يشُمُّ القبور قبرا قبرا يبحث عن حبيبته، حتى اهتدى إلى قبرها، ووقف عنده يلثمه ويبكي، فقيل له: كيف عرفته وما دلَّك أحد عليه؟! فأجاب منشدا:

أرادوا ليُخفوا قبرها عن محبها ... وطيبُ تراب القبر دلَّ على القبرِ

ثم أردف قائلا:

عرفت القبور بعَرْف الرياح ... ودلّ على نفسه الموضعُ

كثكلى تلمَّسُ قبر ابنها ... إلى القبر من نفسها تُدفَعُ

هداها خيالُ ابنها فاهتدت ... ولـيلى الخيالُ الذي أتبعُ

فكيف بريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة عشرات الأعوام، فكيف لم يشم قلبك ريحها فيركض إليها متوثبا في حين شم هذا المجنون ريح «ميتة» اسمها «ليلى» بعدما بليت!! ويحك!! لا يشُمُّ ريحَ الجنة إلا عاشق، فهل عشقت؟!

د- الغربة:

ومن معاني السفر أن المسافر غريب في أمر دنياه وآخرته، لا يجد صاحبا ولا معينا، فهو عالم بين جهلة، وصاحب سنة بين هاجريها، وداع إلى الله ورسوله بين

دعاة إلى الأهواء والشيطان، وآمر بالمعروف بين آمرين بالمنكر، ناه عن المنكر بين دعاة إليه.

لذا بشَّره رسول الله ﷺ ووصف حاله: « **طوبى للغرباء: أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم** »[1].



سئل أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم: ما تمام النعمة؟ قال: « أن تضع رجلا على الصراط ورجلا في الجنة »[2].

٢- الحياة صفقة

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ما أجمل هذه الصورة البديعة والتمثيل الرائع، صورة العقد الذي عقده رب العزة جل جلاله بنفسه، وجعل ثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسجل كلماته بحروف من نور في الكتب السماوية الثلاثة، وما أشرفه من

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٢١.

(٢) الشكر ١/ ١٧٩.

صك وتوثيق، ووعدا ألزم الله به نفسه وجعله حقا عليه مبالغة في الفضل منه والكرم وإيناسا لعباده ولطفا بهم، ولا أحد أوفى من صاحب هذا الوعد، أفضلها: فالوعد الغائب من الرب الغائب أقوى من بضاعة كل عبيده الحاضرة.

لكن.. ماذا تساوي نفوسنا المعيبة -وإن طهرت- حتى يشتريها الله منا بكل هذا الثمن، لذا قال **الحسن البصري وقتادة**: « **بايعهم والله فأغلى ثمنهم** »[1].

وهو ما دفع **محمد بن الحنفية** أن يحثك على تزكية نفسك وتطييبها بالعمل الصالح والطاعات والقربات مبرِّرا ذلك بقوله: « **إن الله عز وجل جعل الجنة ثمنا لأنفسكم فلا تبيعوها بغيرها** »[2].

أثامِن بالنفس النفيسةِ ربَّها ... ولَيسَ لها في الخلق كُلِّهِمُ ثَمَنْ

بها تُملك الأخرى فإنْ أنا بِعتُها ... بشيءٍ من الدُّنيا فذاك هو الغَبَنْ

لَئِنْ ذَهَبَتْ نفسي بدنيا أُصيبها ... لقد ذَهَبَتْ نفسي وقد ذهب الثَّمَنْ

أنت إذن -يا أخي- غال جدا عند الله، يحبك ويريد أن يكرمك غاية الإكرام، لذا اشتراك بجنة عرضها السماوات والأرض، جنة لا تُقدَّر بمال، فأنت والله أغلى عنده من الدنيا بأسرها، وقد مرَّ بك: «**موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**».

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٥.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ١٧٧، وهو محمد بن علي بن أبي طالب، ويكنى أبا القاسم، وسبب ذلك ما صحَّ في سنن أبي داود: قال علي رحمه الله: يا رسول الله!! أرأيت إن ولد لي ولد بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟ قال: نعم.

فكيف بعت هذه النفس الثمينة بشهوة تنقضي في لحظة؟! وبلذة لا تبقى سوى ساعة؟! وهبها بقيت أياما أو أعواما فماذا تساوي بجوار لذة الخلد؟! وبعتها لمن؟! لأعدى أعدائك: شيطانك!!

هذا ما دفع ابن القيم أن يتعجَّب منك في إحدى فوائده قائلا: « إنما أبعدنا ابليس إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك، فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا!! »(١).

أخـي. اعرف إذن هذه الحقيقة الساطعة: أنت لا تملك نفسك، ولا يحق لك التصرف فيها دون إذن المالك، يصرِّفها حيث يشاء؛ يقول لك هذا حلال فتقبل، وهذا حرام فتُعرِض، افعل كذا ولا تفعل كذا، تكلم بهذا ولا تنطق بهذا، امش إلى هنا ولا تقترب من هناك، بل لو قدَّمك للذبح عن طريق جهاد أو كلمة حق في مواجهة طاغية فعلى أي شيء تعترض؟! وهو إنما يتصرف في ما اشتراه منك وبعته له، وأعطاك في المقابل الجنة، أفترجع في بيعتك؟! أم أنك لم تبع وزهدت في الجنة من الأساس؟! وإذا بعت.. أيحسن لمن باع شيئا أن يغضب على المشتري إذا تصرَّف فيه أو بتغير قلبه تجاهه إذا أنفقه؟ وماذا لنا فينا حتى نتكلم!!

إنها البيعة المعلَّقة في عنق كل مسلم عرف أم لم يعرف، ولا بد من الوفاء، وهو قول شَمِر بن عطية: «ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو

---

(١) الفوائد ١/ ٧٧.



مات عليها، ثم تلا هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ ﴾[1].

إن الله تعالى وحده هو المستحق أن يُطاع ويُحب ويُعبد لذاته حتى لو لم يثب عباده شيئا لا أن يمنحهم الجنة لأنه هو الذي خلق وهدى ورزق كما أنشد بعضهم:

هب البعث لم تأتنا رُسْله	وجاحمة النار لم تضرمِ
أليس من الواجب المستحق حياءُ العباد من المنعمِ	

لكنه تعالى كافأ عباده وشوَّقهم وأرسل الآيات تلو الآيات تهيب بالسامعين التشمير للجنة والرحيل إليها، وبعد كل هذا تُعرضون!!



(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٥



سلِّم واستلم!!

إخوتاه.. البائع لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم ما باعه، فكذلك لا يستحق العبدُ الجنة إلا بعد تسليم النَّفس والمال إلى المشتري، فمن قعد أو فرَّط فغيرُ مستحقٍ للجنة، فهل سلَّمت ما عليك لتستلم ما اشتهيت؟!

وهل من باع نفسه وعلى استعداد أن يقدِّمها للذبح إرضاء لربه لا يقوى على ما هو أهون من الذبح بكثير؟! من غضِّ بصر أو الاستيقاظ فجرا لصلاة أو الصبر عن لقمة حرام تُعرض عليه رشوة أو شبهة؟!

وإذا لم يقو على هذا «الأسهل» فهل مثله باع فعلا؟! أم أنه يطمع في نيل أغلى سلعة بأبخس ثمن!! وصدق القائل:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهـــونُ ما يمرُّ به الوُحولُ

ومثل هذه المواجهة المتكررة للنفس الأمارة بالسوء تورث العبد ولابد واحدا من أجل الأخلاق وهو خلق «الحياء» الذي يعصم من كثير من الرذائل ويدفع لإحراز أسمى الفضائل.

لكن.. ماذا بعد إبرام البيعة؟!

الجواب: قول الله تعالى:

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]

أخــي كلما لمست من نفسك فتورا أو انشغالا بالعاجلة أو إيثارا للفانية اسأل نفسك: هل بعتُ؟! هل اشتريتُ الجنة حقا وبعت نفسي ومالي في سبيلها؟! وما الدليل على ذلك؟! وأي عقل في التأخر عن صفقة كهذه؟! أو الانشغال عنها بغيرها؟! من يهب نفسه اليوم لربه وقد اشتراها، ومن باع فليبادر، ولا يجزع مما يحاذر.

يقول سيد قطب في الظلال:

« إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!!

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة - أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يُحدِّد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخيَّر، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة ».

صحابة باعوا سلفا!!

ولكي تستشعر معنى هذه البيعة حقا اقرأ في من نزلت آية البيعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ ﴾:

نزلت في بيعة العقبة الكبرى في العام الثالث عشر من البعثة، وهو العام الذي أتى فيه الأنصار يربو عددهم على السبعين يبايعون الرسول ﷺ بيعة التضحية والفداء، فقام منهم عبد الله بن رواحة ﷺ قائلا لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قال: ربح البيع.. لا نقيل ولا نستقيل.

وفي تفصيل أكثر لما حدث: قام أسعد بن زرارة ﷺ وهو أصغر السبعين فقال: رويدا يا أهل يثرب!! إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عضّ السيوف إذا مسّتكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة؛ فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا جميعا: أمط يدك يا أسعد، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقاموا إليه يبايعونه رجلا رجلا، يأخذ عليهم شرطه ويعطيهم على ذلك الجنة.

واعجبا!! قوم أيقنوا بالجنة ولما يمض على إسلامهم سوى برهة قصيرة من الزمن، فمنهم من أسلم منذ يوم واحد، ومنهم من أسلم من يومين، ومنهم من أسلم من شهر أو شهرين، وأقدمهم إسلامًا من أسلم منذ سنتين!! وبرغم ذلك ومع أن الجنة غيب لم يروه، فهم يبذلون في سبيلها أغلى ما يملكون: النفس والمال ويتعرضون لأخطر ما يكون، ونحن نسمع عن الجنة مذ وعينا طوال عمرنا وما دفعنا نفس الثمن، فهل أيقنت نفوسنا هذا اليقين؟! وهل نحن على استعداد لنفس البذل؟!

وآخر باع نفسه للعدو!!

هل توقظك العبر فلا تستيقظ، وتعظك الآيات فلا تتعظ، لم يكْفك ما تزل بأمتك الثكلى عن جهالتك، ولا ردَّتك هزائمها المتوالية عن ضلالتك، تُصغي إلى الهدى كأنك أصم، وتتمادى في العناد بأنف أشم، قد غطَّى الهوى سمعك وعينك، وحال بينك وبين ربك، وملك الشيطان مفاتيح قلبك ثم ضيَّعها حين رمى بها في متاهات الضلالة.

كم طرقت بابك المواعظ لتنتشلك من غفلتك، فناداك الشيطان: إياك والفلاح!! فسمعت له وأطعت، استسهلت القول واستصعبت العمل، أمَّلت النجاة بغير تعب، وطلبت الجنة دون دفع الثمن، إن افتقرت حزنت، وإن اغتنيت فُتِنت، إن سألت ربك أكثرت، وإذا سألك ربك قتَّرت، تنشط للطاعة يوما أو بعض يوم ثم سرعان ما تزهد، وتبغي الازدياد من الجديد قبل أن تؤدِّي شكر القديم.

حاشاك أن تكون كذلك..

حاشاك.. ثم إياك إياك من موافقتك هواك.

نسائم الأشواق

اجتمع عبد الله بن عمر وعروة بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: تمنوا. فقالوا: ابدأ أنت. فقال: ولاية العراق وتزوج سكينة ابنة الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ذلك وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم وجهزّها بمثلهم، وتمنى عروة بن الزبير الفقه وأن يُحمل عنه الحديث فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة[1].

اعرف.. يهن

من عرف قدر الجزاء صبر على طول العناء، ولا عبر أحد إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب، فمصالح الدنيا والآخرة منوطة بالتعب، فدون نيل المعالي هول العوالي، وما يُدرك منصب بلا نصب، وعلى قدر التعب تكون الراحة، ومن طلب الراحة بالراحة حُرِم الراحة، فيا طول راحة المتعبين.. هذا في الدنيا بحساب البشر، فكيف بالراحة الأبدية في الجنة وبحساب أكرم الأكرمين؟! فإذا أردت أن لا تتعب.. اتعب، وتشقى الأجساد في خدمة النفوس الأبية.

ونحن في ميدان الحياة نرى الكادحين في أعمالهم الناجحين فيها يسهرون الساعات الطوال أشهر وسنين طمعا في راتب كبير ينتظرهم آخر الشهر أو ترقية

---

(١) عيون الأخبار ١/ ١١٠.

منتظرة مع ما يعانونه من حرمان وفراق الأهل والجهد الذهني والعضلي الشاق.. ففكِّر في الجنة كما تفكِّر في الراتب!!

يقول ابن القيِّم:

« النعيم لا يُدرك بالنعيم، وإن من آثر الراحة فاتته الراحة، وإن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلا استراح طويلا، وإذا تحمَّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة»(١).

وهذا ما يحدِّد لك طريقة التعامل الصحيحة مع نفسك التي بين جنبيك، لذا كان من الوصايا الذهبية:



« احذر نفسك، فما أصابك بلاء قط إلا منها، ولا تهادنها، فوالله ما أكرمها من لم يُهِنها، ولا أعزَّها من لم يُذِلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يُتعبها، ولا أمَّنها من لم يُخوِّفها، ولا فرَّحها من لم يُحزِنها»(٢).

من أجل هذا هان على الصحابي الجليل أبي سفيان بن حرب ﷺ فقد عينه في سبيل الجنة، فقد شهد الطائف مع رسول الله ﷺ ورُمي يوم ذاك فذهبت عينه، فقال له النبي ﷺ وقد رآه وعينه في يده: «أيهما أحب إليك: عين في الجنة أو أدعو

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٥.

(٢) الفوائد ص ٦٨.



الله أن يَرُدَّها عليك؟ ». قال: بل عين في الجنة، ورمى بها!![1]، ولم يكتف بذلك، بل فقد عينه الأخرى في اليرموك!!

ولكمال هذه المعرفة واليقين فقد هان كذلك على عبد العزيز بن رواد التضحية بما هو أهون، وهو فراق فراشه وهجر نومه، فكان إذا جنَّ عليه الليل يأتي فراشه، فيمدُّ يده عليه ويقول: «إنك لليِّن، ووالله إن في الجنة لألين منك»[2]، وهي الوصية المدهشة التي أوصانا بها ابن الجوزي:

« لا يصعبنَّ على الخيل تضميرها، فستفرح به يوم السباق »[3].

المقارنة العقلية

ولا وجه للمقارنة بين الدنيا والآخرة كما ولا نوعا، وأحاديث النبي ﷺ عرضت هذا البون الشاسع، وحاولت تقريبه للعقول بأمثال تزيد الأمر وضوحا، فالفارق الكمي أقسم عليه النبي ﷺ يوما فقال:

«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع»[4].

لكن لماذا يُضرب المثل؟!

يضرب المثل ليعبِّر عن غائب يصعب تصوره بحاضر ملموس يشبهه في بعض وجوهه، وتمثيل الدنيا بقطرة الماء التي تعلق بالأصبع من البحر هو تقريبٌ

(١) الوافي في الوفيات ٢٢٤٠.

(٢) الإحياء ١/ ٣٥٥.

(٣) المدهش ص ٤٩٦.

(٤) صحيح: رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن المستورد كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٠٠.

لقدر الدنيا إلى العقول، وإلا فالدنيا كلها في جنب الجنة أقل من القطرة بالنسبة للبحر لأن البحر يفنى إذا تتابع أخذ القطرات منه، والجنة لا تبيد ولا يفنى نعيمها مهما أُخِذ منها.

خذ هذه الحقيقة العلمية لتقريب الصورة، فإن الأبد لا يمكن لحدود العقل البشري القاصر أن يحيط به:

بعض المجرات تبعد عن الأرض ألف مليون سنة ضوئية، ومعلوم أن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلو متر، ضرب ستين ثانية بالدقيقة، وضرب ستين دقيقة بالساعة، وضرب أربعة وعشرين ساعة باليوم، وضرب ثلاثمائة وخمس وستين يوم بالسنة، وهذا ما يسميه علماء الفلك بالسنة الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة، بمعنى آخر: السنة الضوئية تساوي ٩,٥ مليون مليون كيلو متر، اضرب هذا الرقم في ألف مليون سنة لتحسب بُعد هذه المجرة عنا[1]، ثم اعلم أن هذه المسافة وهذا الجزء من الدنيا -على ضخامته- لا يساوي بجوار الجنة الأبدية سوى قطرة في بحر.

هذا عن الفارق المادي، أما الفارق النوعي ففي الحديث الثاني يوضِّح النبي ﷺ الهوة السحيقة بين الدارين:

«لو أن ما يُقِلُّ ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض، ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره؛ لطمس ضوء الشمس

---

(١) حقيقة علمية: يجتاز ضوء الشمس مسافة ١٥٠ مليون كيلو متر حتى يصل إلينا، وبذلك يستغرق ضوء الشمس ٥٠٠ ثانية أي حوالي ٨ دقائق حتى يصل إلينا، على حين أن أقرب نجم إلينا تصل أشعته لنا في ٤ سنوات!! وهناك نجوم لا تصلنا أشعتها إلا بعد ١٠٠ مليون سنة!



كما تطمس الشمس ضوء النجوم »[١].

ومعنى الحديث أنه لو أنَّ ما يحمله ظفر من نعيم الجنة ظهر لتزيَّنت لهذا المقدار الضئيل جوانب السماوات والأرض!!

يا عشاق الأرض

مع كل جرعة في الدنيا لكم شرَق، وفي كل أكلة غصص، لا تصفو لكم نعمة تُسرُّون بها إلا بفراق نعمة تُفجعون بها، ولا تحصِّلون راحة إلا بتعب، ولا يستقبل أحدكم يوما من عمره إلا بخطوة تدنيه من قبره، ولا ينال زيادة في مطعمه إلا بإنفاد شيء من رزقه، فأين هذا كله من الجنة؟! فلا تذهب نفسك على الدنيا حسرات.

لا تُتْبِع النفس كل فائتة ... في الله من كل فائت عوض

واعمل لأخراك غير منخدع ... فإن دنياك هذه عرَض

إن صحَّ أمر من الأمور بها ... لابد أن يُصيبه مرض

أخي .. أختاه

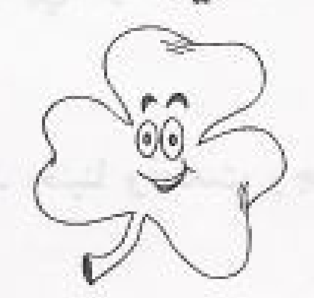


نظرة إلى الدنيا بسائر نعيمها والآخرة بأدنى متاعها وتدرك الفرق ، لذا ينظر المؤمن إلى الدنيا بجوار الآخرة كفضلات طعام أو أقداح فارغة فوق الموائد بل أحقر ، وما الطمع في شيء يخضرُ ربيعا ثم يذبل خريفا ثم يموت بعد ذلك في الشتاء!!

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي عن سعد كما في صحيح الجامع رقم : ٥٢٥١.

أخي.. أختاه:



مهما نال المرء من دنياه وفرح أيما فرح، فليس ذلك بشيء.. المهم أن تضحك في النهاية، فمن يضحك أخيرا يضحك طويلا: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

بين عشق وعشق

ولو قيل للمجنون ليلى وَوَصلَها تُريدُ أم الدُنيا وما في طواياها

لَقالَ غُبارٌ مِن تُراب ديارها أَحبُّ إلى نَفسي وأَشفى لرؤياها

وهذا شعر قيل في عشق امرأة ماتت وهلكت ومع ذلك ضُحّي في سبيلها بالدنيا بأسرها!! فكيف لا يُقال في عشق جنة لا قدر لها ولا فناء ولا تعب فيها والفرحة كل الفرحة لساكنها.

غارس الأشواق!!

تأملوا يا عاشقين:

يرى النبي ﷺ آل ياسر يعذبون فيقول: «صبرا آل ياسر!! فإن موعدكم الجنة».

وتظل الذكرى خالدة في قلب عمار ويمتلئ قلبه حبا للجنة وشوقا لها، فلما رأى الناس يفرون يوم اليمامة وقف على صخرة وأشرف يصيح فيهم: يا معشر

المسلمين! أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر، هلموا إليَّ! وكانت أذنه قد قُطِعت، فهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال.

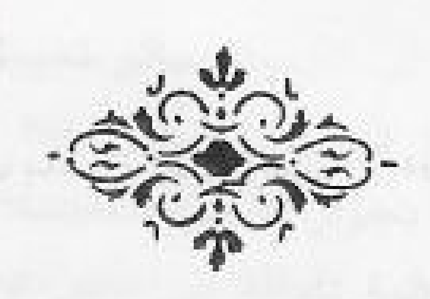
وعمير بن عمرو بن مالك الأنصاري ﷺ لما شهد حنينا وقطعت رجله يومئذ قال له النبي ﷺ مبشرا: «سبقتك إلى الجنة».

ويبعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلي ليقتله لما بلغه أنه قد جمع الجموع لقتال المسلمين، وأدى عبد الله بن أنيس المهمة على خير وجه واجتز رأس سفيان، ووضع رأسه بين يدي رسول الله، وعندها دفع إليه النبي الكريم عصاه قائلا: «تخصَّر بهذه في الجنة!»، وفي رواية: «تخصَّر بهذه حتى تلقاني، وأقل الناس المتخصِّرون»[١]، فكانت عنده حتى حضرته الوفاة، فأوصى أهله أن يدرجوها في كفنه ففعلوا.



كان عطاء السلمي قد اشتد خوفه، وكان لا يسأل الله الجنة أبدا، فإذا ذُكرت عنده الجنة قال:

«نسأل الله العفو»[٢].



(١) الصحيحة رقم: ٢٩٨١.

(٢) الحلية ٩/ ٢٦٦.



الفصل الثاني

من نعيم الجنة

إخوانـــي.. هل يشتري أحدكم سلعة لا علم له بها وبمواصفاتها؟! أو يدفع أحد مالا أو جهدا في مجهول؟! إن من تمام العقل معرفة ما تشتري ليسهل عليك دفع ما قد تراه غاليا لأول وهلة، وهو ليس بغالٍ إذا علمت قدر السلعة المشتراة كما قيل:

فلما تلاقينا وعاينتُ حسنَها تيقنتُ أني إنمـــا كنت ألعبُ

وهدف هذا الباب ووظيفته الكبرى التي أتمنى أن تتحقق لكل ذي عينين تقرءان هو: التشويق!! وآخر التشويق أخبرنا عنه ابن الجوزي فقال:

« الاحتراق على قدر الاشتياق»[1].

وصدق رحمه الله، احتراق في المعاش على قدر الاشتياق إلى المال، واحتراق في العلم على قدر الاشتياق إلى المعرفة، واحتراق أهل الباطل في سبيله على قدر اشتياقهم إلى ظهور الباطل وعلوه، والأولى من كل ذلك: الاحتراق بذلا وعملا لشراء الجنة على قدر الاشتياق إليها، أليس كذلك؟!

لكن.. قبل أن نستشرف نعيم الجنة؛ لابد أن نقرِّر هذه الحقيقة: حين يصور الله لنا نعيما إنما يصوِّره التصوير الذي تستطيع اللغة أن توصله للمخاطَبين،

---

(١) المدهش ص ٤٥١.

وليس معنى هذا أن هذه هي الصورة الكاملة الدقيقة.. لماذا؟!

لأن ألفاظ اللغة تأتي على قدر إدراك المدرك وبحسب الصور التي يشاهدها أمامه، وخيال المرء وحدود عقله مرتبطة بسمعه وبصره، فلا يمكن للعقل أن يتخيَّل إلا ما شاهد مثله أو سمعه من قبل لكن مكبَّرًا أو مركَّبا في صورة مغايرة، ولما كان الغيب مما يسمو على السمع والبصر: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت»؛ كان تصور الجنة المترتب عليهما مستحيلا: «ولا خطر على قلب بشر».

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير:

« فإن مدركات العقول منتهية إلى ما تُدركه الأبصار من المرئيات من الجمال والزينة، وما تدركه الأسماع من محاسن الأقوال ومحامدها ومحاسن النغمات، وإلى ما تبلغ إليه المتخيلات من هيئات يركِّبها الخيال من مجموع ما يعهده من المرئيات والمسموعات، مثل الأنهار من عسل أو خمر أو لبن، ومثل القصور والقباب من اللؤلؤ، ومثل الأشجار من زبرجد والأزهار من ياقوت وتراب من مسك وعنبر، فكل ذلك قليل في جانب ما أُعِدَّ لهم في الجنة من هذه الموصوفات، ولا تبلغه صفات الواصفين لأن منتهى الصفة محصور فيما تنتهي إليه دلالات اللغات مما يخطر على قلوب البشر».

فالله حين يعرض لنا عذابا في الآخرة أو نعيما لا يعرض حقيقة هذا العذاب أو النعيم، إنما يعرض لنا ما تطيقه أفهامنا بحسب الإمكانات التي تسمح بها لغتنا، واللغة: ألفاظ تبرز معاني، والمعنى لابد أن يوجد أولا ثم يوجد اللفظ الذي يعبِّر عنه، ولا يمكن أبدا أن يأتي لفظ أولا ثم نخترع له معنى يناسبه، فإذا كانت المعاني لا وجود لها في الأذهان كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «ولا خطر على

قلب بشر»، فكيف يمكن أن نوجد لهذه المعاني ألفاظ تعبِّر عنها؟!

لكن لما كان القرآن نازلا لكي يكون كتابا مفهوما وقريبا من متناول العقول والأفهام، كان السبيل الأمثل إلى وصف ما غاب عنا من نعيم الجنة هو ضرب الأمثال وصيغ التشبيه لتقريب الصورة التي لا يستطيع الخيال لها تصويرا، ولا يستطيع اللسان عنها تعبيرا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وكذلك قوله في الرعد:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾

[الرعد: ٣٥].

والشاهد هنا: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾

فما تقوم به الآية هنا هو التشبيه وضرب المثل، ومن رحمته سبحانه بنا أن عرَّفنا الجنة التي وعدنا بها عن طريق تشبيهها بما شاهدته عيوننا من أمور الدنيا وعايناه.

لكن..

ومرة ثانية..

هل هذه الصورة هي الحقيقة؟!

اسمعوا الظروف والبيئة التي نزل فيها القرآن لتفهموا:

نزل القرآن أول ما نزل في أمة بدوية كانوا يعيشون ظروفا معيشية قاسية يكابدون حر الشمس وشح الماء وقلة الزاد، ولذا كان تقريب صورة الجنة لهم عن طريق وصف ما يراه العربي أرقى أنواع التمتع، فالماء الذي هو سر الحياة كان البدوي يرحل بحثا عنه حتى إذا ما وجد بئرا في الصحراء نصب عندها خيمته واستقر في وطنه الجديد وقلبه مستطار فرحا، فكيف إذا لم تكن بئرا وكانت عينا جارية؟!

واللبن في الضرع هو أرقى أنواع اللذة عند العرب، لكن آفته أنه يفسد مع حر الصحراء وظروفها، فذكر اللبن مبرّءا من العيب كما يفهمه المتلقي هو قمة المتعة عنده، لكن هل طعمه مثل لبن الدنيا؟! كلا وحاشا.

والخمر وصفها بأنها لذة، لأن خمر الدنيا فيها لسعة في الطعم، فذكر أنهم سيلتذون بها في الجنة دون أن يجدوا فيها الأثر الدنيوي الذي يعيبها، ولذا لما سمع عالم قول شاعر: ما لها تحرم في الدنيا وفي الجنة منها؟ قال: لصداع الرأس ونزف العقل. مشيرا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، فالله وصف اللذة الكاملة للخمر التي لا يشوبها ما ينغّصها من الصداع وذهاب العقل.

والعسل كثيرا ما تشوبه الشوائب وتنغّص مذاقه، ولا تنغيص في الجنة، لذا وصف الله عسل الجنة بأنه مُصفًّى.

وهكذا في سائر متع الجنة، كل ما يُذكر منها يناسب عقل المخاطب عن طريق



الشبيه له في الدنيا، أما على أرض الواقع فهو ما لا تطيقه العقول ولا تقدره الأفهام.

ودور هذا الباب أن يحدُثكم عن الجنة، وقد اخترت لكم أحلى نعيمها أعرضه عليكم، وانتقيت من مشاهدها ما يوقعكم في غرامها، وسأظل أكرِّر ذلك عليكم حتى تهيموا بها شوقا وتتغنوا بها عشقا، شعاري وشعاركم:

أجبتكمْ من قبل رؤياكمُ ... لطيب ذكرٍ عنكمُ قد جرى

كذلك الجنة محبوبة ... بوصفها مِن قبل أن تُبصرا

أول مشاهد الجنة

لكن.. متى تشاهد أول هذا النعيم؟!

أول لقطة من الجنة، وأول مرة تلوح لك وتظهر وتتزين لك وأنت بعدُ في الدنيا وعلى مشارف الموت وفي انتظار قبض روحك؛ مصداق قول النبي ﷺ في حديث البراء: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة...**».

فأول ما يرى العبد من الجنة ثلاثة: الملائكة والأكفان والحنوط، لتبدأ نار الشوق تشتعل في قلبه، وتظل متقدة تبرد بحلاوة اللقاء، ولعل الله يسمح لبعض الصالحين بالإخبار عن بعض ما رأى، فلما حضرت الوفاة عمر بن حسين سمعه من حضره يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] ، فقيل لمالك: أتراه قال هذا لشيء عاينه؟ قال: نعم[١].

---

(١) المحتضرين ص ٢١٨

وكذلك أبو بكر النقاش كان وهو يجود بنفسه في ثالث شوال سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة يحرّك شفتيه، ثم نادى بعلو صوته: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يردّدها ثلاثا، ثم خرجت نفسه رحمه الله[1].

حتى إذا نزل هذا العبد قبره وجده روضة من رياض الجنة فيظل يهتف بعدها: رب أقم الساعة.. رب أقم الساعة.

لكن قبل البدء في وصف الجنة يبادرنا سؤال هام:

ما هي الجنة؟!

هل الجنة مجموعة أشجار وفواكه وطعام وشراب وقصور وحور عين فحسب؟! إن أكثر من يطلب الجنة اليوم يغمطها حقها حين يحصرها في هذه الأشياء، وبالبحث والنظر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وما يحصل عليه المؤمنون ويتمتع به الصالحون نجد أن نعيم الجنة ينقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسة:



أولا: ملذات جسدية مادية:

وهذه بدورها تنقسم إلى أنواع متعددة فالملذات الجسدية تشبع شهوات كثيرة: فطعام من لحم طير وفواكه، وشراب من رحيق مختوم وخمر وعسل وماء ولبن، وملبس من حرير وسندس وإستبرق، وحلي من أساور من ذهب وفضة

---

(1) معرفة كبار القراء ص ٢٩٨.

ولؤلؤ، وأزواج مطهرة من حور عين لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.

ومن هذه اللذات المادية الجسدية اخترت بعض الأمثلة فحسب لأن هذه اللذائذ لا تُعدُّ ولا تُحصى ويستحيل الإحاطة بها جميعا، لكن يكفيك هذه اللمحات كبيان جزء من كل لتُشعل في قلبك الأشواق وتدفع إلى البذل لها حتى العناق.

١- الخلود

وقد جاء ذكر الجنة في القرآن جامعا بين الخلود والأبد في تسعة مواضع، لأن الخلود في اللغة يعني طول الإقامة أما الأبدية فتعني البقاء الذي لا انتهاء له، وتخيل معي الانتقال إلى نعيم الجنة الذي لا انقطاع له، فما قدر عمرك بل ما قدر جميع أعمار أهل الدنيا بالإضافة إلى هذا البقاء الأبدي، ومن لمح بقلبه هذا النعيم حتى قبل أن يذوق بقية نعيم الجنة طاش عقله فرحا، وهان عليه أي ألم يلقاه، وإذا كان الموت هو الطريق الوحيد إلى ذلك النعيم هان والله الموت وطاب!!

ولهذا سميت الجنة دار الخلود، وسميت الدنيا دار الغرور، قال ﷺ:

«يؤتى بالموت كأنه كبش أملح حتى يوقف على السور بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون ويقال: يا أهل النار! فيشرئبون فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم!! هذا الموت فيضجع و يذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحا، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها لماتوا ترحا»[1].

ودعونا نتخيل الموقف السابق ونحيا بعض مشاعره، فعندما يُنادي: يا أهل الجنة!! يطلعون يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم للنظر وكأنهم خافوا أن يُحرموا من نعيمهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار!! فيطلعون فرحين

---

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٨.

مستبشرين أن يخرجوا من شقائهم الذي يعانون[1]، لكن عندما يُذبح الموت أمام أعينهم، يخلد كل منهما في مستقره مع الفرحة الأبدية أو الحسرة السرمدية.

وقد يستغرب قوم هذا الحديث لكونه يخالف صريح العقل لأن الموت حال، والحال لا ينقلب أبدا جسدا، فكيف يُذبح؟!

والجواب: إن الله يخلق أشخاصا من ثواب الأعمال، كما ثبت في الصحيح من أن البقرة وآل عمران تجيئان كأنهما غمامتان تُحاجّان عن أصحابهما، ومن أن التسبيح والتهليل والتحميد ينعطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل تُذكّر بصاحبها، ومن أن العمل الصالح يأتي صاحبه في القبر على هيئة رجل حسن الوجه حسن الثياب، والعمل الخبيث يأتي صاحبه على هيئة رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، ومن أن الأعمال تُجسّم على هيئة نور يقسّم بين المؤمنين يوم القيامة فيُعطون نورهم على قدر أعمالهم، فكذلك الموت؛ يخلق الله الموت على هيئة كبش، ويلقي في قلوب الفريقين أن هذا الموت ويكون ذبحه دليلا على الخلود في الدارين.

وهو شيء فوق الوصف ويفوق الخيال لدرجة أن أهل الجنة لا يكادون يصدّقون أنهم حازوا هذا الخلود، فلا يخطر لهم ببال، لذا يصيحون متعجّبين: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات:٥٨-٥٩] قال الحسن: «علموا

---

(١) وتشهد لهذا رواية أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط، فيُقال: يا أهل الجنة!! فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار!! فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟!... الحديث»، وهو في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٧٧٣.

أن كل نعيم بعده الموت منقطع، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. قيل: لا، فقالوا: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾»[1].

لكنه ليس والله الخلود والأبدية فحسب، بل وأعلى من الخلود: الحال التي يكون عليها الخالدون!!

قال ﷺ: «**يُنادى أهل الجنة: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا**».

وتأمل دوام البقاء في الجنة في صفاء لا كدر فيه، ولذات لا انقطاع لها، وفرح لا ينتهي أبدا، وبلوغ كل ما تتمناه النفس وتشتهيه، والاغتراف منه من غير زوال له أبدا، فهو الخلود ومضافا إليه: أقصى درجات النعيم والسرور والراحة والرفاهية.

أخي.. الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لا بد من نزول القبر، وحياتنا الدنيوية ليست حياة حقيقية لأن من ورائها الموت، أما الدار الآخرة فهي الحياة الحقة: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

وسر اختيار كلمة الحيوان هنا أن في بناء هذه الكلمة زيادة مبنى تدل على زيادة معنى؛ مبالغة في معنى الحياة لأنك تتنعم في آخرتك على قدر كرم الله وملكه بعكس الحياة الدنيا التي تتنعم فيها على قدرك أنت وفي ضوء ما عندك من أسباب، ووزن «فعلان» يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والثوران، وليست توحي كلمة الحياة بأي من هذا.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٢٨٤ بتصرف.

قسّم عمرك معي

وما قيمة عمر غايته مائة عام؛ إذا كان خمس عشرة سنة منها جهل ولهو قبل سن التكليف، وثلاثون بعد السبعين - إن حصلت - فبين ضعف ومرض، وما بينهما فرح ساعة وتنغيص أيام، وسرور يوم وغموم سنين، فما بين كدح على معاش، ومقاساة فقر، وضيق بعقوق ولد، أو نشوز زوج، وفراق أحبة، وموت قريب، حتى إذا جاوزت الثمانين من عمرك تتابعت عليك الآلام التي وصفها الشاعر:

مع الثمانين عاش الضَّعف في جسدي ... وساءني ضعف رِجلي واضطراب يدي

إذا كتبت فخطي خط مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما ... من بعد حطم القنا في جبهة الأسد

وإن مشيتُ وفي كفي العصا ثقلت ... رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد

فَقُل لمن يتمنى طولَ مدته ... هذي عواقب طول العمر والأمد

لكن غيره كان أكثر ما بكى عليه: صلاته التي صعبت عليه وتعسّر القيام فيها فكانت إشارة على قرب المغادرة ودنو الرحيل:

ولما تدع مني الثمانون قوة ... كأني إذا رُمتُ القيام كسير

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها ... عليَّ إذا رمت السجود عسير

وقد أنذرتني هذه الحال أنني ... دنت رحلة مني وحان مسير

بل حتى الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار أسامة بن منقذ بعد أن بلغ من العمر التسعين انبرى ينشد:

فإذا نهضت حسبتُ أني حامل ... جبلا وأمشي إن مشيتُ مقيَّدا

وأدبُّ في كفي العصا وعهدتُها ... في الحرب تحمل أسمرا ومُهنَّدا

وأبيت في لين المهاد مسهَّدا ... قلقا كأني ما افترشتُ الجلمدا!

والمرء يُنكّس في الحياة وبينما ... بلغ الكمال وتمَّ عاد كما بدا!

وبعد كل ما سمعت عن اضمحلال النعيم الدنيوي وتدهور العافية البشرية وذبول العمر المحدود : أفلا يُباع هذا الحقير الفاني في سبيل شري الرائع الدائم في الجنة؟! أفلا يُشترى ذلك الرائع الدائم بهذا الحقير الفاني؟! إن الإعراض عن الشروع في مثل هذه الصفقة غبن فاحش وخلل فظيع في التصور والعقل فضلا عن الإيمان.

لما اشتعلت نار الشوق إلى الجنة في قلب عثمان بن عفان ﷺ وهام بها قلبه؛ أنكر على من تعدى على هذا الجمال، ولو كان ذلك عابرا في بيت شعر، فحين مر على لبيد بن ربيعة وهو ينشد قوما:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فقال عثمان: صدقت، فقال: وكل نعيم لا محالة زائل، فقال عثمان: كذبت!! نعيم الجنة لا يزول!!



أخرج ابن عبد البَرّ عن أبي داود صاحب السُنَن أنه كان في سفينة فسمع عاطسًا على الشَطّ حمِد الله، فاكترى قاربًا بدرهَمٍ حتى جاء إلى العاطس فشمّتَهُ ثم رجع، فسُئِل عن ذلك فقال: لعلَه يكون مُجاب الدعوة، فلما رقدوا سمعوا قائلا يَقول: يا أهل السَّفينة!! إنَّ أبا داود اشترى الجنّة من الله بدرهم[1].

---

(١) فتح الباري ١٧/ ٤٤٠.

٢- ودع التعب

قال تعالى: ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾

قال ابن عباس ﷺ مفسّرا: «تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء مضطجعا لا يرد يده بُعْد ولا شوك»[1].

ويزيدك شوقا إليها مجاهد حين يحلّق بنا في قوله: «ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها، فيتناولونها متكئين، فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين»[2]، وترقّب المفاجآت غير المتوقعة التي وعدك الله بها في قوله: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥].

قال صاحب الظلال:

« وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها - إلى جانب الأزواج المطهرة - تلك الثمار المتشابهة، التي يُخيّل إليهم أنهم رزقوها من قبل - إما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل، وإما ثمار الجنة التي رُزِقوها من قبل - فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة.. وهي ترسم جوًّا من الدعابة الحلوة، والرضا السابغ، والتفكه الجميل، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد!».

هذا عن الطعام فماذا عن الشراب؟!

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٥٥.

(٢) روح المعاني ٢٧/ ١١٨.



يقول أبو أمامة ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الشراب من شراب الجنة فيجيء الإبريق، فيقع في يده، فيشرب ثم يعود إلى مكانه»[١].

والمراد: لن تتعب هناك ولو في تناول كوب أو قطف ثمرة، ولأنه لا تعب فلا نوم. قال ﷺ:

«النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة»[٢].

وفي رواية: «ولا ينام أهل الجنة».

ولأنه لا تعب على الإطلاق وصف أهل الجنة حالهم بعد دخولها فقالوا: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

وفي الحديث السابق إشارة إلى أنه لا وقت في الجنة يضيع ولو كان في نوم، لأن النوم يحرم العبد من التلذذ بالنعيم، ونعيم الجنة لا ينقطع عن ساكنيها لحظة فكيف ينامون؟! وفي الحديث إشارة أخرى لطيفة إلى مذمة النوم وأنه مما يُعصم منه أهل الجنة، فإن كثرة النوم في الدنيا علامة الاستهتار بالأوقات وكثرة الخسران.

٣- أدنى نعيم الجنة

قال رسول الله ﷺ:

«إن أدنى أهل الجنة منزلا رجل صرف الله وجهه عن النار قِبَل الجنة، ومثَّل له شجرة ذات ظل فقال: أي رب!! قدِّمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها، فقال الله: هل عسيت أن تسألني غيره؟

قال: لا وعزتك، فقدمه الله إليها ومُثِّل له شجرة ذات ظل وثمر، فقال: أي

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا موقوفا بإسناد جيد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٧٣٨.

(٢) صحيح: رواه البيهقي عن جابر كما في ص ج ص رقم: ٦٨٠٨.



رب قدِّمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها وآكل من ثمرها، فقال الله: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟

فيقول: لا وعزتك، فيُقدِّمه الله إليها، فيمثِّل الله له شجرة أخرى ذات ظل وثمر وماء، فيقول: أي رب قدِّمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها وآكل من ثمرها وأشرب من مائها، فيقول له: هل عسيت إن فعلت أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيُقدِّمه الله إليها، فيبرز له باب الجنة، فيقول: أي رب!! قدِّمني إلى باب الجنة فأكون تحت نجاف الجنة فأرى أهلها، فيقدِّمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها، فيقول: أي رب!! أدخلني الجنة، فيدخل الجنة، فإذا دخل الجنة قال: هذا لي؟! فيقول الله له: تمنَّ فيتمنى ويُذكِّره الله عز وجل: سل من كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله: هو لك وعشرة أمثاله، ثم يدخله الله الجنة، فيدخل عليه زوجتاه من الحور العين، فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك، فيقول: ما أُعطي أحد مثلَ ما أعطيت»[(1)].

والمح التدرج في النعيم الواضح في الحديث، وكأن هذا العبد لن يطيق رؤية النعيم الكامل مرة واحدة؛ وإلا مات من هول المفاجأة وشدة الفرح، وقد يكون هذا سر من أسرار التدرج من مقام إلى مقام في الجنة والله أعلم.

وفي رواية عبد الله بن مسعود ﷺ أن هذا الرجل سيظل يسأل ويسأل ويجاب ويُجاب حتى يسكت حياء من كرم الله عليه:

«فيقول الله جلَّ ذكره: ما لك لا تسأل؟! فيقول: رب قد سألتك حتى استحييتك، فيقول الله جلَّ ذِكْره: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم: ١٥٥٧.

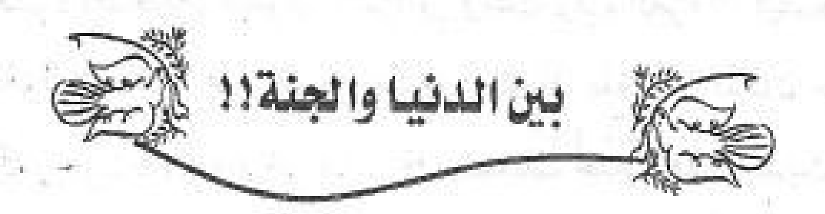


يوم أفنيتها وعشرة أضعافه، فيقول: أتهزأ بي وأنت رب العزة؟! فيضحك الرب عز وجل من قوله». فكان عبد الله بن مسعود ﷺ إذا بلغ هذا المكان من الحديث ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن.. قد سمعتك تُحدِّث هذا الحديث مرارا كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يُحدِّث هذا الحديث مرارا؛ كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه. قال:

«فيقول الرب جلَّ ذِكْره: لا ولكني على ذلك قادر، فيقول: ألحقني بالناس، فيقول: الحق بالناس. قال: فينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفع له قصر من دُرَّة فيَخِرُّ ساجدا، فيقول له: ارفع رأسك؟! مالك فيقول: رأيت ربي أو تراءى لي ربي، فيُقال: إنما هو منزل من منازلك. قال: ثم يأتي رجلا فيتهيأ للسجود له، فيقال له: مَهْ، فيقول: رأيتُ أنك ملك من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازن من خُزَّانك وعبد من عبيدك تحت يدي ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه. قال: فينطلق أمامه حتى يَفتح له باب القصر. قال: وهو من دُرَّة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلافها ومفاتيحها منها، يستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء، فيها سبعون بابا كل باب يُفضي إلى جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تُفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سُرُر وأزواج ووصائف، أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة يرى مُخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك، فيقول لها: والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا، وتقول له: وأنت لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا، فيقال له: أشرف!! فيُشرِف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك»[1].

---

(١) صحيح: رواه عن ابن مسعود كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٥٩١.



بين الدنيا والجنة!!

ولا مقارنة!! كلما نال المرء من دنياه شيئا طمع في ما هو أكبر ورغب في الأكمل، ولن يشبع أحد من الدنيا ولو حازها بأسرها، وهذا ما لم يكتشفه أبو العتاهية إلا بعد ما شاب فقال:

قد شاب رأسي ورأسُ الحِرْصِ لم يشِبِ ... إن الحريصَ على الدنيا لفي تعبِ

مالي أراني إذا حاولتُ منزلة ... فنلتُها طَمَحَتْ نفسي إلى رُتَبِ

وهكذا تظل صريع الأماني غزير الرغبات حتى تموت:

ويسلبه الموتُ أثوابه ... ويمنعه الموت ما يشتهي

تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجةٌ ما بقي

هذه هي الدنيا، أما الجنة فلا يرغب أحد فيها غير ما نال، وهي كما مرَّ بك: أدنى أهلها يرى أنه ما أُعطي أحد مثل ما أُعطي.

٤- سعة أبوابها

قال ﷺ: «ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ»[1].

وهذا دلالة على سعة أبواب الجنة، وأنها أبواب مفتوحة على الدوام لا تغلق أبدا ﴿عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص:٥٠]، «وفي تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن معاوية بن حيدة كما في صحيح ص ج ص رقم: ٥٥٩٠.

تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتُّحف والمفاجآت من ربهم، ودخول ما يسُرُّهم عليهم كل وقت، وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا »[١].

وهذا الزحام على أبواب الجنة دلالة أيضا على كثرة من يدخلون الجنة، لكن الأماكن محدودة، والأعداد غفيرة من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكم سيكون نصيبنا –نحن أمة محمد– من مقاعد الجنة؟! هذا رسول الله ﷺ يقسم أمام الصحابة مبشّرا: «**والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**» فكبَّر الصحابة، فقال: «**أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، فكبروا، فقال: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبَّروا.

وتكبير الصحابة سببه سرورهم بهذه البشارة العظيمة، وقوله ﷺ: ربع أهل الجنة، ثم ثلث أهل الجنة، ثم الشطر، ولم يقل أولا شطر أهل الجنة، فلأن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فان إعطاء الانسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته.

وفيه فائدة أخرى هي أن تكريره البشارة على أسماعهم مرة بعد أخرى يؤدي إلى زيادة سعادتهم مرة من بعد مرة، وفيه أيضا حملهم على تجديد شكر الله تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمه وكرمه.

لكن هل سنكون نصف أهل الجنة كما كان يرجو رسول الله؟!

والجواب: لا الربع ولا الثلث ولا النصف.

---

(١) حادي الأرواح ص ٤٠.

بل أكثر!!

والدليل على ذلك قول النبي ﷺ في ما رواه عنه بريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»[1].

فهذا دليل على أن أمتنا ستشكّل ثلثي أهل الجنة، فيكون النبي ﷺ أخبر أولا بحديث الشطر وهو رجاؤه من ربه، ثم تفضَّل الرب سبحانه بالزيادة على هذا، وهو والله تدليلٌ لكل فرد من أفراد هذه الأمة، وهدية ثمينة مقدمة لها من الرب لم تحظ بها غيرها من الأمم.



(١) صحيح: رواه الترمذي والدارمي والبيهقي كما في مشكاة المصابيح ٣/ ٢٢٦.



فتح الأبواب .. لماذا؟!

ومن صفات أبواب الجنة أنها مفتوحة على الدوام .. لماذا؟!

لو طُلِب إليك أن تمكث في أفخم قصر في العالم وأهنى نعيم يتصوره عقل بشري لمدة شهر كامل ، ثم أردت المغادرة لقضاء حاجة من حوائجك فوجدت الباب مغلقا ، فماذا يكون حالك؟! لابد أنك تستشعر الضيق، وأنك محبوس ولو كان هذا الحبس في الجنة، لكنه في النهاية حبس!! فكيف إذا استمر هذا الحبس أبدا؟! وفي أمثال العوام : «يغور السجن ولو في جنينة».

ولأن الجنة مخلوقة بحيث توصل إلى المرء كل ما ينعِّمه وأقصى ما يتخيله بل وفوق ذلك ، ولأنها مصنوعة على عين الله ورعايته ، فقد راعت أدق التفاصيل مثل هذه وغيرها ، لذا جاء في وصفها: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[ص:٥٠]

٥- كل ما تشتهي



وخلاصة القول وموجز الكلم أن كل ما ستشتهيه في الجنة من لذائذ حسية ومتع مادية سوف تلقاه، عفوا بل تلقى أعلى منه وأروع، ودليلي على ذلك ثلاث أحاديث اخترتها على طرافتها لتبيِّن ما ينتظرك هناك إن أنت اهتديت وعملت ما عليك واتقيت.

- ماذا مثلا لو أردت التحرك والانتقال في الجنة من مكان إلى آخر، فكيف يكون ذلك؟!

لا أحد يعلم ذلك تحديدا، فلعل ذلك يتم في لحظة واحدة أو أقل كما فعل الذي

عنده علم من الكتاب حين نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد طرف نبينا إليه، وهذا في الدنيا التي لا تساوي ذرة بجوار الآخرة، فكيف تكون سرعة الانتقال في الجنة إذن؟!

أو لعلك تحب أن تجرِّب وسيلة أخرى إن كنت من عشاق أحدث أنواع السيارات وتتابع أخبار الطائرات التي هي أسرع من الصوت أو البرق، لذا يُنصَح أمثالك بركوب دابة من دواب الجنة التي لا تشترك مع دواب الدنيا إلا في الاسم لكنها خلق آخر، وهو ما حدث مثلا مع عبد الرحمن بن ساعدة ﷺ حين قال: كنت أحب الخيل، فقلت: يا رسول الله!! هل في الجنة خيل؟! فقال: **«إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كان لك فيها فرس من ياقوت له جناحان تطير بك حيث شئت»**[(١)].

وفي حديث آخر أن رجلا آخر سأل رسول الله ﷺ بعدها فقال: يا رسول الله!! هل في الجنة من إبل؟! فلم يقل له ما قال لصاحبه بل أوصد الباب في وجه كل من أراد أن يسأل بأن فتح له باب الأمنيات قائلا: **«إن يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذَّت عينك»**[(٢)].

- **والحديث الثاني الذي اخترته لكم هو قوله ﷺ:**

«إن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألستَ فيما شئت؟ قال: بلى ولكن أحب أن أزرع! فبذر فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصادُه فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم! فإنه لا يُشبعك شيء»[(٣)].

---

(١) حسن لغيره: رواه الطبراني ورواته ثقات كما في صحيح الترغيب رقم: ٣٧٥٥ والصحيحة رقم: ٣٠٠١.

(٢) حسن لغيره: صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٧٥٦.

(٣) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة كما صحيح الجامع رقم: ٢٠٨٠.

وهذا مما سيحدث في الآخرة وأخبر به النبي ﷺ الذي طوى الله له الزمان والمكان فرأى ما وراء العالم المنظور، وأخبر الحديث عن الأمر المستقبل بلفظ الماضي لأنه واقع لا محالة، وقصَّ عن رجل تمنى أمنية في الجنة قد توصف بأنها سخيفة، فقد تمنى الزرع وهو وسط جنات لا حصر لها، ومع ذلك حقق الله له ما أراد، وأعطاه البذر فبذر، وفي أقل من طرفة عين نما البذر وعلا واستوى وصار أمثال الجبال الشامخات، فنال العبد ما أراد وتمنى.

- **وثالث حديث:**

« المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسِنه في ساعة واحدة كما يشتهي »[١].

وهي مزيَّة اختيارية لمن أرادها، فلعله هذا المؤمن حُرِم الولد في الدنيا وتقطَّع قلبه هو وامرأته سعيا وراءه دون جدوى، وفي الجنة تحقق له ما عجز عنه وتمناه، ولذا لما سُئل ابن عباس: أفي الجنة ولد؟! قال: « إن شاؤوا »[٢].

لكن.. هل يقف الأمر على حدود ما شاءه العبد وتمناه فحسب؟!

بل يتفضل الله عليه بفوق ما تخيله وتمناه، وليس ذلك لأعلى أهل الجنة منزلة، بل لأدناهم منزلة، نعم والله!! فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له: تمنَّ فيتمنَّى ويتمنَّى، فيقول له: هل تمنَّيتَ؟ فيقول: نعم، فيقول له: فإن لك ما تمنَّيتَ ومثله معه »**[٣].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم: ٦٦٤٩.
(٢) مسند أبي شيبة ٧/ ٣٦.
(٣) صحيح: رواه مسلم ١/ ١٦٣ حديث رقم: ٣٠١.

نسائم الأشواق

قال ضرار بن الأزور لخالد بن الوليد بعد معركة من معاركه الشام: أيها الأمير!! دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت، فقال: «يا ضرار!! الراحة في الجنة غدا»[(1)].

ثانيا: ملذات بصرية:

ثلاثة تُذهب عنا الحَـزَنْ   الماء والخضرة والشكل الحسَنْ

وإذا كان هذا قول شاعر في الدنيا، فكيف الظن بالآخرة؟! مع أن الجنة ليس فيها على الإطلاق حزن، لكن المقصود أن هذه المشاهد في الآخرة تجلب أقصى درجات البهجة والسرور وأنت تتقلب ما بين مشاهدة أنهار وتنزه في جنات وتطلع إلى حور حسان، وأعلاها: النظر إلى وجه الله الكريم، ولنأخذ هذين المتاعين من المتع البصرية كمثال:

١- الحور العين

قال تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾

وسُمِّيت بالحور على بعض الأقوال لأن البصر يحار فيها، واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون، الذي لم يتعرض للمس والنظر، فلم تمسه يد، ولم تخدشه عين، فأنت أول من تمس زوجتك الحورية التي خُلقت خصيصا من أجلك، وتكون أول مخلوق ينظر إليها، وكأنها ظلت محفوظة لك تنتظرك على شوق لتستمتع بها وحدك وتستمتع بك.

---

(١) فتوح الشام ١/ ٢٤.

وقد وُصِف خدم أهل الجنة كذلك بنفس الوصف: اللؤلؤ المكنون، إشارة إلى أنهم رغم تفانيهم في خدمة أسيادهم لم تُذهب الخدمة محاسنهم في اللون والصفاء والبهجة، ووصفهم الله في موضع آخر: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾، وفي الآية ثلاث إشارات: إشارة إلى كثرة خدمك في الجنة[1]، وإشارة ثانية إلى تفرقهم في حوائجك وخدمتك وذهابهم ومجيئهم تلبية لرغباتك، وإشارة ثالثة إلى سعة الجنة.

وكلمة: ﴿كَأَمْثَالِ﴾ إشارة لما تشتهيه العين في الدنيا من مشهد اللؤلؤ وتلتذ به وهو مجرد تشبيه لتقريب صورة الحسن والجمال إلى الأذهان، لكن الحقيقة غير ذلك، فلا مقارنة بين اللؤلؤ والحور، فجمال الحور العين يعجز اللسان عن وصفه، ولا يستطيع الكلام بيانه، ولا العقل تصوره، ويكفيك من جمالها هذه الإشارة النبوية واللمحة المختصرة الموجزة في قوله ﷺ:

«ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[2].

لكن جمال الحور مع ذلك ليس جمالا ثابتا بل جمال أخاذ يزداد جمعة بعد جمعة لتلتذ العين بما لم تلتذ به من قبل، وتتجدد اللذة وهي ترى كل وقت جديدا من ألوان الحسن والجمال، والحكمة من هذا أن لا تملَّ أبدا لذة الوصال كما هو الملل في الدنيا، ولا تسأم الجمال الذي لا تتكرر صورته جمعتين متتاليتين، واسمع ما

---

(١) روى البيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وتلا هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾». كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٧٠٥.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجة عن أنس كما في صحيح الجامع: ٥١١٦.

نقله أنس بن مالك ﷺ من أن رسول الله ﷺ قال:

«إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فيها كثبان المسك، فتهب ريح الشَّمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسْنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا»[1].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة أي أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار...، وخصّ ريح الجنة بالشمال لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة، أي المُحرّكة، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها»[2].

ورجوعا إلى الحور:

وأما باقي تفاصيل وصفات الحور فلا داعي لذكرها، لأنها شيء يعلو على الخيال، ولذا لم يرد فيها وصف عن الكبير المتعال، ولا أرى ضرورة التعمق في وصفهن، لأن المقصد أن الله تعالى يعطي عبده في الجنة كل ما بلغ من الجمال منتهاه، وهو ما يجيب عن سؤال كثير من نساء اليوم يطلبن ما للرجال في الجنة، وما دروا أن هذه بعض متع الجنة، وأن الله قد يعطيهن -إن اتقين- مثلها أو خيرا منها، وأن الله قادر على نزع هذه الشهوة من قلوب الرجال في الجنة لكنه ضربها مثلا لهم يصوِّر به ما يجدونه من غاية المتعة واللذة هناك.

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٢٤.

(٢) شرح النووي ١٧/ ١٧٠-١٧١.

بين عشق وعشق

مرَّ المجنون بزوج ليلى وهو جالسٌ يصطلي النار في يومٍ شاتٍ، فوقف عليه ثم أنشد يقول:

بربك هل ضممتَ إليك ليلى ... قُبيل الصبح أو قبَّلت فاها

وهل رفَّتْ عليك قرون ليلى ... رفيف الأقحوانة في نداها

فقال: اللهم إذ حلَّفتني فنعم. قال: فقبض المجنون بكلتي يديه قبضتين من الجمر، فما فارقهما حتى سقط مغشيا عليه، وسقط الجمر مع لحم راحتيه، وعضَّ على شفته فقطعها، فقام زوج ليلى مغموما بفعله متعجباً منه فمضى.

هذا المجنون غار على ليلاه وهي امرأة تتقلَّب وتغضب، وتشيب وتمرض، ثم هي في النهاية تفنى وتذهب، فكيف بالمُبَرَّأة من هذا كله؟! والتي تنتظرك من الآن وعلى أحرّ من الجمر، وإن كنت ستموت فاعلم - إن لم تكن تعلم- أن أزواجك من الحور «لا يمُتْن عند قيام الساعة ولا عند النفخة ولا أبدا لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت»[1].

فلو شاهدت عيناك من حسنها الذي ... رأوه لما ولَّيتَ عنها لغيرها

ولو سمعت أذناك حسن غنائها ... هجرت فراش النوم عنك وجئتها

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة ... عذرتَ الذي أضحى قتيلا بحبها

---

(١) حادي الأرواح ص ٢٩٠.

أخي.. كيف لا تغار وتنافس الأبرار، وغيرك أمهر الحور نفسه وقلبه منذ زمن، وعانقها قبل أن يقابلها بأن دفع الثمن، وضمن وصالها في الجنة بكثرة الطاعات واطمأن، أما يُحرِقك أن غيرك قد سبق؟! وظفِر بالكنز قبلك؟! وإن كنت تغار، فما علامات غيرتك؟! وأين أثرها على عزيمتك؟! وقضاؤها على غفلتك؟! أخي.. جِدَّ في لحاق القوم فقد سبقوك، وما زالت العروس معروضة في السوق، والمهر في متناول يديك وأمام عينيك، وإلا كان حالك مع ليلاك:

أتبكي على ليلى وأنت أضعتَها فكنتَ كآتٍ موته وهو طائعُ

٢- النظر إلى وجه الله

خلق الله الخلق في الدنيا على هيئة لا تطيق رؤيته سبحانه، وإذا كانت الجبال الشامخات عجزت عن ذلك فكيف بالإنسان الضعيف؟! قال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

لذا جاء في الصحيح أن الله جل جلاله «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن أبي موسى رقم: ١٨٦٠. قال النووي: «معنى سُبُحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه، وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة، والله تعالى مُنزّه عن الجسم والحد، والمراد هنا المانع من رؤيته، وسُمّي ذلك المانع نورا أو نارا لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة لشعاعهما، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات، ولفظة (من) لبيان الجنس لا للتبعيض، والتقدير لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمّى نورا أو نارا وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته والله أعلم». شرح النووي على مسلم ٣/ ١٤ بتصرف، وفي حقيقة الحجاب ومعناه قال المناوي: «قال في الحكم: الحق ليس بمحجوب إنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ

لكن الله يعطي أهل الجنة قوة خارقة ويغيِّر خلقهم بالكلية ليتحمّلوا رؤيته سبحانه، بل يلتذون بالنظر إلى وجه الله عز وجل، فإنه أعلى نعيم أهل الجنة وأعظم لذة لهم، وهي الزيادة الواردة في قوله تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وهذه هي آية المزيد المبشِّرة بيوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، وهو اليوم الأعظم والأجل على الإطلاق، والذي تنتظره قلوب المؤمنين بكل لهفة وشوق، ففيه ترى الرب الكريم كما ترى شمس الظهيرة، والقمر ليلة البدر، ولأن كل شيء في الجنة يختلف عن الدنيا، فزيادة الجنة تختلف اختلافا جذريا عن زيادة الآخرة؛ زيادة الدنيا دوما تكون أقل من الأصل، فإذا أعطاك البائع مثلا زيادة على ما اشتريت شكرت له حسن صنيعه وكرمه لأنه منحك ما لم تدفع فيه شيئا وإن كان شيئا لا يُذكر، لكن زيادة الآخرة أكبر من الأصل ولا مقارنة.

قال رسول الله ﷺ:

« إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة!! إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل الله موازيننا ويُبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُنجِّنا من النار؟ فيُكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم »[١].

قال الحسن: «إذا تجلى لأهل الجنة نسوا كل نعيم الجنة»[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢١.

(٢) شرح حديث لبيك ١/ ٨٨.



وإذا أردنا أن نعلم قيمة النظر إلى وجه الله ونقارنه بسائر نعيم الجنة، فاسمعوا قول أبي حامد الغزالي:

«ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك»[1].

تفاوت النظر!!

لكن يبادرنا سؤال سُئل عنه عبد الله بن عباس رضي الله عنه من قبل حين قيل له: كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل؟! قال: نعم[2].

وإن كان الأمر كذلك، فأين التفاوت بين العباد إذن؟! وما الفارق بين السابق بالخيرات والمقتصد؟! وبين مَنْ يدخل الجنة بغير حساب ومن يدخلها بعد ألف عام من العذاب؟!

والجواب: كلهم ينظرون إليه ولن يُحرم أحد، لكن ما بين لذة نظر أحدهم وأخيه كما بين السماء والأرض! لأن « لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة، فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم »[3].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٢٧.

(٢) حادي الأرواح ١/ ٢٣٢.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٣٣ بتصرف.

وتفاوت آخر بين أهل الجنة هو في معدَّل النظر كما يقول ابن سعدي في قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾:

«أي تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحده، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء».

وقد جمع الله لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته، وذكر سبحانه هذين النوعين في سورة المطففين فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٣].

قال ابن القيم:

«ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يُعذَّبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون، ثم إنهم لصالوا الجحيم»[1].

والثمن المدفوع: غض البصر عن المحرمات، ومنع النفس من تناول الشهوات، والخلوة بخدمة الله في الليالي المظلمات.

ثالثا: ملذات نفسية روحية

وهو جانب خفي لا يعلم عنه كثير من خاطبي الجنة اليوم شيئا، ويتعلق بالمتع النفسية واللذائذ القلبية، والتي لولا أن الله كتب على أهل الجنة أن لا يموتوا

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٢.

لماتوا من عظيم ما تحويه قلوبهم من هذه اللذائذ، وهذه اللذة -كسائر نعيم الجنة- لا يستطيع عقلنا القاصر فهمها أو إدراكها بل ليس لنا إلا ندعها لوقتها حين يتعرَّف كل منا عليها بنفسه، فهي اللذة النهائية والنعيم الحقيقي ومدار البحث وزبدة المخاض، وما باقي نعيم الجنة إلا حواشي وزيادات، وإليك بعضا منها:

١- وداع الحزن

قال تعالى على لسان أهل الجنة:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾

قال الزجاج: «أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو معاد»[1].

وما كان من الحزن لمعاش مثل حمل هم الرزق، ومقاساة الفقر، ومعاناة المصائب والبلايا والأسقام، ومن الحزن للمعاد: خوف دخول النار، والجزع من الموت، وخشية عدم القبول، أو المؤاخذة بالسيئات، والوجل من سوء الخاتمة، ولم يخصص الله في الآية نوعا دون نوع؛ إذ أخبر عن أهل الجنة أنهم جمعوا جميع أنواع الحزن بقولهم هذا.

وفيه إشارة إلى أن أهل الجنة هم أهل حزن وبلاءات في الدنيا، حتى قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا

(١) فتح القدير ٤/ ٤٩٨.

مُشۡفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] »(١).

لكن ذلك كله مضمحل يوم القيامة بل يورث غاية النعيم ومنتهى السرور في الآخرة كما في بشرى رسول الله ﷺ:

«يؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم!! هل رأيت بؤسا قط؟! هل مرَّ بك من شدة قط؟! فيقول: لا والله يا رب، ما مَرَّ بي بؤس قط، ولا رأيتُ شِدَّة قط»(٢).

٢- وداع الغل والحسد

قال تعالى حاكيا عن أهل الجنة:

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾[الحجر: ٤٧].

ونزع الغل في الجنة هو أن يطهِّر الله نفوس أهل الجنة من الانفعال بخواطر الشر التي يدخل من ضمنها الغل، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ للتنبيه على تحقق وقوعه، فما أنزلهم الله دار كرامته إلا بعد أن نزع الغل والحسد من قلوبهم، فتمتعوا بالجنة، وقابلوا إخوانهم هناك على السرر متلذذين بالنظر إليهم، وفي مقابلة وجوههم لوجوه بعض كانت سلامة صدورهم ونزع الغل من قلوبهم، ولو لم يفعل ذلك لفقدوا لذة الجنة، إذ يرى المظلوم ظالمه سارحا في الجنة مستمتعا بها، فيبقى في نفسه شيء ليتدابروا ويتقاطعوا، وهل في الجنة قطيعة؟!

وقد فضَّل الله عز وجل بين أهل الجنة في المنازل، ورفع بعضهم فوق بعض

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢١٥.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن أنس كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٦٩٠.



درجات، لكنه لما نزع الحسد من قلوبهم ظن أدناهم منزلة فيها، وأقربهم عهدا بدخول الجنة، أنه أفضلهم منزلة، وأكرمهم درجة، وأوسعهم دارا، فقرَّت عينه وطاب عيشه وذهب غمه، وهل يُتصوَّر أصلا وجود هَمٍّ هناك!! قال ﷺ في وصف أهل الجنة:

«قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض ولا تحاسد»[1].

لكن متى وأين تتم عملية التطهير هذه؟!

يتم عند القنطرة التي بين الجنة والنار، وهي جسر يسميه بعض العلماء بالصراط الثاني، وهي المرحلة الأخيرة قبل دخول الجنة. قال رسول الله ﷺ: «يخلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة»[2].

٣- وداع الفزع

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

فإن سألت: كيف نفى الفزع هنا وقد قال قبلها بآيتين: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

أجيب على ذلك بجوابين:

الأول: الفزع هو الرعب الحاصل ابتداء من نفخة الصور من معاينة أهوال

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٦٦.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥٥٨٩.

القيامة، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الفطرة البشرية، وإن كان المحسن يأمن وصول أي ضرر منه إليه.

الثاني: أن هذا الرعب لا يحصل للمؤمنين الفائزين لقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، ومن هؤلاء: المؤمنون الذين لن يحدث لهم أي فزع أو اضطراب، ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وهي آية جامعة مانعة لأن الرجل إذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال، وإذا لم يحزن بسبب فوات الماضي كان في أحسن حال، فحينئذ يكون قد سلم عن كل الآفات، ولا يكون ذلك في مكان إلا في الجنة.

٤- وداع السخط

قال ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك! والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب!! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[1].

وهو قول الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة:

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن عباس في تفسيرها: «أكبر مما يوصف»[2].

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم: ١٩١١.

(٢) زاد المسير ٣/٤٦٩.

وأتت به الآية مُنكَّرا غير مُعرَّف بمعنى أن أي شيء من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة وما فيها، كما قيل:

قليل منـــك يكفينـــي ولكن قليلك لا يُقـــال له قليـــل

وفي التنكير إشعار بالتعظيم، ولهذا جيء باسم إشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ لكون المشار إليه بعيد المكانة ومرتفعًا ارتفاعًا مجازيا كناية عن الشرف والعظم والفخامة.

وقد سمَّى الله كبير خزنة الجنة: رضوان ، وهو اسم مشتق من الرضا، ليكون أول ما يستقبل أهل الجنة: الرضا الفيَّاض بكل صوره اسما ومعنى!!

لكن ما هو طعم هذا الرضوان هذا وما مذاقه في القلب وكيف ستشعر النفس به؟! والجواب: لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن يتخيَّله لكن ما نعلمه أكيدا من هذه الآية أن المتع الروحية في الجنة -وعلى قمتها رضوان الله- أعلى وأشرف من المتع الحسية ولا مقارنة.

نسائم الأشواق

قال أحمد بن حرب: «أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار»[1].

رابعًا: وما خفي كان أعظم

وأما النوع الرابع من النعيم فهو مجهول!! وهو ما أُخفي عن عموم الفائزين، واختص الله به مجموعة من عباده وآثرهم به، وإذا كان الله تعالى قد قال:

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤].

---

(١) الإحياء ٤/ ٥٦٨

والإستبرق هو ما غلظ من الديباج وخشن، فإذا كانت البطانة التي غابت عن الأعين هكذا، فما ظنك بالظاهر؟! قيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: «هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[1].

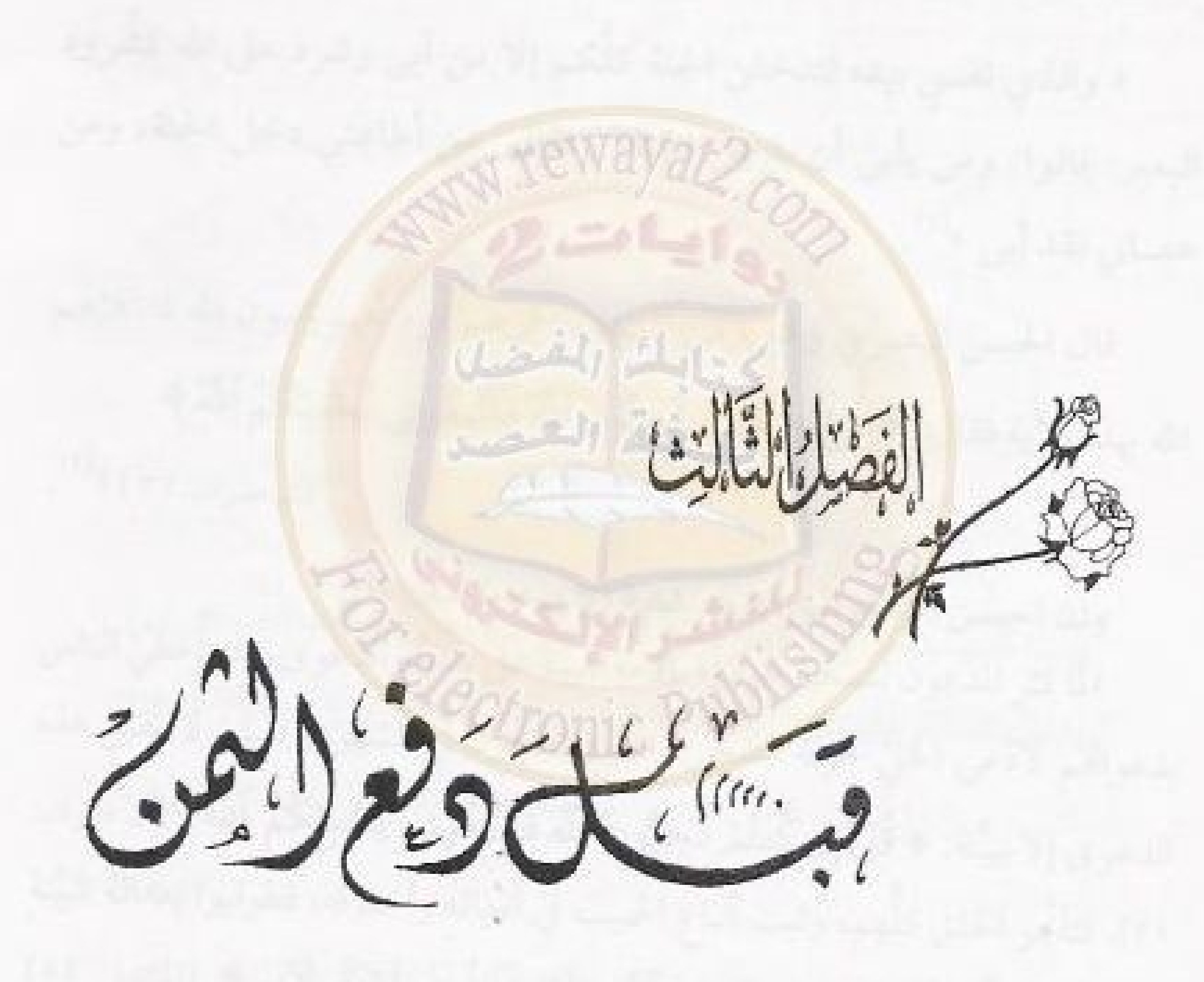
وكلما علا الثواب في الجنة كلما كان خفيا لا يطلع عليه أحد إلا صاحبه. قال كعب مجيبا عمر بن الخطاب ﷺ حين سأله عن أعلى أهل الجنة منزلة:

«يا أمير المؤمنين!! ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، إن الله جلَّ ذِكْره خلق دارا جعل فيها ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه لا جبريل ولا غيره من الملائكة»، ثم قرأ كعب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. قال: «وخلق دون ذلك جنتين وزيَّنهما بما شاء، وأراهما من شاء من خلقه، ثم قال: من كان كتابه في عليين نزل في تلك الدار التي لم يرها أحد حتى إن الرجل من أهل عليين ليخرج، فيسير في مُلكه فلا تبقى خيمة من خيم الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه، فيستبشرون بريحه فيقولون: واها لهذا الريح.. هذا ريح رجل من أهل عليين قد خرج يسير في مُلكه»[2].

---

(١) القرطبي ١٧/ ١٥٥.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٧٠٤.


الفصل الثالث
قبل دفع الثمن

لا أحد يخطط للفشل في الفوز بالجنة، ولكن الكثير يفشلون في التخطيط لهذا الفوز، ولذا كانت هذه الوصايا ناجعة في التخطيط لمثل هذا الفوز العظيم.

١- بالأفعال لا الأقوال

قال ﷺ:

« والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلُّكم إلا من أبى وشرد على الله كشُرود البعير. قالوا: ومن يأبى أن يدخل الجنة؟! فقال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى »[١].

قال الحسن البصري وغيره من السلف: «زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]»[٢].

ولذ أحسن الإمام ابن القيم غاية الإحسان حين قال:

«لمَّا كثر المدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البيِّنة على صحَّة الدعوى، فلو أُعطي الناس بدعواهم لادَّعى الخَليُّ حرقة الشَّجي، فتنوع المدَّعون في الشهود، فقيل: لا تُقبل هذه الدعوى إلا ببيِّنة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخَّر الخلق كلُّهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيِّنة بتزكية: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]

---

(١) صحيح : كما في السلسلة الصحيحة رقم : ٢٠٤٤.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٧.



فتأخَّر أكثر المحبين وقام المجاهدون »[١].

وليس المحبة مجرَّد اتباع بل أكثر، لأن للمحبة الصادقة علامات، « فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده، وهو دائما بين سراء يشكر الله عليها، وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائما في نومه ويقظته »[٢].

وكلٌ يدَّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بِذاكا

بل تشهد الجنة بكذب هؤلاء لعدم بذلهم، وزيف ادعائهم لحبها بسيرهم عكس طريقها، وكأني بكُثيِّر عزة ينشدكم ويقول:

إن المحبَّ إذا أحب حبيبه ... صدق الصفاء وأنجز الموعدا

وغيره من العشاق قدَّم عربون محبته وشارة لوعته فأنشد قائلا:

لي في محبته شهودٌ أربعٌ ... وشهودُ كلِّ قضيةٍ اثنان

ذوبانُ جسمي وارتعادُ مفاصلي ... وخفوقُ قلبي واعتقالُ لساني

فكيف بعاشق الجنة؟!

أخي..

« لو كان في قلبك محبة لبان أثرها على جسدك!! »[٣].

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٩.

(٣) المدهش ص ٣٥٠.

حبيبي..

شر البرق ما لا مطر معه، فلا تكن كلاما بلا فعل، وصوتا بلا أثر، وشجرا بلا ثمر، فقد يرى العبد نور الجنة ولا يتبعه: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقد يشهد كل الخير في قربها ثم لا يُقبل عليها، كما « قد يُبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] »[1]، فشوّقوا النفس بأخبار الجنة ثم صدِّقوا ذلك بالعمل، وإلا كان محبتكم أوهاما باطلة، فماذا أنتم صانعون يا محبون؟!



قال نعيم بن مالك بن ثعلبة ﷺ وهو أحد بني سالم: يا نبي الله!! لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها، فقال له رسول الله ﷺ: بم؟ قال: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفرُّ يوم الزحف، فقال له رسول الله ﷺ: صدقت، واستشهد يومئذ في أحد[2].

٢- اللحظة الحرجة:

قد تضيع منك الجنة من جراء لحظة واحدة، وذلك حين يُنصب الميزان أمام عينيك يوم القيامة، وترجح كفة سيئاتك عن كفة حسناتك بسيئة واحدة أو بضع سيئات، ولما فهم عيسى البسطامي هذا أعدَّ هذه المعادلة التجارية لكل تجار الآخرة وعشاق الآجلة:

(١) مدارج السالكين ٣/ ٥١٤.

(٢) البداية والنهاية ٤/ ١٢.



«إن الليل والنهار رأس مال المؤمن، ربحها الجنة وخسرانها النار»[١].

لذا أرسلها لك روح بن مدرك من على المنبر مباشرة إلى قلبك يستفزك إلى سرعة الاستجابة وفورية الانطلاق قائلا:

> **«الآن.. قبل أن تسقم، فتضنى وتهرم، فتفنى، ثم تموت، فتُنسى، ثم تقبر، فتبلى، ثم تُبعث، فتُحيى، ثم تحضر، فتُدعى، ثم توقف، فتُجزى، بما قدمت وأمضيت وأذهبت فأفنيت من موبقات سيئاتك، ومتلفات شهواتك، فالآن الآن وأنتم سالمون».**

وكيف لا تكفيك -أخي- أنهار ثلاثة لتطهيرك!! قال ابن القيم:

«فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطَّهرون بها في الدنيا، فإن لم تفِ بطهرهم طُهِّروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المُكفِّرة، فإذا أراد الله بعبده خيرا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبا طاهرا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع»[٢].

وعندها فوات الجنة وهو ما يجعلك تدرك قيمة الوقت في صفقة كهذه، وأن اللحظة الواحدة قد تكون سببا في النجاة أو الهلاك، ومن هنا كان من يشكو الفراغ اليوم في غفلة عظيمة، لأنه لا يعلم قدر السلعة الضائعة، أو ربما لم يسمع بها أصلا لذا غاب عن هذه الصفقة، وما علم أن مهر ليلى عرق وألم وبذل وعمل.

---

(١) الزهد للبيهقي ٢/ ٣٠٢.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣١٢.



٣- عجائب

قال رسول الله ﷺ:

« ما رأيتُ مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها »(١).

لو لم يخلق الله الجنة والنار، وطلب من الناس عبادته لأنه هو الذي خلق ورزق لكان ذلك من تمام الحق الإلهي، لكن الله مع ذلك خلق الجنة كرما منه مكافأة لمن أطاعه، ولم يكتفِ بذلك بل بعث الآيات التي تُسهب في وصفها في كتابه، وأبان النبي ﷺ في كلامه من أوصاف الجنة ما قطع حجة كل بليد من أبوابها وشجرها وترابها ونسائها وخدمها وحليها وملابسها وطعامها وشرابها وقصورها، وما كان أغناه عن كل هذا لو أن الناس علموا قدر الرب وفضله، لكنه تشويق النفوس الضعيفة وترغيبها، أفتذهب هذه الآيات والأحاديث سُدى ولا تجد لها أثرا أو تلهب عاشقا؟! أو يكون الأمر كما قال **الفضيل بن عياض**: «ما حُلِّيتْ الجنة كما حُلِّيت لهذه الجنة، ثم لا ترى لها عاشقا»(٢).

إنه شيء عجيب حقا!! أن يزهد الإنسان في وعد الخالق الذي أرسل رسله تترى تشوِّق وترغِّب للجنة، ويركض على وعد مخلوق قد يكذب وينكص عن الوفاء بوعده، وإن وفَّ فماذا يبلغ وعده بجوار وعد الله بالجنة.

أخـي.. اعمل للجنة إما شوقا إلى نعيمها إن كنت من عشاق الترغيب، أو حتى خوفا من ضياعها إن كنت من أنصار الترهيب، ورحم

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٢٢.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١١٤.

الله يحيى بن معاذ رائد هذه المدرسة حين قالها: « مسكين ابن آدم!! لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة »[1].



قال حاتم الزاهد: «الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والجنة عاشقة»[2].

٤- عملة الصبر النادرة

الصبر مفتاح لازم لفتح أبواب الجنة وكأنه مكتوب على باب الجنة: من صبر عبر.

قال ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بها في الآخرة، ثم قال: لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة »[3].

فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذتين وليطب نفسا عن إحداهما للأخرى، شرط بشرط كما أخبر بذلك النبي ﷺ:

« إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها، فلا تلبسوها في الدنيا »[4].

وعلى هذا قاس ابن القيِّم الأمر على الغناء المحرَّم فقال في نونيته:

نزِّه سماعك إن أردت سماع ذيَّـ ... ـاك الغنا عن هـــذه الألحان

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٦٢.

(٢) الزهد للبيهقي ٢/ ٤٤.

(٣) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٥٠.

(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٨.

لا تؤثر الأدنى على الأعـــلى فتُحـ رم ذا وذا يا ذِلة الحرمـــــان

مشيرا إلى غناء الحور العين في الجنة:

« إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، إن مما يغنين: نحن الخيِّرات الحسان؛ أزواج قوم كرام؛ ينظرن بقُرَّة أعيان؛ وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمُتْنه؛ نحن الآمنات فلا يخفنه؛ نحن المقيمات فلا يظعنَّه »[1].

ومتنبئًا بحال كثير من أبناء أمتنا أصابهم الوباء وعمهم البلاء الذي أشار إليه **أنس بن مالك** ﷺ: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يكون سماع الشعر أحب إلى الناس من سماع القرآن»[2].

والشعر يوازي الغناء اليوم في تسميته الجديدة، أفلا نصبر عن سماع الموسيقى والغناء حتى نسمع ذلك الصوت الذي تهتز له أغصان الجنة؟! أفلا نصبرعن رؤية فتيات الشاشات والفضائيات حتى لا نُحرم هناك من رؤية الحوريات؟! عجبا من غياب مقارنة تدفع اليوم ولابد إلى تصحيح المسار؟!

وقس على هذا الباقي:

✍ من صبرت على حجابها واعتصمت بحيائها وسط إغراءات الموضة وطوفان التنافس المحموم على لفت أعناق الشباب وأسر عيونهم.

✍ من صبر عن أكل الحرام وقد أعيته الحاجة وأنهكته نفقات العيال

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٦١.

(٢) تنبيه المغترين ص ٤١.

واستهلكته الفاقة وأزاغ بصره ثراء أقرانه وتجارة جيرانه.

✍ من صبر عن استفزازات الشيطان ومحاولات إغضابه من قبل من اعتدى عليه، فعفا وصفح وحلم على الجاهلين في زمن تُرَدُّ فيه الإساءة بمثلها بل وبضعفها.

✍ من صبر عن إطلاق بصره والنظر إلى الحرام حيا في الطرقات أو صورة في المجلات أو الشاشات والناس تقع في ما هو أدهى من النظر وأمرّ.

كل هؤلاء يحق لهم أن يستبشروا بالجنة، لست أزعم أن صبرهم هذا سهل لكن من صبر على مرارة الدواء عوفي، ووالله ما هي بمرارة بل كل حلاوة، لكن ذنوبنا أرتنا الخير شرا والشر خيرا، وطول البعد طمس نور الفطرة في قلوب الكثيرين، فالصبر هو الثمن المعتمد لدخول الجنة، **وكل شيء في سبيل ليلى يهون يا قيس!!**

أخي الغافل.. إذا كانت الجنة قد حُفَّت بالمكاره وأنت تكرهها، والنار حُفَّت بالشهوات وأنت تطلبها فما أسرع الهلاك!! أنت مريض بداء خطير قد يودي بك -إن لم تتداركه- إلى ما هو أشد من الموت من العذاب الرهيب والألم الذي لا يُطاق، فإن صبرت على مضض الدواء اكتسبت العافية، ومن وراء العافية أعلى النعيم والرفاهية.

ويعزّيك عن صبرك وإن طال وعن قسوته وإن اشتد أنه كلما كانت التضحية أكبر والصبر أعظم كانت المفاجآت في الجنة أروع.

كرُّوا الأحاديث عن ليلى اذا بعُدت　　　إن الأحاديث عن ليـــلى لتلهيني

يشهد لهذا حديث النبي ﷺ عن فقراء المهاجرين الذين جمعوا بين الصبر على فراق الأهل والوطن والصبر على شظف العيش وضيق الرزق، لذا كوفئوا أعظم مكافأة. قال ﷺ:

«أول ثلة يدخلون الجنة الفقراء المهاجرون الذين تُتقى بهم المكاره، إذا أُمِروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت للرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تُقضَ له حتى يموت وهي في صدره، وإن الله عز وجل ليدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقوتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي.. ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون فيقولون: ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]»[1].



فما أصغر مصائب الدنيا اليوم بجوار غنائم الجنة غدا، ووالله لولا كراهية تمني البلاء، ولولا أمر النبي ﷺ لأمته بسؤال العافية، ولولا عدم معرفتنا إمكانية صبرنا عند وقوع البلاء من عدمه لكان تمني مثل هذا البلاء هو فعل الأذكياء النبهاء.

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٢٥٥٩.

٥- الأماكن محدودة

قال رسول الله ﷺ: «احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخَّر في الجنة وإن دخلها »(١).

أخــي. لا يكون التنافس إلا في النفائس، ولا أنفس من الجنة، فمن لم يبذل في سبيلها أنفس الأنفاس شكا يوم الحساب مرارة الإفلاس.

عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أُعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله!! لا أوثر بنصيبي منك أحدا، فتلَّه رسول الله ﷺ في يده. متفقٌ عليه

ومعنى «تلَّه»: دفعه إليه ووضعه في يده، والغلام هو ابن عباس أو الفضل، وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز الإيثار بالأجر الأخروي لكبير أو صغير.

ولا يكون التنافس إلا عند خوف فوات خير أو منزلة، وهو ما قاله أبو حامد الغزالي ضاربا لنا مثلا جميلا:

«وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها »(٢).

---

(١) صحيح : رواه الشيخان وأحمد عن سمرة كما في صحيح الجامع رقم : ٢٠٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٩٠.

وعلى هذا رأينا سعد بن خيثمة بن الحارث أحد نقباء الأنصار رضي الله عنهم لما ندب رسول الله ﷺ الناس إلى بدر؛ قال له أبوه: لا بد لأحدنا أن يقيم فآثِرني بالخروج، وأقم مع نسائك، فأبى سعد وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به.. إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا!! فاستهما، فخرج سهم سعد فخرج فقُتِل ببدر، ولحق به أبوه بعدها بعام حين استشهد في أحد!!

ورأينا عمرو بن الجموح الأعرج يمنعه بنوه من الخروج لعذره فأبى إلا مسابقتهم إلى الموت أو بالأحرى إلى الحياة، قائلا: هيهات!! منعتموني الجنة ببدر وتمنعونيها بأحد؟! ورأى النبي ﷺ شدة شوقه للجنة فأذن له قائلا: لا تمنعوه لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة، فتركوه وعندها قالت امرأته: فكأني أنظر إليه موليا قد أخذ درقته وهو يقول: اللهم لا تردَّني إلى حزبي وهي منازل بني سلمة، فقُتِل هو وابنه خلاد[1]، فقال له النبي ﷺ بعد أن رآه شهيدا مخاطبا إياه: «كأني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة».

وورَّث الصحابة هذا المعنى إلى من لم يشهدوا رسول الله لكي يُعرِّفوا

---

(١) قدم على رسول الله ﷺ نفر من الأنصار، فقال: «من سيدكم»؟ فقالوا: الجد بن قيس على بخل فيه، فقال رسول الله ﷺ: «أي داءٍ أدوى من البخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح»، وفي ذلك قال شاعر الأنصار:

وقال رسول الله والحق قوله لمن قال منا: من تُسمُّون سيِّدًا
فقالوا له: جَدُّ بن قيسٍ على التي نُبخِّله فيها وإن كان أسودا
فتى ما تخطى خطوةً لدنيةٍ ولا مدَّ في يومٍ إلى سوءةٍ يدا
فسوَّد عمرو بن الجموح لجوده وحق لعمرو بالندى أن يُسوَّدا
إذا جاءه السؤال أذهب ماله وقال: خذوه إنه عائد غدا
فلو كنتَ يا جد بن قيسٍ على التي على مثلها عمرو لكنت مُسوَّدا

الاستيعاب ص ٣٦٢.



الأجيال بعدهم كيف كان التنافس على عهده، فهذا **حذيفة بن اليمان** ﷺ وكان أميرا على المدائن يصعد المنبر ويخطب أهلها قائلا:

«**ألا وإن الدنيا قد أذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق**»، يعني بالسباق: من سبق إلى الجنة[1].

٦- الجنة وإلا فالنار

كان **هارون الرشيد** من أورع الخلفاء وأكثرهم خشية لله، وكان يطرق باب العلماء يلتمس النصيحة والعظات، فمنهم من يقبله ومنهم من يَرُدُّه!![2]

ومما جرى من وعظه ما جرى بين **يحيى بن خالد البرمكي** وواعظ الرشيد **ابن السماك** حيث قال له: إذا دخلت على **هارون** أمير المؤمنين فأوجز ولا تكثر عليه، فلما دخل عليه وقام بين يديه قال: «يا أمير المؤمنين!! إن لك بين يدي الله تعالى مقاما، وإن لك من مقامك منصرفا، فانظر إلى أين منصرفك: إلى الجنة أم إلى النار؟!»، فبكى **هارون** حتى كاد أن يموت[3].

ونفس الوصية نطق بها **يزيد الرقاشي** لما دخل على **عمر بن عبد العزيز** وسأله الموعظة، فقال: يا أمير المؤمنين!! اعلم ما أنت أول خليفة يموت! فبكى **عمر** وقال:

---

(١) حلية الأولياء ١/١٤٩ بتصرف

(٢) ومن هذا ما جاء في مختصر تاريخ دمشق ٨/١١٦ من أن هارون الرشيد قدم إلى باب عبد الله بن المبارك يوما فاستأذن، فلم يأذن له، فكتب هارون في رقعة:

هل لذي حاجة إليك سبيل … لا طويلٌ قعوده بل قليل

فكتب ابن المبارك على ظهر رقعته:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيلٌ … وقليلٌ من الثقيل طويل

(٣) صفة الصفوة ٣/١٧٤.

زدني يا يزيد. فقال: يا أمير المؤمنين!! ليس بينك وبين آدم إلا أب ميت! فبكى وقال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الموت موعد، فبكى وقال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين!! ليس بين الجنة والنار منزل! فسقط مغشياً عليه[1].

أخي.. ليس هناك من منزلة ثالثة بين المنزلتين، وكل خطوة تبعدك عن الجنة تُدنيك من النار، والكل مجبول في هذه الدنيا على السعي والحركة، فإن لم تسعَ للجنة قادتك رجلاك ولا بد إلى النار، والسعي واقع لا محالة، لكن شتان ما بين سعي وسعي، بين من يكدُّ ويتعب في سبيل الجنة ومن يكدُّ ويتعب في سبيل جهنم، وبين من يسير إلى الجنة بخطى ثابتة ومن يخطو إلى الهاوية بخطى واثقة!! كلهم يسعى، والفارق!!

وللـدَّبور والبـازي جميعـا ... لدى الطيران أجنحة وخفق

ولكـن بيـن مـا يصطاد بـازٍ ... ومـا يصطاده الـدَّبور فـرق

ورسول الله علمنا قبل أي شعر أو موعظة:

«كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».



قال محمد بن سيرين: «ما حسدت أحدا على شيء من الدنيا، إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو صائر إلى النار»[2].

---

(١) سراج الملوك ١/ ٤.

(٢) الزهد للبيهقي ٢/ ٣٦١.



٧- سلوه الفردوس

قال ﷺ: « فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة »[1].

وفي هذا الدعاء فوائد عدة منها: حث النفس على استحضار الهمة العالية دائما وعدم الرضا بالواطي، وذلك في كافة الأخلاق والأعمال والصفات، ولا فارق في ذلك بين الأعمال الدنيوية والأخروية، لأن الدنيا عند عاشق الآخرة المركب الذي يوصله إلى الجنة والبضاعة التي تُبلِّغه إياها.

أعلى درجة في الجنة تستلزم أعلى بذل في الدنيا، والدليل تلمحه بين ثنايا حديث جابر ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله .. أي الجهاد أفضل؟! قال: «أن يعقر جوادك ويهراق دمك»[2].

ومنها: تهيئة النفس للعمل الذي يجعلها تستأهل الفردوس، فإن فترت قليلا فللعمل الذي يُدخل الجنة، في حين أنها لو استعدت من الأول بعمل يورث أدنى درجات الجنة فربما فترت فضاعت عليها الجنة بالكلية.

ومنها: الدلالة على كرم الله الفياض وسعة جوده وفضله.

ومنها: الإشارة إلى أنك لا تعلم متى تتفتح أبواب السماء، فلعل دعاءك يوافق ساعة إجابة فترث الفردوس الأعلى بدعوة مباركة.

وإجابة دعوة كهذه ليست كما يظن كثير من الناس من أن ربح الجنة قد يأتي

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٢٦.
(٢) صحيح: رواه ابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٣٦٥

من عمل لحظة واحدة؛ مهما عملوا بعدها ما شاؤوا، لذا تراهم يزدحمون على ختمات المساجد في رمضان ينشدون الفوز العظيم بأقل القليل.

كلا والله ما كانت الجنة يوما رخيصة لتُشترى بمثل هذا الثمن.. إنما معنى إجابة الله لدعائه بالفردوس أن الله يوفق صاحب هذه الدعوة المجابة لعمل صالح يظل مصاحبا له حتى يغادر الحياة، ويختم له بخاتمة الصلاح، مما يجعلك تستحي أن تدعو الله بالفردوس وهو أعلى الجنة وأنت لم تقدِّم بين يديه سوى أقل العمل.

سبحانه!! ما أكرمه!! سبحانه!! ما ألطفه!! دعاك أولا لتدعوه، ثم دلَّك على أعظم كنز تطلبه وهو الفردوس، فإذا لمح منك الصدق والإلحاح استجاب لك بأن وفَّقك مستقبلا للعمل الصالح الذي يؤهلك لبلوغ ما دعوت به.

٨- الملهيات والعوائق

قال ﷺ:

«لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها، فذهب ثم نظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، فلما خلق الله النار قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفَّها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، فقال: أي رب وعزتك!! لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها»[١].

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم

والمراد بالمكاره هنا، ما أُمِرْتَ بمجاهدة نفسك فيه فعلا أو تركا؛



فعلا كالإتيان بالعبادات على وجهها مع المداومة عليها، وتركا كاجتناب المنهيات قولا وفعلا، وسُمِّيت المكاره لمشقتها وصعوبتها على النفس، فلا يوصل إلى الجنة إلا امتطاء صهوة المشقات وعناق الكريهات.

أما الشهوات فهي ما يلذ لك من أمور دنياك مما منعك الله منه إما لأنه محرَّم، وإما لأن فعله يستلزم ترك واجب، وقد حُفَّت الجنة بالشهوات: شهوة حب المال وحب الولد وحب الزوجة وحب الجاه، وهذه كلها في الأصل وسائل تُدرك بها رضا الله إن اتقيت الله فيها ورجوت بها أجره وأطعت فيها أمره وليست غايات، فإذا حوَّل الشيطان الوسائل في قلبك إلى أهداف، وجعلك تبني فوق الجسر قصرا، أدت هذه الوسائل عكس المطلوب الذي خلقها الله من أجله، وأفلتت الجنة من يديك.

رُوِي عن **مسلم العباداني** أنه قال:

« قدم علينا **صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسواري** فنزلوا على الساحل، فهيأت لهم ذات ليلة طعاما، فدعوتهم إليه فجاؤوا، فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت:

وتُلهيك عن دار الخلود مطاعمٌ ... ولذةُ نفسٍ غيُّها غيرُ نافعِ

قال فصاح **عتبة الغلام** صيحة وخرَّ مغشيا عليه، وبكى القوم، فرُفِع الطعام



وما ذاقوا والله منه لقمة »[١].



أن الشيطان سيدعك تُفلِت، بل دون الجنة عقبات كؤود من المكاره، وألوان من الكمائن الظاهرة والخفية من الشهوات ينصبها الشيطان في طريقك ليحول بينك وبين ليلاك.

الشجاعة.. الشجاعة!!

لكن لا تخف، فقد وصف الله كيد الشيطان بالضعيف، والخوف من العدو هو أول مراحل الهزيمة، والجبن عن اللقاء يقوّي العدو ويضاعف سطوته، لذا قال أبو حازم سلمة بن دينار مهاجما عدونا في عُقر داره موهنا قدره في قلوبنا: «وما إبليس!! والله لقد عُصي فما ضرَّ، ولقد أُطيع فما نفع »[٢].

وفي غارة ثانية شنَّها أبو سليمان الداراني على الشيطان قبل أن يسترد عافيته قال رحمه الله:

«ما خلق الله خلقا أهون عليَّ من إبليس، لولا أن الله تعالى أمرني أن أتعوَّذ منه ما تعوَّذت منه أبدا، شيطان الجن أهون عليَّ من شيطان الإنس، شيطان الإنس يتعلق بي فيدخلني في المعصية، وشيطان الجن إذا تعوَّذت منه خنس عني »[٣].

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٩.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ٢٤٥.
(٣) حلية الأولياء ٤/ ١٨٢.

٩- فضل الله لا فضلك

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله** ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»، وقال بيده فوق رأسه[١].

وإذا كان الناس كلهم لا يدخلون الجنة إلا برحمة الله، فوجه تخصيص رسول الله بالذكر هو أنه إذا كان مقطوعا له أنه لا يدخل الجنة إلا برحمة ربه، فغيره يكون في ذلك بطريق الأولى.

لكن كيف الجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، والجواب ليس جوابا واحدا بل أربع إجابات جاءت على لسان ابن الجوزي كرما منه فياضا وجودا غامرا حيث قال:

«**الأول**: أن التّوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السّابقة ما حصل الإيمان ولا الطّاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: أن منافع العبد لسيّده فعمله مُسْتَحَقٌّ لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفْس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام الدرجات بالأعمال.

الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير، والثواب لا ينفد، فالإنعام

---

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد بإسناد حسن كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٩٩.



الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد هو بالفضل لا بمقابلة الأعمال»[١].

وموعظة ليحيى بن معاذ نختم بها الحديث:

«مسكين ابن آدم!! جسمٌ معيب، وقلبٌ معيب، ويحتاج أن يستخرج من معيبين عملا لا عيب فيه!!»[٢].



سمعت أبا عبد رب يقول لمكحول: يا أبا عبدالله تحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة!! قال: «فأحب الموت فإنك لن ترى الجنة أو لن تدخل الجنة حتى تموت»[٣].

أصحاب السلة الواحدة!!

لا تضع البيض كله في سلة واحدة، هكذا علمتنا قوانين التجارة والمعاملات الدنيوية، والغافل عن الجنة وضع البيض كله في سلة الدنيا، والزمن للأسف ليس في صالحه، فكلما تقدَّم به العمر ضعفت قوته وبالتالي قلَّت قدرته على الاستمتاع بملاذ الحياة، لذا فهو في قلق عميق من الغيب وخوف مستمر من المستقبل، بعكس المؤمن الذي خطب الجنة.. كلما امتد العمر اقترب من سعادته المطلقة ودنا موعد عرسه المرتقب، وشتان بين إنسان يتمنى لقاء الله وآخر ينخلع قلبه من مجرد ذكر كلمة: موت!!

---

(١) فتح الباري ١٨/ ٢٨٤.

(٢) التمثيل والمحاضرة ١/ ٤٠.

(٣) تهذيب الكمال ٣٤/ ٣٧.



١٠- حدد درجتك بنفسك

قال ﷺ: «من أراد أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده»[١].

ليست الجنة درجة واحدة، وبالتالي ليس الثمن المدفوع فيها واحدا، فمشتري أدنى درجة في الجنة ليس كشاري أعلى الدرجات، وأعلى درجة هناك تستوجب أعلى بذل هنا، وقمة الأجر لديه تتطلب أسرع السير إليه، فأين بلغت في الجنة حتى الآن أخي الخاطب؟!

وقد سبق وأن أشار النبي ﷺ إلى عدد درجات الجنة ليُشعل نار التنافس بين المؤمنين أيهم يحوز أعلاها، فقال ﷺ: «**الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»[٢].

بل نقل صورة تفصيلية ومشاهدة حقيقية لما رآه أهل الجنة بعد أن استقر لهم في الخلد المقام، فرأوا الدرجات الأعلى والمكانة الأرقى لمن سبقهم في دنياه فكوفئ في الجنة منتهاه. قال ﷺ:

«**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**»[٣].

---

(١) حسن: رواه الدارقطني عن أنس وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وسمرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٠٦.

(٢) صحيح: رواه ابن مردويه عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٢٠.

(٣) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي سعيد والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٢٧، والغابر هو الذي تدلَّى للغروب وبعد عن العيون. قال الزمخشري: «والترائي: تفاعل من الرؤية، يُقال تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا، وتراءى لي الشيء ظهر لي حتى رأيته، وتراءى القوم الهلال إذا رأوه بأجمعهم».

لكن التمايز في الجنة ليس في الدرجات وحدها بل في كل شي ، ونأخذ مثلا لذلك : الشراب :

فارق كبير بين المقربين وهم السابقين، وبين الأبرار أو أصحاب اليمين وهم المقتصدين ، فالمقربون يشربون بعيون الجنة صرفا محضا لا يخالطه شيء ، كما قال تعالى في سورة المطففين في شراب الأبرار: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٧-٢٨]، وقال يشرب بها المقربون ولم يقل منها إشعارا بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها وبغيرها ، وعين التسنيم أعلى أشربة الجنة ، يشرب بها المقربون صرفا ، وتُمزج لأصحاب اليمين مزجا ، جزاء وفاقا.

قال ابن القيم:

«وهذا لأن الجزاء وفاق العمل ، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم ، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مُزِجَ لهم شرابهم ، فمن أخلص أخلِص شرابه ، ومن مزج مُزِج شرابه»[1].

لكن ..

كيف نترجم هذا التنافس واقعا ملموسا؟!

كانت بعض الصالحات تتوخى أشد الأيام حرا فتصومه، فيقال لها في ذلك فتقول: «إن السعر إذا رخص اشتراه كل أحد!!»[2].

تشير إلى أنها لا تؤثر إلا العمل الذي لا يقدر عليه إلا قليل من الناس لشدته، تبغي بذلك درجة أعلى في الجنة ومكافأة أكبر هناك، فأشق الصدقات هو

(١) طريق الهجرتين ص ٣٠١.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٤٦.



أن تنفق مما تحب، وأشق الصلوات ما كان في جوف الليل بعد نوم وفي خلوة، وأشق الأعمال عموما ما انعدم فيه حظ النفس ورؤية الخلق، ولن يُعدم عاشق حيلة يصل بها إلى الحبيبة.

اسمُ بهمتك نحو الجنة، ثم استعد لتحمل الآلام والمشاق في سبيلها، ويشهد لك بذلك الإمام ابن القيّم:

«كلما كانت النفوس أشرف والهمة أعلى كان تعب البدن أوفر وحظه من الراحة أقل»[1].

أين تحلّقُ روحك؟!



هل هي في الملأ الأعلى وحول العرش أم أن الطين شدّها إليه والفانيات جذبتها فطافت حولها؟! هل تطمع روح دنية في مجاورة الأرواح الزكية في مقام الصديقين والنبيين والشهداء؟! محال كما صدح بها ابن القيّم:

« ولو أن ملِكا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للمُلك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم»[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٥.

(٢) طريق الهجرتين ١/ ١٧٩.



١١- في قافلة الأوائل،

وكيف لا تقتدي بنبيك ﷺ في سبقه وفضله وأنت مأمور بالاقتداء به في كل شأنه، وهو الأعلى ﷺ في كل فضيلة، والذي لم يأت ثانيا في أي محمدة قط، وهو الذي علَّمك الصدارة ولقَّنك السبق سلوكا وعملا حين قال:

«أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشقُّ عنه الأرض، وأول شافع وأول مُشفَّع»(١).

وقال ﷺ: **«أنا أول من يُؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يُؤذن له أن يرفع رأسه..»**(٢).

ثم هو يغري أصحابه بالسبق دوما، ويغرس فيهم الطموح المستحب والتطلع اللذيذ، فيقول لهم يوما: **«أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أَوْجَبوا، ثم قال: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»**(٣).

وقد أوجب الله على نفسه أن يُدخل هذه الطائفة الجنة تفضلا منه وتدليلا لعباده وتشريفا لهم، وإلا فلا يُلزِم ربنا شيء حاشاه، ولعل سبب هذا التشريف ما

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في رقم: ١٤٦٧.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي الدرداء كما في مشكاة المصابيح رقم: ٢٩٩.

(٣) صحيح: انظر السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٨، ومن علو همة النساء وسبقهن أن أم حرام بنت ملحان الأنصارية (وهي خالة أنس بن مالك وزوج عبادة بن الصامت) سمعت الشطر الأول من الحديث: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»، فقالت: يا رسول الله.. أنا فيهم؟! قال: أنت فيهم، ثم أكمل رسول الله: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»، فقالت أم حرام: أنا منهم يا رسول الله؟! قال: لا، وتمر الأيام ويبقى أمل تحقق البشارة يداعب خيالها، وتركب أم حرام البحر مع زوجها في سنة سبع وعشرين من الهجرة جهادا مع معاوية لفتح قبرص، فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فماتت شهيدة هناك، وكان النبي ﷺ قد بشَّرها بالشهادة يوما حيث كان يغشاها ويقيل عندها.

في مبادرتهم من تضحية عظيمة ومخاطر جسيمة، حيث كان العرب على شجاعتهم وجرأتهم يخشون البحر ويرون ركوبه أعظم مخاطرة وأخوف المجهول. هذا لمن ركبه مسافرا آمنا، فكيف بمن ركبه ليلقى عدوه فيه؟

فإذا علمت أنه ليس أي عدو بل أعظم قوة عسكرية في ذلك الحين وهم الروم، فإذا انضم لذلك أنه لم يسبق لأحد من العرب أن غزا هؤلاء في بلادهم وعقر دارهم وهم بها أدرى وبقتالها أخبر ، إذن لعلمت هول الأمر وشدته.

ولهذا جاءت الجائزة التحفيزية لهؤلاء الأوائل على قدر التضحيات التي لم يسبقهم إليها أحد : الجنة ولا أغلى.

قطار السابقين!!

وركب الصحابة قطار الأوائل وحجزوا مقاعدهم المباركة فيه، فأحرزوا الأعمال النافعة غير المسبوقة؛ فأبو بكر ﷺ مع كونه أول من أسلم من الرجال كان أول خطيب دعا إلى الله جهارا، وأول من جمع القرآن، والفاروق ﷺ: أول من أرّخ من الهجرة، وأول من وضع الدواوين، وأول من أنشأ بيت المال، وأول من عسّ في عمله ليتفقد الرعية بالليل، وغير ذلك كثير، وذو النورين عثمان ﷺ: أول من هاجر بأهله من المسلمين، وأول من أنشأ أسطولا بحريا، والزبير بن العوام ﷺ: أول من شهر سيفا في سبيل الله[1]، والأرقم بن أبي الأرقم ﷺ: أول

---

(١) روى الذهبي في سير أعلام النبلاء ١/ ٤١: عن عروة قال: أسلم الزبير وهو ابن ثماني سنين، ونُفحت نفحة من الشيطان (سرت إشاعة) أن رسول الله أُخذ بأعلى مكة، فخرج الزبير وهو غلام، ابن اثنتي عشرة سنة، بيده السيف، فمن رآه عجب، وقال: الغلام معه السيف، حتى أتى النبي ﷺ، فقال: ما لك يا زبير؟ فأخبره وقال: أتيتُ أضرب بسيفي من أخذك!! حتى قيل إنه ما من أحد يشهر سلاحه في سبيل الله ذودا عن الإسلام إلا وللزبير مثل أجره!!

من بذل داره للدعوة وفتحها على مصراعيها لخير عصبة عرفها التاريخ، وغيرهم وغيرهم.

هذا ركب الأوائل فأين إبداعُك؟! وثلة القلائل لا يقصر عنها باعك أو يضيق ذراعك، واندفع نحوهم يثير حميتك: حرصك أن تُحرِز في دنياك السبق إلى الطاعات وانتصابك في القدوات، ورجاؤك مقابل ذلك في الآخرة: الفخر والزهو أنك من أوائل من يقرع أبواب الجنات.

- قد تنصر دينك بعمل صالح في أرض مجدبة لم يصلها غيث الدعوة بعد، فكيف لو كان هذا العمل الدعوي مبدعا وعلى غير سابق مثال؟!
- قد تحيي فكرة مبتكرة يأوي بها الشباب إلى ظل إيماني وارف، ويتجمع تحت رايتها التائهون، فتغيظ بذلك المفسدين، وتُسعِد رب العالمين.
- قد تحيي سُنة هُجِرت، وتقيم شعيرة وئدت في بيئة انسلخت من دينها وحادت عن نهج نبيها.
- قد يستغرقك الحزن على محن أمتنا وحال غزتنا، فينقدح زناد فكرك وتتطاير معه شرارة عزمك لتسفر عن فتح عظيم النفع وفير البركة.

فلتكن من اليوم مهموما بهذا الهم النبيل، ولتتغيَّر محتويات قلبك وكيمياء مشاعرك ركضا وراء هذا الركب الجليل، لتخرج الفكرة هي الأولى من نوعها أو الأولى في مكانها لتكون السابق لغيرك في مدينتك أو قريتك أو جامعتك أو عشيرتك.


الفصل الرابع
عشاق ليلى



عن محمد بن أبي عميرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو أن رجلا خرَّ على وجهه من يوم وُلِد إلى يوم يموت هرما في طاعة الله عز وجل لحقِرَه ذلك اليوم، ولوَدَّ أنه رُدَّ إلى الدنيا كي ما يزداد من الأجر والثواب»[1].

ومردُّ احتقار ما قدَّموه إلى أمرين:

الأول: أنهم لما يرون ثواب الأعمال، يحتقرون ما بذلوه بجوار ما عاينوه، فلو أن أحدنا مثلا ضرب بماله في تجارة ودفع فيها من رأس ماله فجاءته الأرباح ألف ضعف مثلا، لتحسَّر أنه لم يُخرج ماله كله في هذه الصفقة، فكيف والأجر هناك أكبر من أن يدركه عقل؟!

الثاني: أن ذلك حاصل لما يرونه من هول ذلك اليوم الذي يود المرء فيه أن يفتدي نفسه بأي ثمن، ومثال ذلك أنك لو دخلت امتحانا مثلا ففوجئت بأكثر الطلبة اجتهادا وأشدهم ذكاء؛ وجدته شديد الخوف والهلع وأنت دونه في التحصيل والجهد بكثير، فكيف يكون شعورك؟! وهكذا الأمر يوم القيامة؛ يأتي أشد عباد الله اجتهادا وطاعة وهم الأنبياء يقولون: اللهم سلِّم.. اللهم سلِّم، وحين يسألهم الناس الشفاعة ينصرف كل منهم إلى نفسه قائلا: نفسي.. نفسي، فأي هول شاهدوه؟! وأي خطر خافوه؟!

---

(١) صحيح: رواه أحمد ورواته رواة الصحيح كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٩٧

إخوتاه.. الجنة اليوم معروضة في سوق الطلب، لا يستحقها من زهد فيها، ولا يبصر جمالها من انشغل عنها، لا تأسى على من باعها، ولا تدرك من أبطأ عنها، والله ونبيه يدعوان إليها صباح مساء في قرآن وسنة، ومعظم الناس عنها نيام!!

ورُبَّ خصلة واحدة من خصال الخير كانت سببا في دخول صاحبها الجنة، ليس لصاحبها إلا أن يداوم عليها فحسب، واسمعوا: قال ﷺ:

« إن رجلا لم يعمل خيرا قط وكان يُداين الناس فيقول لرسوله: خذ ما تيسَّر واترك ما عسُر، وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا، فلما هلك قال الله: هل عملت خيرا قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسَّر واترك ما عسُر وتجاوزْ، لعل الله أن يتجاوز عنا. قال الله: قد تجاوزتُ عنك »[1].



بل حتى لو لم يداوم العبد على هذه الخصلة وكان عمل الخير منه طفرة، فرُبَّ فعل واحد وليس عادة مستمرة كان سببا في فوز صاحبه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، إنه حكيم عليم. وإليكم البشارة: قال ﷺ:

«نزع رجل لم يعمل خيرا قط غصن شوك عن الطريق، إما كان في شجرة مقطعة فألقاه، وإما كان موضوعا فأماطه، فشكر الله له بها فأدخله الجنة»[2].

---

(١) صحيح : رواه النسائي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم : ٢٠٧٨.

(٢) حسن : رواه أبو داود وابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم : ٦٧٥٥.





قال أبو إسحاق القرشي: « كتب إليَّ أخي من مكة... يا أخي! إن كنت تصدقت بما مضى من عمرك على الدنيا، وهو الأكثر، فتصدَّق بما بقي من عمرك على الآخرة، وهو الأقل»[١].

أخـــي..

ليلى قريبة منك كل هذا القرب وأنت عنها مُعرِض!!: « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله »[٢]، ليلى تشتاقك أكثر مما تشتاق إليها، فما هذا السماجة؟! ما كان الله ليُحمّلنا ما لا نطيق، لكن دون ليلى سُلّم لا تستطيع صعوده ويداك في جيبك، فلابد إذن من عمل. وإلى أول عمل:

أولا: الذكر

ولأنه أحب العبادات إلى الله على الإطلاق كان هو العبادة الوحيدة التي يستمر عليها أهل الجنة بعد دخول الجنة، فعن جابر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ: «يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس»[٣].

والذكر ضد النسيان، فليس من المعقول أن يدخل العبد الجنة بكلمات مجردة من عمل القلب والجوارح، وإلا فما أرخص الجنة حينها، وإنما المقصود أن يذكر العبد ربه فلا ينساه في جميع أحواله.

---

(١) الزهد للبيهقي ١/ ١٧٥.

(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٣١١٥.

(٣) صحيح: رواه أحمد ورواته رواة الصحيح كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٥٩٧.

لكن ما ثواب الذكر في الجنة؟!

اسمع تعشق، واعشق تذكر ذكرا كثيرا:

« لقيتُ إبراهيم ليلة أُسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر »(1).

وقيعان جمع قاع، وهي الأرض الصخرية المستوية التي لا بناء فيها ولا غرس، بل ولا يَنْبُتُ فيها شيء لاستوائها، لذا فهي لا تُمسِك الماء ولا تُنْبِتُ الكلأ، وقد شبَّه أبونا إبراهيم عليه السلام الجنة بهذا ليبيِّن لك دورك الإيجابي في تزيين جنتك وتشييد غرسك هناك، وإنما غراسها: بذور الذكر، فرُدَّ السلام على أبيك وقل: وعليك السلام خليل الرحمن، ومن الآن لن يمنعني من هذا الغرس شيء، وسأغرس في أوقاتي المشغولة وأوقاتي الضائعة من انتظار في مصلحة أو استقبال نوم أو سير في طريق، وسيلهج لساني دوما بهذه الكلمات لأحظى بهذه المكافآت.

لكن.. مم خُلِق هذه الغراس؟!

قال ﷺ: **«ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب »**(2).

وما طولها وما أبعادها؟!

قال ﷺ: **« إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع في ظلها**

---

(1) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم : ٥١٥٢.

(2) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم : ٥٦٤٧.



مائة عام ما يقطعها »[١].

الراكب أيها العشاق وليس الماشي، فما أطولها من شجرة وما أعظمها، لكن.. هل كل الأشجار هناك من نوع واحد؟!

كلا.. بل هي أنواع؟! ولعل أشهر ما كُشِف لنا من هذه الأنواع: شجر طوبى لقول النبي ﷺ:

«طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٢].

وتنقسم أنواع الذكر التي تُدخل الجنة إلى نوعين:

النوع الأول: أذكار محددة

١- السيد العظيم

قال ﷺ:

« سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يُمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة»[٣].

وسُمِّي هذا الدعاء سيد الاستغفار لأنه جامع لمعاني التوبة كلها، فاستُعير له اسم السيد الذي يُقصد في الحوائج ويُرجع إليه في الأمور كما يُرجع إلى هذا

(١) صحيح : رواه الشيخان عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم : ٢١٢٥.

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن حبان عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم : ٣٩١٨.

(٣) صحيح : رواه البخاري وأحمد والنسائي عن شداد بن أوس كما في صحيح الجامع رقم : ٣٦٧٤.



الدعاء لمغفرة الذنوب، وذلك أنه يسود ويتقدم كل صيغ الاستغفار الأخرى في الفضيلة والمرتبة.

وقوله ﷺ: «موقنا بها» يستدعي فهم كل مفردات الحديث فهما جيدا، وهو ما سأفعله لأجعل اليقين به لقمة سائغة في متناول قلبك:

وأنا عبدك: وهي تضع العلاقة مع الله في إطارها الصحيح، وهي علاقة العبودية التامة، والعبودية هي كمال المحبة مع كمال الخضوع، وهو ما لا يجتمع لأحد إلا له سبحانه.

«**وفيه أيضا:** أني عبد من جميع الوجوه صغيرا وكبيرا، حيا وميتا، ومطيعا وعاصيا، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضا: أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضا: أنك أنت الذي مننت علي بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضا: أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وأني لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا»[1].

وكلما ازدادت عبوديتك لربك كلما أعلى قدرك بين خلقه، وزرع في قلوبهم المهابة منك، والتوقير لك، والفرح بك، والشوق إلى لقائك، والدليل على ذلك: عبد الله ورسوله: محمد ﷺ الذي تمثل العبودية ظاهرا وباطنا حتى في طريقة أكله

---

(١) الفوائد ص ٢٢، ٢٣.

وجلوسه حين قال ﷺ: «آكل كما يأكل العبد و أجلس كما يجلس العبد»[1].

فكوفئ على كمال عبوديته بخلود ذكره واقترانه ذكره على الدوام بذكر رب العالمين.

وأنا على عهدك: أي أنا مقيم على الوفاء بعهد الميثاق الذي أخذته عليَّ وأنا لا زلتُ ذرا في صلب أبي آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

ووعدك: وأنا موقن كذلك بوعدك لي بالبعث والنشور للمحاسبة يوم الحشر والتلاق لأقطف ثمرة ما جنت يداي في دنياي، ولا يغيب ذلك عن ذهني ولا أغفل عنه.

ما استطعت:

والاستطاعة هي استفراغ الجهد، أي بذل غاية الجهد الذي يمكن بذله في سبيل تحقيق رضاك عني بحيث لا تبقى عندي ذرة جهد لم تُبذل في سبيلك ولا لحظة وقت لم تُنفق في رضاك، فهل أعني حقا ما أقول؟! أم أنني أردِّد بشفتيَّ ما تشهد أحوالي بكذبي؟! هل أديت حقا أقصى ما أستطيع نحو ربي؟! عليَّ أن أراجع أحوال قلبي وأنا أتلفظ بكلمات لساني، ثم أصحِّح المسيرة المعوجة.

وفي هذه الكلمة معنى استجداء القوة من الرب سبحانه الذي يُمدُّ وحده

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد وابن حبان عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٥٤٤، ولماذا العبد؟! قالوا: لأن العبد أكثر ما يكون مشغولا بالخدمة، فلما تيسير له الفراغ للأكل أكل كيفما تيسر الأكل جالسا أو قائما أو على أي حال، وفيه كمال التواضع منه.

بالعون والمدد، وفيه معنى استشعار العجز، فإن العبادة الشاملة في سر وجهر وسكون وحركة وجِدٍّ وهزل ومحيا وممات تشق على نفسي الضعيفة، لذا لزم استجلاب العون من الله في طريق كهذه.. طويلة شاقة مليئة بالمعيقات.

أعوذ بك:

أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك، فإنك إن لم تعذني أحاط بي الهلاك من كل جانب.

من شر ما صنعت:

من شر ذنوبي وتقصيري في أمرك سواء كان التقصير في القيام بالشكر على الإنعام أو كان التقصير بارتكاب الآثام، وشر ما صنعت هو مجموعة شرور متتالية تشمل شر مغبة الذنب الدنيوية، وشر عقوبته الأخروية، وشر عدم مغفرته، وشر العودة لمثله، وهذه الشرور سباع مفترسة كادت أن تفتك بي لولا أني احتميت بجناب الله ولُذتُ به.

ومما يشهد على خطورة الذنب قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فالذنب الواحد قد يُهلك صاحبه، وبذنب واحد فحسب قد يدخل العبد النار، وقد مرَّ بنا أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، وأن غلاما للنبي ﷺ عُذِّب في النار بشملة سرقها من الغنائم، وأن الله أحبط عمل رجل صالح لأنه تألى على الله وأقسم أن لا يغفر الله لفلان، وهي كلها إشارات لها دلالات وتنبيهات على خطورة السيئة الواحدة.



أبوء لك بنعمتك عليَّ:

أُقر وأعترف بعظيم إنعامك عليَّ في النجاة من الكفر وفعل الحسنات والصحة والمال والعيال بل حتى نعمة النفَس الذي يتردد في صدري وغيرها من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهذا الاعتراف وتكراره يؤدي إلى الشكر، ودوام الشكر يورث ولابد محبة الرب سبحانه وثنائي المتواصل عليه.

وأبوء بذنبي:

وذنبي هو عدم شكر نعمتك، أو هو الذنب المطلق سواء كان تقصيرا مني في أمر من أموري أو وقوعي في نهي، وهو ما يوجب عليَّ دوام الاستغفار والتوبة إلى الله.

وما أجمل قول بعضهم: «أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك عليَّ وانقطاع حجتي إلا غفرت لي»[1].

فلن أرى نفسي بعد اليوم على الدوام إلا مُقصِّرا مذنبا، ولن أرى ربي إلا محسنا متفضِّلا.

أخـــي..



قد يُقِرُّ الإنسان بذنبه أمام الآخر، دون أن يكون هذا الآخر متفضلا عليه بشيء، وقد يُنعم إنسان على إنسان بهدية دون أن يرتكب الأول ما يستدعي الاعتذار، لكن ذلك لا يشكِّل الافتقار الكامل، إنما الافتقار الكامل هو في

(١) الزهد والورع والعبادة ص ١٠٤ – ابن تيمية.



اجتماع الأمرين، ولذا قال: «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»، فإن حصل لك ذلك فقد أصبح الطريق أمامك ممهّدا لطلب المغفرة: «فاغفر لي»، ويُجاب طلبك في الحال بإذن الله، لأنك وصلت حينها إلى حالة الإفلاس الكامل.

والإفلاس هو أقرب باب يدخل منه عبد على الله تبارك وتعالى، « فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به، ولا وسيلة منه يَمُنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرف، والإفلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تُجبَر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته »[1].

وحالة الإفلاس هذه يضرب لها ابن القيم مثلا يقرِّب لك بها الصورة لتقتدي ويشرحها لك لتقلِّد، فما مثل المفلس إلا «كعبد قد شُدَّت يداه إلى عنقه، وقُدِّم لتُضرب عنقه وقد استسلم للقتل، فنظر إلى سيده أمامه، وتذكَّر عطفه ورأفته به، ووجد فرجة فوثب إليه منها وثبة طرح نفسه بين يديه، ومدَّ له عنقه وقال: أنا عبدك ومسكينك، وهذه ناصيتي بين يديك، ولا خلاص لي من هذا العدو إلا بك، وإني مغلوب فانتصِر، فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته

---

(١) الوابل الصيب ص ١١.

من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف»[١].

وقد يتعجب عابد: ما الذي يدفعني لحالة الإفلاس هذه ولم أرتكب كبيرة من الكبائر أو أقصّر في فريضة؟!

وأنا أرد عليك: وكيف لا تستشعر حالة الإفلاس هذه وقد رأيتَ الشيطان قد أوقع في مهالكه من هو أشد منك قوة وأكثر جمعا، فما بين مفتون بماله وملهي بعياله وغارق في غفلته ومغرور بأمله ومصروع بشهوته ومقتول بعشق وهوى، وابن القيم سبق وأن تعجب ممن ظن أنه سلم فقال مستغربا:

«كيف يَسْلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مرد، وشهوة غالبة، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه، فإن تولاه الله وجذبه اليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة»[٢].

فهل أفلست يا أخي أم لا زال قلبك واثقا من النجاة؟!

ويساعدك على حالة الإفلاس هذه أن تدرك أن لا أحد -والله- أكبر من أن يُضلَّ، وفي دعائه ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**» إشارة إلى شمول ذلك للعباد حتى الأنبياء، ورفع توهُّم من يتوهَّم أنهم يُستثنون من ذلك، وخصَّ ﷺ نفسه بالذكر إعلاما بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجا إلى الله

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٦٦.

(٢) الفوائد ص ٤٨.



سبحانه، فافتقار غيرها ممن هو دونه أحق بذلك»[1].



لذا لابد أن لا يفارق هذان الشعوران أي مؤمن طرفة عين: «الاعتراف بكثرة النعم والتقصير في شكرها»، لأنهما من لوازم صلاح القلب ولو فارقاه لحظة لفسد، فإن القلب إذا غفل عن الاعتراف بالنعم شُغل بالنعمة عن المُنعِم، وإذا غفل عن ذنوبه تتابعت عليه حتى أظلم قلبه أو أصابه العجب فأهلكه.

وهذه الاستمرارية اللازمة لهذين المعنيين توحي بها في الحديث كلمة «أبوء»، فإن المباءة هي التي يبوء إليها الشخص أي يرجع إليها رجوع استقرار، «والمباءة هي المستقر، لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه، فالعبد يبوء إلى الله بنعمته عليه ويبوء بذنبه، ويرجع إليه بالاعتراف بهذا وذاك رجوعَ مطمئنٍ إلى ربه منيبٍ إليه، ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض عنه، بل رجوع من لا يُعرِض عن ربه بل لا يزال مُقبلاً عليه»[2].

فمعنى الدعاء إذن أنك لابد من أن تشعر في كل أحوالك بقولك:

- **«أبوء لك بنعمتك علي»** حتى وإن كانت المصائب قد توالت عليك وحُرِمت ألوان النعم كلها، فترى البلايا عطايا والمحن منحا، وكيف لا تراها كذلك وهي مكفِّرات ذنوب وعلامات اصطفاء وتبلغ بالعبد أعلى المقامات إن عجزت عن ذلك أعماله الصالحات.

---

(١) فتح الباري ١٣ / ٣٧٧.

(٢) طريق الهجرتين ص ١٦٩.



✍ «وأبوء بذنبي» مهما أدركت من مراتب الطاعات ومعالي القُربات، فلا تزال ترى نفسك مقصّرا لم تؤدّ ما عليك، لاستيلاء القصور على أعمالك وتقلب أحوالك واستحالة قيامك بشكر نعمه اللانهائية أو عبادته على الوجه الذي يستحق.

فهل وصل قلبك أي من هذه المعاني أثناء ترديدك لهذا الدعاء السيد؟! وإن لم تفعل، فهلا قرأت هذا الدعاء من الآن بلسان آخر وبقلب جديد بعدما علمك الله من معانيه ما لم تكن تعلم.



قال ابن سمعون وكان يلقب الناطق بالحكمة:

«من الوقاحة تمنيك مع توانيك، استوفِ من نفسك الحقوق، ثم وفِّها الحظوظ حسب ما يكفيها لا ما يطغيها، قفها بين الجنة والنار تأباك الجنة بكل معنى، وتقبلك النار بجملتك!!»[1].

٢- السيدة المجيدة

أخي. ما كان أحد أدل بطريق الجنة من رسول الله ﷺ، لذا اسمع منه قوله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دُبُر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[2].

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٧٤.

(٢) صحيح: رواه النسائي عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٦٤.

والسر في هذا الفضل هو المداومة على هذا الذكر خمس مرات كل يوم وعدم الانقطاع عنه، والأهم من ذلك هو عظمة آية الكرسي التي هي أعظم آي القرآن، فعن أبي بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ سأله: أي آية من كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي، فضرب النبي ﷺ في صدري وقال ﷺ: « **ليَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر.. ليَهْنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لسانا وشفتين تقدّسان المَلِكَ عند ساق العرش** »[1].

ومن أسباب عظمتها اشتمالها على اسم الله الأعظم هي وفاتحة آل عمران وآية طه لاشتمالهم على صفتي الحي القيوم[2]. قال ﷺ: « **اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في البقرة وآل عمران وطه** »[3].

ومن أسباب عظمتها وتسببها في دخول العبد الجنة أنها تطرد الشيطان وتُجير منه على مدار اليوم إذا حوفظ عليها، وإذا طُرد الشيطان أقبل الملك بالإلهام، وفي الحديث: «**صدق الخبيث**. يعني: الجني في قوله: يجير الإنسَ من الجن آيةُ الكرسي»[4].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي بن كعب كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٤١٠، ومعنى «ليهنك العلم»: هنيئا لك العلم.

(٢) قال ابن القيم: «ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة أن من أدمن يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه شديد اللهج بها جدا، وقال لي يوما: لهذين الاسمين وهما الحي القيوم تأثير عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم، وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، حصلت له حياة القلب، ولم يمُت قلبه». مدارج السالكين ١/ ٤٨٨.

(٣) حسن: كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٧٤٦.

(٤) صحيح: كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٢٤٥.

العظمة في جذر قلبك!!

وعلى الرغم من أن عدد كلمات آية الكرسي خمسون كلمة وجملها تسع جمل فحسب، لكنها اشتملت على ثمانية عشر اسما لله تعالى ما بين ظاهر ومضمر، وكل جملة من جملها تغرس التعظيم والإجلال لله رب العالمين، وهو هدف الآية الأسمى على الإجمال، وهو هدف جليل سامٍ لو وصلنا إليه لانحلت كثير من عقدنا اليوم وزالت همومنا، ذلك أن جُلَّ التهاون بالأمر هو من قلة تعظيم الآمر.

ولذا كان من رحمة الله بنا أن حثّنا على قراءتها ثماني مرات كل يوم وليلة: خمس عقب الصلوات المكتوبات، واثنتين في أذكار الصباح والمساء، والثامنة عند النوم، وكأنها والله جرعات تعظيم تنسكب في قلوبنا وفيوضات إيمان تغذّي عروق أرواحنا.

ولنتأمل بقلوبنا ملامح عظمة الرب في كل جملة فيها لنقدره قدره فنعظّم أمره ونهيه:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾:

كلمة الحيّ معرّفة، والحيّ هو كامل الاتصاف بالحياة، لم يسبق وجوده عدم ولم يلحق بقاءه فناء، ولم يقل حيّ لأنها تفيد أنه من جملة الأحياء، فالتعريف دلالة على الكمال والقصر لأن الله له الكمال في الحياة وهو الذي يفيض على الخلق كلهم

بالحياة، وقصرا لأن كل من عداه يموت، ولذا خاطب الله نبيه محمدا ﷺ وهو حي بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. قال قتادة: «نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم»(١).

والإنسان حين يربط سعادته أو أهدافه أو مصالحه بإنسان آخر يحتل منصبا راقيا أو مكانة مرموقة في المجتمع؛ يكون قد ارتكب في حق نفسه حماقة كبرى، لأنه ربط سعادته بميت؛ فإذا عُزِل أو سافر أو مات من اعتمد عليه ماتت معه طموحاته وآماله، أما العاقل فهو من يربط مصيره بالحي الذي لا يموت، فلا يعتمد إلا عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فيكون السعيد حقًّا ويتفوق ويتميَّز ويترقَّى على الدوام دنيا وآخرة.

اجعل بربك كـل عِزِّ ... ك يستقـر ويثبـت

فإذا اعتززت بمن يمو ... ت فإن عزَّك ميِّـت

فنوع من الخبال أن تربط مصيرك بمصير مخلوق يموت، وذكاء وفطنة في الحياة هي أن تربط مصيرك بالحي الذي لا يموت، فحتى لو مت وكنت مع الحي فأنت لم تمُتْ على الحقيقة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٥٤، ومعنى الآية: أننا جميعا في عداد الموتى لأن ما هو كائن فكأنه قد كان، والشيء إذا قرب من الشيء سُمِّي باسمه، والموت قادم عاجلا أو آجلا، وكل آت قريب، والميِّت -بالتشديد- هو من لم يمت وسيموت، أما الميْت -بالتخفيف- فهو من فارقته الروح، وبعضهم سوَّى بين الاثنين قائلا: بل هما يصلحان في الكل. أنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسير ميْت وميِّـت ... فدونك قد فسرت إن كنت تعقلُ

فمن كان ذا روح فذلك ميِّت ... وما الميْتُ إلا من إلى القبر يُحمـلُ



﴿ ٱلْقَيُّوم ﴾:

وقرأ ابن مسعود وابن عمر وعلقمة والنخعي والأعمش: القيّام، وقرأ علقمة أيضا: القيّم، وهي صفة مبالغة من القيام على الشيء ورعايته، ومن معاني القيوم:

- القائم بنفسه مطلقا لا بغيره، وما منا أحد قائم بنفسه إنما هو قائم بربه وبربه فحسب، لأنه مثلا لا يدري ما ينتظره بعد ساعة، بل لا يدري حتى بعد دقيقة، يسمح الله له أن يعيش أو لا يسمح، يُمِدُّه بالنَفَس أو يقطعه عنه فيموت.

- أو القائم بتدبير أمور الخلق من إنشائهم ورزقهم وتحديد آجالهم وأعمالهم، ولا قيام لأي موجود إلا به سبحانه؛ حيث لا يُتصوَّر وجود أي شيء ولا دوامه إلا بإقامة الله له، فالقيومية هنا مشيرة إلى معنى الربوبية، والقيّم في اللغة هو السيد الذي يسوس الأمور ويدبِّرها.

- أو هو الباقي بكمال صفاته على الدوام دون أي تغيير أو تأثر، فقد يكون الحي سميعا بصيرا لكن يضعف سمعه وبصره بمرور الأيام، فيلزم لاتصافه بصفة القيوم بقاء السمع والبصر وكمالهما على الدوام.

لكن لماذا هاتين الصفتين بالذات في الآية «الحي القيوم» وليس غيرهما؟!

والجواب: لأن اسمه «الحي» مشتمل على جميع أسمائه الأخرى، فإن من لوازم الحي أن يكون قادرا عالما سميعا بصيرا باقيا إلى غير ذلك من صفات الكمال.

واسمه «القيوم» دالّ على افتقار كل الخلق إليه؛ فينكشف للعبد عند تجلي

صفة «الحي» معاني جميع أسمائه وصفاته؛ وعند تجلي صفة «القيوم» عجز جميع المخلوقات وافتقارها إليه.

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾:

لأن النوم أخو الموت، والله حي لا يموت، والسِّنة: النعاس الذي يتقدَّم النوم، أما النوم فهو الاستغراق في السبات، وكلاهما منفيان في حق الله، وفائدة تكرار لا، في قوله: ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ انتفاء كل من السِّنة والنوم في حق ربنا على كل حال، تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، فإن قيل: ما قام زيد ولا عمرو، فهذا معناه أن أيا منهما لم يقم، لأن الإنسان قد تأخذه سِنة دون النوم أو يأخذه النوم دون السنة.

وفي أمثال العوام: النوم سلطان، والله لا سلطان لأحد عليه حاشاه، وأي خلق لو نام كان مغلوبا على أمره مقهورا؛ لأن النوم غلب النائم وقهره، والله هو القهار لكل شيء.

وهذا تأكيد لاسم القيوم بل ومن لوازم قيوميته، فإن من جاز عليه النعاس أو النوم استحال أن يكون قيوما، لأنه لو غفل لحظة لسقطت السماوات على الأرض فكانتا دكا، فقيام جميع الخلق بتدبيره وقدرته وحفظه وقيوميته.

وأثر هذه الجملة في النفس أن يستشعر الإنسان الطمأنينة في كل حين وحال لأن الله تكفَّل بأمره كله، فهو في رعاية الله التي لا تغفل عنه لحظة واحدة، فهل رأيتم تطمينا أكثر من هذا، وهو أن يقول الخالق للمخلوق والإله للمألوه: «نم أنت ملء جفنيك واسترح؛ فإن ربك لا ينام».

ومن أثرها أيضا أن يستحضر العبد مراقبة الله له في السر والعلن، وفي كل

أحواله وأوقاته، خاصة في الخلوات حين يُغلق عليه بابه، ويغيب عن أعين الخلق، فيستحي من رؤية الله له الذي لا يغفل عن دقيق منه ولا جليل ولو للحظة أو معشار لحظة.

وفيها كذلك تسلية للمظلوم لأن الله يرى الظالم حين يظلم ويفجر لكنه يمهله لحكمة ويؤخِّره لأجل:

نامت جفونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وليس مجرَّد عدم الغفلة من سِنة أو نوم فحسب، بل مع هذا العلم: الملك والسيطرة والقدرة، فلا يخرج شيء من خلقه عن سيطرته وتصرفه، حاشاه سبحانه، ولذا أردف الحق بقوله:

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾:

ومن هذه الجملة فحسب تجني ثمارا ثلاثة على الأقل:

(١) **لا معبود غيره:**

لأنه مالك السماوات والأرض بما فيها بغير شريك ولا ند، فلا تنبغي عبادة غيره، لأن المملوك طوع يد مالكه وليس له خدمة غيره إلا بأمره.

(٢) **لا تذل لسواه:**

كيف يُسأل غيره؟! كيف تطلب الدنيا من غيره الذي لا يملك شيئا والله وحده الذي يملك كل شيء، الله ليس على بابه حجاب ولا حرس والملوك والرؤساء يضعون الحُجّاب والحرس، الله يقبل منك سؤالك مهما أسأت وهجرت وهؤلاء البشر المهازيل يرُدُّون عليك الإساءة بمثلها وبضعفها، وإذا سألتهم شيئا بعد إساءتك لهم زجروك وأهانوك؟! فكيف بعد كل هذا تذلُّ

بسؤالهم ولا تعز بسؤاله؟!

(٣) **أنت خليفة ومالك عاريّة:**

قال **عبد الله بن مسعود** ﷺ: «ما منكم إلا ضيف وماله عارية، والضيف مرتحل، والعارية مؤداة إلى أهلها»[1].

ومن ثم وجب أن تخضع في خلافتك لشروط المالك المستخلف لك على هذا المال. وإذا خرجت عن شروطه بطلت ملكيتك لماله، فالله هو المالك على الحقيقة وأنت ليس لك من المُلك شيء، بل كل ما في يدك مُعار لك لأمد محدود وعلى سبيل الاختبار، ثم يسترده صاحبه الذي أعاره لك في الأجل المرسوم ليحاسبك عما فعلت فيه.

ولذا فإن النبي ﷺ أوصى أمنا **عائشة** وصية تضمن لها النجاح في هذا الاختبار، فقال ﷺ:

« يا عائشة! لا تُحصي فيُحصي الله عليك »[2].

ولم ينس مؤذّنه **بلالا** قائلا:

« أنفق يا بلال! ولا تخش من ذي العرش إقلالا »[3].

وإذا رسخ هذا الشعور في الوجدان كان له أثر السحر في كسر حدة التكالب المحموم على الدنيا؛ فلا يتحرق القلب سعارا على مُلك لا يملكه على الحقيقة، وسكب في النفس القناعة والرضا؛ فلا تذهب نفسك حسرات على ما فاتها من

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٤.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٣٢.

(٣) صحيح: رواه البزار عن بلال وأبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٥١٢.

الحطام أو ضاع.

نظر إبراهيم بن أدهم إلى رجل قد أصيب بمال ومتاع كثير وقع الحريق في دكانه، فاشتد جزعه حتى خولط في عقله، فقال له:

« يا عبد الله!! إن المال مال الله متّعك به إن شاء، وأخذه منك إن شاء، فاصبر لأمره ولا تجزع »[1].

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾:

ولأن له ما في السماوات وما في الأرض، فإن من تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك لا يُقدِمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن هو لهم، إشارة إلى أنه لا أحد يستطيع أن يدفع ما يريده الله استكانة وتذللا وسؤالا فضلا عن أن يدفع ذلك معاندة وخصومة.

وهي توضّح مقام الألوهية ومقام العبودية يوم القيامة، فالعبيد جميعا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية الخاضعة؛ لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، ولا يجرؤ على الكلام بين يديه أو الشفاعة عنده إلا من يؤذن له، في جو ممتلئ بالجلال والرهبة الذي تفرضه عليك صيغة الاستفهام الاستنكارية وهي أقوى من مجرد النفي؛ لأنها توحي بأن أمر الشفاعة مستنكر أن يكون، فمن هو هذا الذي يشفع عند الله إلا بإذن الله؟

إنه يوم الهول الأعظم والذي لا يجرؤ أحد ولو كان من أتقى العباد وخُلَّص الأنقياء على أن يتقدَّم للشفاعة أو يتكلم فيه، وهل أتقى من الأنبياء؟! فحين يستشفع الناس إلى آدم عليه السلام أبي البشر الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من

(١) شعب الإيمان ٧/ ٢٢٨.

روحه؛ يقول: لست هناكم، فيفزعون إلى نوح أول رسول بعث إلى أهل الأرض، ثم الى إبراهيم خليل الرحمن، ثم إلى موسى كليم الله، ثم إلى عيسى كلمة الله وروحه، ليجدوا الكُلّ يردِّد نفس الكلمات: لست هناكم، وما هذا إلا من الخوف الشديد والهول الأعظم.

والحق أنّه لا أحد يشفع عند الله بحق واستحقاق لأن المخلوقات كلها ملك له، لكن يشفع عنده من أراد الله أن يُظهر كرامته عنده فحسب، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد هو العفو عنه، كما يُسند إلى الكبراء بعض المكرمات، ولنبغاء التلاميذ بعض المهمات، وهذا الاستثناء راجع إلى النبي ﷺ، فإنه مأذون في الشفاعة موعود بها[1]، ولذا أعدَّه الله لهذه المهمة الجليلة إعدادا من نوع خاص وهو لا يزال بعدُ في دار الدنيا. قال المناوي:

«من الحكم والفوائد التي اشتمل عليها رؤية المصطفى ﷺ الجنة والنار الأنس بأهوال القيامة ليتفرغ فيه لشفاعة أمته، ويقول: أمتي أمتي حيث يقول غيره من عظيم الهول: نفسي نفسي»[2].

وقد يختص بالشفاعة بعض صفوة المؤمنين كالصحابة رضوان الله عليهم،

(١) قال القاضي عياض:

«شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات:

الأولى: العامة العظمى بعد أن يلجأ الناس للنبي ﷺ ليدعو الله أن يعجّل لهم بدء الحساب.

الثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفعه فيهم نبينا ﷺ ومن شاء أن يشفع، ويدخلون الجنة دون أن يمروا على النار.

الرابعة: في من دخل النار من المذنبين فيخرج منها بشفاعة نبينا.

الخامسة: في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها». التذكرة بتصرف ص ٢٨٢.

(٢) فيض القدير ٤/ ٣١٢.



وقد أخبر النبي ﷺ عن بعض هؤلاء تكريما وتشريفا فقال:

«**ليدخلنَّ الجنة بشفاعة رجلٍ ليس بنبي مثل الحيَّين: ربيعة ومُضَر**»[1].

وقال في موضع آخر:

«**ليدخلن الجنة بشفاعة رجلٍ من أمتي أكثر من بني تميم**». قالوا: يا رسول الله .. سواك؟! قال: «**سواي**»[2].

ورسول الله ﷺ بذلك يثير غيرة كل مسلم أن الفضل وشرف الشفاعة ليس حكرا على الأنبياء وحدهم كما توهَّم بعض الصحابة كما في حديث بني تميم، بل يمتد لشمل الصحابة، وقد يصل أبعد من ذلك ليشمل غير الصحابة إذا علا إيمانهم وعظمت تضحياتهم كما يشفع الشهيد في سبعين من أهله، أو غيره ممن يشاء الله كرامته من المؤمنين، لذا قال بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك»[3].

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾:

وهذه الجملة تقرير وتكميل لما تضمنَّته جملتا: ﴿ **ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾، فإنهما دلَّتا على علمه سبحانه بما كان، وقوله: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ دلَّ على علمه بما سيكون، فالمراد بما بين الأيدي: العالم المشهود، وما خلفهم يُراد به الغيب، فالله لعظمته يستوي عنده المشهد والمغيب،

---

(١) حسن: رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٣٦٣، وذهب بعض شُرَّاح الحديث إلى أن المقصود هو التابعي أويس القرني، وقيل: عثمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان عن عبدالله بن أبي الجدعاء كما في صحيح الجامع رقم: ٥٣٦٤ والسلسلة الصحيحة رقم: ٢١٧٨

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ١٧١.

وهذا من شأنه أن يُحدِث في النفس هزة عنيفة حين تحس أنها تقف عارية أمام بارئها الذي يعلم عنها كل شيء ولا يخفى عليه منها شيء.

وفيها لمسة خوف من الغيب الذي قد يحوي الفتن وتقلب القلوب عن الهدى، فلا أحد يعلم على أي حال يموت ويُختم له، ولا ما يخفيه له الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله.

وعلاقتها بالجملة التي سبقتها ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾: أن الله يعلم أحوال الشافع الذي يشفع ودافعه ولماذا طلب الشفاعة، ويعلم كذلك المشفوع له وهل يستحق الشفاعة أم لا.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾:

فأنت لا تقدر على أن تحيط بعلم الله بعضه أو كله؛ ذلك أن معنى الإحاطة أن تعرف كل شيء، مثل محيط الدائرة، لكن ذلك لا يمنع أن يسمح لك أن تعلم جزئية ما، وهو ما توحي به كلمة «شيء» والتي تعني أقل القليل، فهو - سبحانه - يكشف للعباد عن شيء من علمه الذي يريد وبالمقدار الذي يريد؛ لكنهم ينسون هذه الحقيقة؛ فيفتنهم ما أذن الله لهم بعلمه، فلا يذكرون ولا يشكرون، بل يتبجحون ويكفرون، وبقدر ما أذن الله للإنسان في العلم بقدر ما زوى عنه أسرارا أخرى كثيرة منها سر الحياة، وسر لحظة الموت القادم، وزوى عنه سر الساعة وكافة مشاهد الغيب، ليُعلِم الإنسان قصور علمه مهما بلغ، لذا كلما زاد علم العلماء أدركوا أنهم جهلاء، واعترفوا بأن ما وصلوا إليه إنما هو قطرة في خضم بحر عظيم، ليورثهم ذلك الإيمان بالله والخشية منه ولابد: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وفي هذه الجملة القرآنية تحدٍّ واضح للجميع فلو

اجتمع البشر كل البشر فلن يحيطوا بشيء من علمه إلا ما أُذِن لهم به، وقد يكون هذا «الاكتشاف» عن محض صدفة أو بعد بحث طويل وجهد جهيد، وكلاهما لا يتم إلا بقدر الله.

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾:

والكُرسي: خلق من خلق الله يقع بين يدي العرش، ولشرفه سُمِّيت به الآية، وقد قال ﷺ: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»(١).

أما العرش فخلق عظيم جدا أعظم من الكرسي بكثير كما دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لذا لما نزلت آية الكرسي تعجَّب الصحابة غاية العجب، فعن الربيع بن أنس ﷺ قال: «لما نزلت: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قالوا: يا رسول الله!! هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش؟! فأنزل الله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]»(٢).

ولعظمة العرش فقد أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، ومن أوصافه في القرآن: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧]، وفي الصحيح أن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام.

والغرض من هذه الجملة أن تستشعر عظمة الله من خلال التعرف على عظمة بعض مخلوقاته، ولتتذكر أن هذا هو الهدف الذي تبنيه في النفس الجملة تلو

---

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٩.

(٢) الدر المنثور ٧/ ٢٤٦.



الجملة في هذه الآية، والتعبير بصيغة الماضي ﴿ وَسِعَ ﴾ تدل على أنه وسعهما بالفعل بعكس صيغة المضارع التي تعني إخبارا ليس بالضرورة أن يكون قد حصل.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾:

ولا يشق عليه ولا يُجهده حفظ السماوات والأرض إشارة إلى صفة القدرة وكمالها وتنزيهها عن أي ضعف أو نقصان.

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾:

وهي خاتمة الصفات في الآية، تقرر حقيقة تفرد الله سبحانه بالعلو والعظمة، فالتعبير على هذا النحو يتضمن مرة ثانية معنى القصر والحصر، فلم يقُل وهو عليّ عظيم، ليثبت الصفة مجرد إثبات. ولكنه قال: ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك! أي لا عليّ ولا عظيم غيره لأن مَن عداه مفتقر إليه، فلا علوّ له ولا عظمة.

﴿ٱلۡعَلِي﴾ في ذاته وصفاته لا يشاركه فيها أحد، ﴿ٱلۡعَلِي﴾ فوق الأشباه والأنداد، ﴿ٱلۡعَلِي﴾ علو قهر لجميع مخلوقاته، ذلّت له الرقاب، ولانت له الصعاب.

قال الماوردي:

«وفي الفرق بين العلي والعالي وجهان:

أحدهما: أن العالي هو الموجود في محل العلو وإن لم يكن مستحقا للعلو، والعلي هو المستحق للعلو.

الثاني: أن العالي هو الذي يجوز أن يُشارك، والعلي هو الذي لا يجوز أن يُشارك»[1].

﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾: وهي الاسم الذي يوجز لك آية الكرسي في كلمة واحدة، لتقطع بك الخطوة الأخيرة إلى هدفك النهائي: التعظيم، وذلك أنها تلخِّص ملامح العظمة الإلهية التي وردت في الآية، فهو سبحانه:

العظيم في وجوده: ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾.

العظيم في نفاذ حكمه وسيطرته: ﴿ ٱلْقَيُّوم ﴾.

العظيم في قدرته: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾.

العظيم في سلطانه: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

العظيم في هيبته: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾.

العظيم في علمه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

أضف إلى ذلك ما يميِّز العظمة الإلهية الحقيقية عن العظمة البشرية الزائفة أن الله:

✍ **ليس لعظمته بداية:**

على مستوى البشر يقولون: فلان هذا كان لا يملك شيئا، وهو الآن عظيم بماله، وفلان ملك عظيم وقد كان جنديا في بداية حياته، وفلان عالم جليل مع أنه كان جاهلا في مقتبل عمره، فالعظمة البشرية لها بداية، أما العظمة الإلهية فلا ابتداء لها.

✍ **ولا لعظمته حدود أو نهاية:**

فإنك إذا قلت فلان عالم عظيم فقد حصرت عظمته في ما وصل إليه من

---

(١) تفسير البحر المحيط للرازي بتصرف ٣/ ١٣.

عِلم، أو هذا مربٍّ عظيم حصرت عظمته في التربية، أو طبيب عظمته في طبه، فالعظمة البشرية تظل محصورة في جانب من جوانب التفوق المحدودة، أما العظمة الإلهية فلا حدود لها، ولا حصر لجوانبها، ولا يعرف كنهها إلا الله.

قال ذو النُّون: «من أراد التواضع فليُوَجِّه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوبُ وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطانُ نفسه؛ لأن النفوس كلَّها فقيرةٌ عند هيبته»(١).



قال إسحاق بن إبراهيم بدمشق على منبر دمشق: «من آثر الله آثره، فرحم الله عبدا استعان بنعمته على طاعته، ولم يستعن بنعمته على معصيته، فإنه لا يأتي على صاحب الجنة ساعة إلا وهو مزداد صنفا من النعيم لم يكن يعرفه، ولا يأتي على صاحب النار ساعة إلا وهو مستنكر لشيء من العذاب لم يكن يعرفه»(٢).

٣-دعاء السوق:

قال ﷺ:

«من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له له الملك، وله الحمد، يحيي ويُميت، وهو حي لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتا في الجنة»(٣).

---

(١) طبقات الصوفية ص ٢٠ – ط مكتبة الخانجي

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢/ ٤٨.

(٣) حسن: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٣١.



وهكذا كان يفعل محمد بن سيرين الذي وصفوه بقولهم: «كان بالليل بكّاء نائحا، وبالنهار بسّاما سائحا»[١]، فعن موسى بن المغيرة قال: «رأيتُ محمد بن سيرين يدخل السوق نصف النهار يُكبّر ويُسبّح ويذكر الله تعالى، فقال له رجل: يا أبا بكر!! في هذه الساعة!! قال: إنها ساعة غفلة»[٢].

وبلغ من قوة إيمانه وحياة قلبه أن قبس الناس منه وقلّدوه بعد أن أيقظهم ونبّههم. قال أبو عوانة: «رأيتُ محمد بن سيرين في السوق، فما رآه أحدٌ إلا ذكر الله تعالى»[٣].

وسر ارتباط هذا الدعاء بالثواب العظيم ومنه دخول الجنة أنه ذِكْر وسط غافلين، فالذاكر هنا سابح ضد التيار؛ لم تصرفه جيوش الغفلة عن ذكره لربه، ولم يُفلح الشيطان في ضمه لحزبه عن طريق جنده، مما يدُلُّ على رسوخ الإيمان في قلبه، وسبب آخر لفضل الذكر في الغفلة يحكيه ابن رجب الحنبلي:

«أنه أشق على النفوس، وأفضل الأعمال أشقها على النفوس، وسبب ذلك أن النفوس تتأسى بما تشاهد من أحوال أبناء الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعاتهم كثر أهل الطاعة لكثرة المقتدين بهم فسهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس، فيشق على نفوس المستيقظين طاعاتهم لقلة من يقتدون بهم فيها، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «للعامل منهم أجر خمسين منكم، إنكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون»، وقال: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وقال: «العبادة في الهرج كهجرة إليّ»»[٤].

---

(١) الحلية ٢/ ٢٦٣.

(٢) الحلية ٢/ ٢٧٢.

(٣) الحلية ٢/ ٢٧٢.

(٤) لطائف المعارف ص ١٣٨.

وقد برزت قيمة الذكر في الغفلة في مواطن كثيرة:

- منها صيام النبي ﷺ لشعبان دون غيره من الشهور لأنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان.

- ومنها ما كان في طائفة من السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة قائلين: هي ساعة غفلة.

- ومنها القيام في جوف الليل المشمول الغفلة عند أكثر الناس لقول النبي ﷺ: « **أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن** »[١].

- ومنها أن النبي ﷺ كان يريد أن يؤخر العشاء إلى نصف الليل، وعلَّل ترك ذلك لخشية أن يشقَّ على الناس، ولما خرج على أصحابه وهم ينتظرونه لصلاة العشاء قال لهم: «**إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل دين غيركم، ولولا أن يثقل على أمتي لصليتُ بهم هذه الساعة**»[٢].

- ومنها فضل العبادة في الغفلة. قال ﷺ: «**عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إليَّ**»[٣].

٤- سؤال الجنة:

قال ﷺ: «**من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة،**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن عمرو بن عبسة كما في صحيح الجامع رقم: ١١٧٣.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن عبدالله بن عمر كما في مشكاة المصابيح رقم: ٦١٦.

(٣) صحيح: رواه الطبراني عن معقل بن يسار كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٧٤.

وقد برزت قيمة الذكر في الغفلة في مواطن كثيرة:

- منها صيام النبي ﷺ لشعبان دون غيره من الشهور لأنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان.
- ومنها ما كان في طائفة من السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة قائلين: هي ساعة غفلة.
- ومنها القيام في جوف الليل المشمول الغفلة عند أكثر الناس لقول النبي ﷺ: « **أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن** »[١].
- ومنها أن النبي ﷺ كان يريد أن يؤخِّر العشاء إلى نصف الليل، وعلَّل ترك ذلك لخشية أن يشقَّ على الناس، ولما خرج على أصحابه وهم ينتظرونه لصلاة العشاء قال لهم: «**إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل دين غيركم، ولولا أن يثقل على أمتي لصليتُ بهم هذه الساعة**»[٢].
- ومنها فضل العبادة في الغفلة. قال ﷺ: «**عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إليَّ**»[٣].

٤- سؤال الجنة:

قال ﷺ: «**من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة،**

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن عمرو بن عبسة كما في صحيح الجامع رقم: ١١٧٣.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن عبدالله بن عمر كما في مشكاة المصابيح رقم: ٦١٦.

(٣) صحيح: رواه الطبراني عن معقل بن يسار كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٧٤.

ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار»[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب!! إن عبدك فلانا استجار مني فأجِرْه، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب!! إن عبدك فلانا سألني فأدخله الجنة»[٢].

وهذه إشارة إلى أن هذا العبد قالها في مجلس واحد مُلِحًّا على الله فلمح الله صدقه فأعطاه، أو أنه قالها في ثلاثة أو سبعة مجالس متفرقة مما يدل على أن الجنة لا تغادر فكره وعقله أبدا، فعلى مدار اليوم يدعو الله بها.

وكلام الجنة يُحتمل أن يكون بلسان الجنة فعلا بأن يخلق الله فيها الحياة والنطق وهو على كل شيء قدير، أو بلسان الحال وتقديره قالت خزنة الجنة من قبيل قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، والأول أولى وأرجح.

وإجابة الله لسؤال كهذا لا علاقة لها بغنى أو فقر ولا جاه أو مكانة، إنه القلب وحده الذي يطلع عليه الله وحده فيمنحه أو يحرمه. قال ﷺ:

«إن من أمتي من لو جاء أحدكم يسأله دينارا لم يعطه، ولو سأله درهما لم يعطه، ولو سأله فلسا لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»[٣].

ومن هؤلاء الذين لم يؤبه لهم حتى لم نعرف أسماءهم صحابي حكى أبو

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٧٥.

(٢) صحيح: رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٥٣.

(٣) صحيح: كما في الصحيحة رقم: ٢٦٤٣.

ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار»[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب!! إن عبدك فلانا استجار مني فأجِرْه، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب!! إن عبدك فلانا سألني فأدخله الجنة»[٢].

وهذه إشارة إلى أن هذا العبد قالها في مجلس واحد مُلِحًّا على الله فلمح الله صدقه فأعطاه، أو أنه قالها في ثلاثة أو سبعة مجالس متفرقة مما يدل على أن الجنة لا تغادر فكره وعقله أبدا، فعلى مدار اليوم يدعو الله بها.

وكلام الجنة يُحتمل أن يكون بلسان الجنة فعلا بأن يخلق الله فيها الحياة والنطق وهو على كل شيء قدير، أو بلسان الحال وتقديره قالت خزنة الجنة من قبيل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، والأول أولى وأرجح.

وإجابة الله لسؤال كهذا لا علاقة لها بغنى أو فقر ولا جاه أو مكانة، إنه القلب وحده الذي يطلع عليه الله وحده فيمنحه أو يحرمه. قال ﷺ:

« إن من أمتي من لو جاء أحدكم يسأله دينارا لم يعطه، ولو سأله درهما لم يعطه، ولو سأله فلسا لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »[٣].

ومن هؤلاء الذين لم يؤبه لهم حتى لم نعرف أسماءهم صحابي حكى أبو

(١) صحيح : رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم : ٦٢٧٥.

(٢) صحيح : رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما في صحيح الجامع رقم : ٣٦٥٣.

(٣) صحيح : كما في الصحيحة رقم : ٢٦٤٣.

هريرة ﷺ خبره فقال: قال رسول الله ﷺ لرجل: ما تقول في الصلاة؟ قال: أتشهّد ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال: «حولها ندندن»[1].

النوع الثاني: الذكر الكثير

ضع نصب عينيك أن الذكر يتنوع، وإلى ذلك أشار ابن القيم في كتابه القيم الوابل الصيب، فأخبر أن الذكر نوعان رئيسان:

أحدهما: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته والثناء عليه بهما:

وهذا أيضا نوعان:

✍ أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، وأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو: «سبحان الله عدد خلقه» فهذا أفضل من مجرد «سبحان الله» كما في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**»، وقولك «الحمد لله عدد ما خلق» أفضل من مجرد قولك «الحمد لله»، فعن أبي أمامة الباهلي ﷺ أن النبي ﷺ مرّ به وهو يُحرّك شفتيه، فقال: ماذا تقول يا أبا أمامة؟! قال: أذكر ربي. قال: «**ألا أخبرك بأفضل أو أكثر من ذكرك الليل مع النهار والنهار مع الليل؟ أن تقول: سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في السماء والأرض، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه،**

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح ابن ماجة رقم: ٧٤٢، وأبو داود عن بعض الصحابة كما في صحيح أبي داود رقم: ٧٥٧ ولا تضر جهالة الصحابي لأن الصحابة كلهم عدول.



وسبحان الله ملء كل شيء، وتقول: الحمد لله مثل ذلك»[١].

الثاني: الإخبار عن الرب تعالى بما تقتضيه أسماؤه وصفاته، وذلك نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته ونحو ذلك، وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به رسول الله ﷺ.

النوع الثاني: ذكر أمره ونهيه:

وهو أيضا نوعان:

- **الأول: ذكره بذلك إخبارا عنه:** أَمَر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ورضي كذا.
- الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه.

ومن ذكره: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده.

فهذه خمسة أنواع، والإكثار من هذه الأنواع كلها تؤدي ولابد إلى الخاتمة الذكرية الحسنة كما أخبر بذلك **معاذ بن جبل** رضي الله عنه حيث قال: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله؟! قال: **«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»**[٢].

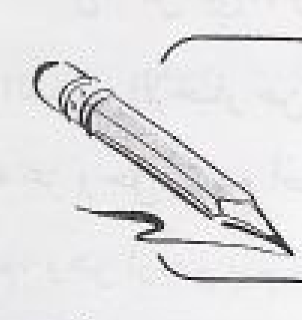
وأعلى ذكر يختم العبد به حياته وأشرفه وأثقله كلمة التوحيد: **«من كان آخر**

---

(١) صحيح: رواه النسائي عن أبي أمامة كما في الصحيحة رقم: ٢٥٧٨.

(٢) حسن صحيح: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ له والبزار إلا أنه قال أخبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله وابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٤٩٢.

كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1].



وهل كان هذا إلا ثمرة المداومة والكثرة، فداوم على الذكر وإلا حُرِمت الجنة أيها العاشق.



عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ﷺ وقد استُشهِد في غزوة بدر أنها دخلت على أبي بكر الصديق ﷺ، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر بن الخطاب فسأله فقال: هذه ابنة من هو خير مني ومنك. قال: ومن هو يا خليفة رسول الله ﷺ؟! قال: «رجل قُبِض على عهد رسول الله ﷺ تبوأ مقعده من الجنة وبقيتُ أنا وأنت!!»[2].

ثانيا: الصلاة

قال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة»[3].

وقال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[4].

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٧٩.

(٢) الإصابة في تميز الصحابة ٣/ ٥٩.

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن عبادة بن الصامت كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٤٣.

(٤) صحيح: رواه مسلم عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٣٧.

ولأن الله رحيم بنا فأمام كل عبادة شاقة أغرانا بالجنة لننتصر على ضعف نفوسنا ونقاوم ضراوة أهوائنا، لكن.. لماذا خص بالذكر البردين: الصبح والعصر؟!

لأن صلاة الفجر فيها انتزاع الجسد من لذة المنام ودفء الفراش إلى برد الوضوء ومكابدة الصلاة، وأما العصر فلأنه منتصف اليوم، وإما أن تكون فيه غارقا لأذنيك في عملك فتحتاج إلى مجاهدة تنتزع بها نفسك من هموم الدنيا لتصلي، وإما أن تكون في قيلولة لذيذة بعد العمل ملأ النعاس جفنك وشغل عينك فتطرد النوم بقيامك وتنفض الكسل.

هذا عن الفريضة فماذا عن النوافل؟

صلاة اثنتي عشرة ركعة نافلة تبني لك بيتا في الجنة، فعن **النعمان بن سالم**، عن **عمرو بن أوس**، قال: حدثني **عنبسة بن أبي سفيان** في مرضه الذي مات فيه بحديث يتسارُّ إليه [أي يُسَرُّ به من السرور لما فيه من البشارة مع سهولته] قال:

سمعت **أم حبيبة** تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُنِيَ لهُ بهن بيت في الجنة».

قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله.

وقال عنبسة: فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة.

وقال عمرو بن أوس: ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة.

قال النعمان بن سالم: ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوسٍ[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم حديث رقم: ٧٢٨، وروى الحديث النسائي حديث رقم: ١٧٧٣، وأبو داود حديث رقم: ١٠٥٩، وابن ماجة حديث رقم: ١١٣١، وأحمد حديث رقم: ٢٥٥٤٣.



لله درهم من قوم يُعدي بعضهم بعضا لفعل الخيرات بمجرد السماع والرواية، وما أروعه من تلق للتنفيذ، وتعظيم للأمر والآمر معا، وما أصدقه من عشق للجنة وعزم على ملاحقتها، وكأنهم في حلقة سباق كلهم يبغي الوصول أولا، أو عصبة تعاهدوا في ما بينهم على اجتياز أبواب الجنة يمسك بعضهم بيد بعض.

ومن النوافل: صلاة الليل وما أدراك ما نفحات الليل ونسائم السحر عند العشاق، إنها الكفارات ومن بعد الكفارات الدرجات!!

قال ﷺ:

«فيم يختصم الملأ الأعلى؟! قلت: في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات؟ فقلت: إسباغ الوضوء في السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. قال: فما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وصلاة بالليل والناس نيام»[1].

وإن رغبت في علو درجاتك فما عليك إلا أن تزيد من سجداتك، وبهذا تكون قد علوت وعلوت حتى تبلغ فوق ما تمنيت، وهل أعلى من رفقة النبي ﷺ وصحبته؟! وهو الطريق الذي أضاءه لنا أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي حين سأل النبي ﷺ مرافقته في الجنة، فقال له النبي ﷺ: أو غير ذلك؟ قال: هو ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

والمداومة شرط، لأن النفس قد تنشط بموعظة سمعتها، أو في موسم خير زارها لكنها تفتر وتنسى بمرور الأيام، لذا كانت الجنة أعظم مذكِّر وأقوى محفِّز، وفي البخاري

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٣١٦٩.

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى يوما الصلاة ثم رَقِيَ المنبر، فأشار بيده قِبَلَ قبلة المسجد، فقال: «قد أُريتُ الآن منذ صَليتُ لكم الصلاة الجَنَّةَ وَالنارَ ممثلتين في قُبُل هذا الجدار، فلم أَرَ كاليوم في الخير والشَّر، فلم أر كاليوم في الخير والشَّر».

وفي الحديث حث واضح على مداومة العمل لأن من تمثَّل الجنة والنار بين عينيه كان ذلك باعثا له على المواظبة على طاعته، وجاءت هذه الرؤيا النبوية في ارتباط مباشر مع الصلاة لتقوي وتشجع عليها وتنفي عنك الملل والكسل عنها.

ثالثا: الصيـــــام

قال رسول الله ﷺ: «من خُتِمَ له بصيام يوم دخل الجنة»[1].

ومعنى الحديث: أن مات وهو صائم أو بعد فطره من صومه دخل الجنة، وعندما يدخل الصائم الجنة يوفى هو وإخوانه أجرهم بغير حساب، لقول الله عز وجل: «الصوم لي وأنا أجزي به»، فلم يذكر الله ثوابا مُقدَّرا في الصيام كما لم يذكره في الصبر، ولهذا يقال عن شهر الصيام أنه شهر الصبر.

ووالله لولا صبر الفرس المضمَّر على قلة العلف ما قيل سبَّاق، ولما حظي بالجائزة، وكذلك المؤمن والجنة، فصيام اليوم الدنيوي وحرمان العبد الوقتي فيه من الطعام والشراب يورثه الري والشبع الكاملين الخالدين الرائعين في الجنة، وعليك أن تقارن وتختار كما فعل ذلك التابعي الثقة مسروق بن الأجدع، فعن الشعبي قال: « غُشي على مسروق في يوم صائف وهو صائم، فقالت له ابنته:

---

(١) صحيح: رواه البزار عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٢٤.



أفطر. قال: ما أردتِ بي؟! قالت: الرفق. قال: «يا بنية!! إنما أطلب الرفق لنفسي في يوم كان مقدراه خمسين ألف سنة»[١].

ولذا ربط كثير من المفسّرين آية: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ بالصيام، فالأكل هناك كان مقابل حرمان النفس منه طواعية هنا، إلا أن دافع الأكل والشرب في الجنة مختلف، فهو ليس عن جوع وعطش بل عن رغبة منهم في التلذذ والمتعة فحسب.

رابعًا: الإنفاق في سبيل الله

والعلاقة بين الجنة والإنفاق في سبيل الله واضحة جدا، لأن الله اشترى من كل واحد منا نفسه وماله، وجعل ثمنهما الجنة، فالمنفق في سبيل الله وجد في الجنة ما قدّم، وتعوَّض فيها ما أنفق، وخسر ما خلَّف!!

عوتِب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فضرب لنا مثلا واقعيا جميلا أقنع به المُمسكين وأغرى به البخلاء الماديين فقال: «لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار إلى دار أكان يُبقي في الأولى شيئا، لا والله»[٢].

لكنه والله ليس دخول الجنة فحسب، بل تنافس كل حجبة الجنة على نيل شرف استقبالك، كلهم يريده أن تدخل من بابه، ففي الحديث:

« ما من مسلم يُنفِق من كل مال له زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده»[٣].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٦١٣.

(٢) البصائر والذخائر ص ٤٥٣.

(٣) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن حبان كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٧٤.



والمراد بالزوجين إنفاق شيئين من أي صنف كان من أصناف المال كما قال الحسن في معنى زوجين: «درهمين، دينارين، عبدين، من كل شيء اثنين»[(١)].

وطبّق الصحابة الوصية وتنافسوا على الهدية، فقد رُوي عن صعصعة قال: «رأيت أبا ذر بالربذة وهو يسوق بعيرا له عليه مزادتان قائلا: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ما من مسلم ينفق زوجين من ماله في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده**»، قال: إن كان صاحب خيل ففرسين، وإن كان صاحب إبل فبعيرين، وإن كان صاحب بقر فبقرتين، حتى عدَّ أصناف المال»[(٢)].

كلنا يحب الجنة وكلنا يطلب القُرب والوصال، لكن أينا دفع المهر؟! وكم من أناس صدق فيهم تعبير الشاعر:

ومن الناس من يحبك حُبًّا ... ظاهر الحُب ليس بالتقصير

فإذا ما سألته عُشْر فلس ... ألحقَ الحُبَّ باللطيف الخبير

ومن ادعى حُبَّ الجنة مِن غير إنفاقِ ماله فهو كاذب، نعم.. قد يكون المؤمن بخيلا لكن من تعلق قلبه بالفردوس ووضع الجنة نصب عينه، فهذا يهتز عند المكارم كالغصن الرطيب لينفق ما قدّامه ووراءه في سبيل الفوز بمحبوبته والظفر بغايته، والبخلاء يمتنعون لأن لغة العشاق لا يفهمها باردو الإحساس قليلو الذوق.

ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله!! قال علي بن أبي طالب ﷺ:

« إن الجنة لتُساق إلى من سعى لأخيه المؤمن في قضاء حوائجه ليصلح شأنه على يديه، فاستبقوا النعم بذلك، فإن الله الكريم يسأل الرجل عن جاهه وما بذله

---

(١) التمهيد ٧/ ١٨٦.

(٢) عمدة القاري ١٠/ ٢٦٤.



كما يسأله عن ماله فيم أنفقه»[1].



وعندما يعاين العبد ما اشتراه في الجنة يتحسّر أن لم يبذل في دنياه كل ما لديه، حتى يعود كل مفروح به في الدنيا محزونا عليه في الآخرة، وترجع اللذة مصدرا للأسف، وبالعكس؛ بقدر العناء يطيب الغناء.

يستبدلون في الجنة!!

✍ **أسماء بنت أبي بكر**: تشق نطاقها في الهجرة لتحمل فيه الزاد، وهو مجرد قطعة قماش، فيبشّرها النبي ﷺ بالعوض في الجنة قائلا: «**أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة!**».

✍ **حكيم بن حزام** ﷺ: كان بيده حين أسلم دار الندوة، فباعها بمائة ألف دينار، وفي رواية بأربعين ألف، فقال له ابن الزبير: بعت مكرمة قريش، فقال له حكيم: «ابن أخي!! ذهبت المكارم فلا كرم إلا التقوى، يا ابن أخي!! إني اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، ولأشترين بها دارا في الجنة أشهدك أني قد جعلتها في سبيل الله»[2].

✍ **عثمان بن عفان** ﷺ: لما قدم المهاجرون المدينة احتاجوا إلى الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع منها القربة بمُد، فقال رسول الله ﷺ: «**تبيعها بعين في الجنة؟!**»، فقال: ليس لي يا رسول

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١١٧.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٦٩ بتصرف.



الله عين غيرها، لا أستطيع ذلك، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي مثل الذي جعلت له عينا في الجنة إن اشتريتها؟! قال: «نعم». قال: «قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين»[1].

ويذوق عثمان حلاوة الأجر فيطمع في المزيد ولا أروع، وذلك حين يضيق المسجد بالمسلمين، ويحث النبي ﷺ أصحابه على شراء بقعة بجوار المسجد تزيد رقعته معلنا عن عقد المبادلة المغري: «**من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة؟**»[2]، فاشتراها عثمان رضي الله عنه من صلب ماله.

✍ **عبد الله بن جحش** رضي الله عنه: لما خرج بنو جحش من دارهم مهاجرين عدا عليها **أبو سفيان بن حرب** فباعها، فلما بلغ بني جحش ما صنع **أبو سفيان** بدارهم ذكر ذلك **عبد الله بن جحش** لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **ألا ترضى يا عبدالله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها في الجنة؟** قال: بلى. قال: «**فذلك لك**»[3].

✍ **أبو الدحداح** رضي الله عنه: قال عنه ﷺ: «**كم من عذق مُعلَّق لأبي الدحداح في الجنة**»[4]، وفي رواية أن الرسول ﷺ كرَّر مرارا: «**كم من عذق دوَّاح لأبي الدحداح في الجنة**»[5].

---

(١) تاريخ الإسلام ١/ ٤٥١.

(٢) حسن: رواه الترمذي كما في صحيح الترمذي رقم: ٢٩٢١.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨.

(٤) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن سمرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥٧٤، والعِذق بكسر العين هو الغصن من النخلة، والعَذق بفتح العين هو النخلة بأكملها.

(٥) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٩٦٤، ودوَّاح: العظيم الشديد العلو.



والقصة كما أوردها البخاري:

حصلت خصومة بين يتيم وبين أبي لبابة ﵁ على نخلة حيث كان هناك بستان لهذا الصحابي وبستان آخر لليتيم وبينهما نخلة، فتنازعا على النخلة، فذهب اليتيم فاشتكى أبا لبابة إلى النبي ﷺ، فخرج النبي ﷺ وعاين البساتين تواضعا منه ﷺ وتحريا للعدل، فإذا بالنخلة في بستان الصحابي فحكم بها لأبي لبابة، فذرفت دموع اليتيم على خديه، فأراد النبي ﷺ أن يجبر كسر قلبه، فقال لأبي لبابة: أتعطيه هذه النخلة ولك بها عذق في الجنة؟! لكن الصحابي كان في وقت غضب إذ كيف يشكوه والحق له فأبى ذلك، وكان في المجلس رجل يتحيَّن الفرص الإيمانية وهو أبو الدحداح ﵁، فقال: يا رسول الله!! إن اشتريت هذه النخلة وأعطيتها هذا اليتيم.. ألي هذا العذق في الجنة؟! قال: لك ذلك، فلحق بأبي لبابة وقال: أتبيعني هذه النخلة ببستاني كله؟ فباعه النخلة ببستانه كله، ثم ذهب إلى أهله ونادى فيهم: يا أم الدحداح ويا أبناء أبي الدحداح!! قد بعناها من الله فاخرجوا منها، فقالت امرأته على الفور: ربح البيع، فخرجوا من البستان ومع أطفاله بعض الرطب، فقام يأخذه ويرميه فيها ويقول: قد بعناها من الله جل وعلا، لا نخرج منها بشيء!!

خامسا: الجهاد في سبيل الله



وهو أقصر الطرق إلى الجنة، فالشهادة: بوابة العبور نحو الخلود، والجهاد طريق الشهادة، فبقفزة واحدة وفي خطوة تدخلها، خطوة واحدة فحسب!!

وحتى لو لم تكن شهادة وكان قتال يوم أو بعض يوم فأيضا تدخل الجنة.



قال ﷺ: «**من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة**»(١).

وفُواق الناقة هو ما بين الحلبتين من الوقت، لأن الناقة تُحلب ثم تترك تُرضِع فصيلها لتُدِرَّ اللبن ثم تُحلب ثانية، أو الفواق هو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع وأنت تحلب، وكلاهما بمعنى أن أي وقت تجاهده في سبيل الله كفيل بإدخالك الجنة مهما قصر، وليس هذا الفضل لعبادة أخرى إلا الجهاد.

ولعل هذا لأن الجهاد يعني بلوغ القمة في حب الله، «فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب، وأيضا فالجهاد في سبيل الله دعاء للمعرضين عن الله إلى الرجوع إليه بالسيف والسنان بعد دعائهم إليه بالحجة والبرهان، فالمحب لله يُحِب اجتلاب الخلق كلهم إلى الله، فمن لم يجد الدعوة باللين والرفق احتاج بالدعوة إلى الشدة والعنف»(٢).

لكن الجهاد درجات، ولكل درجة من الدرجات ما يكافئها عند الله من الثوابات، لذا قال النبي ﷺ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»(٣).

وفي الحديث الحض على الشجاعة والإقدام ومقاربة العدو والالتحام العنيف معه، ومن فوق هذه الدرجة أيضا درجة أخرى أعلى هي درجة الشهادة، لكن الشهداء كذلك ليسوا في منزلة واحدة بل يتنافسون فيتمايزون؟!

قال رسول الله ﷺ:

«**أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبَّطون في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، فإذا**

---

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٧٩.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٣٦٢.

(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٣٠.

ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه »[1].

ومعنى يتلبَّطون: يَتمرَّغون ويضْطجِعون، وما أحلاه والله من ثواب.

وهكذا ترى النبي ﷺ يرفع همم الصحابة درجة درجة، فمن قتال ساعة إلى التحام شديد مع عدو إلى شهادة إلى أعلى درجات الشهادة.

عمرو أم هشام؟!

ولعل ممن نال أعلى درجات الشهادة **هشام بن العاص** أخو الصحابي الجليل **عمرو بن العاص** ﷺ.

سأل نفر **عمرو بن العاص** ﷺ: ذكرناك وأخاك هشام فقلنا هشام أفضل أو **عمرو**؟! فقال: على الخبير سقطتم، سأُحدِّثكم عن ذاك، إني شهدت أنا وهشام اليرموك فبات وبت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة، فلما أصبحنا رُزِقها وحُرِمتُها، فهل في ذلك ما يبين لكم فضله عليّ؟

لكن كيف استشهد؟!

لما كان يوم أجنادين رأى هشام من المسلمين بعض النكوص عن عدوهم، فألقى المغفر عن وجهه، وجعل يتقدم في نحر العدو وهو يصيح: يا معشر المسلمين إليّ إليّ .. **أنا هشام بن العاص**.. أمِن الجنة تفرون؟!

فكرّ عليه الروم فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه، ولقد وطئته الخيل حتى كرّ عليه أخوه **عمرو** فجمع لحمه فدفنه[2].

ومثله في صدق الطلب ووضوح الهدف **عكرمة بن أبي جهل**، عوتب في

---

(١) صحيح : رواه أحمد والطبراني عن نعيم بن همار كما في صحيح الجامع رقم : ١١٠٧.
(٢) خبر هشام في الطبقات الكبرى ٤/ ١٩٣ بتصرف.



شدة إقدامه في معركة حمص أثناء فتوح الشام، وقيل له: اتق الله وارفق بنفسك، فقال:

«يا قوم!! أنا كنت أقاتل عن الأصنام، فكيف اليوم وأنا أقاتل في طاعة الملك العلام، وإني أرى الحور متشوقات إليَّ، ولو بدت واحدة منهن لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس والقمر، ولقد صدقنا رسول الله ﷺ فيما وعدنا»، ثم سلَّ سيفه وغاص في الروم، ولم يزدد إلا إقداما وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله، فبينما هو كذلك إذ حمل عليه البطريق صاحب حمص وبيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزَّها في كفِّه، وضربه بها فوقعت في قلبه، ومرقت من ظهره، فانجدل صريعا، وعجَّل الله تعالى بروحه إلى الجنة»[1].

حب من لون آخر!!

ولأن النبي ﷺ كان يحب أصحابه ويرغب في نيلهم أعلى الدرجات وفي أسرع الأوقات كان حثه المتواصل لهم على الموت والاستشهاد مع كل غارة جهادية، وذلك بتذكيرهم بما ينتظرهم من حسن الجزاء وعظيم الثواب، ففي بدر خرج رسول الله ﷺ إلى الناس يحرِّضهم وقال: «**والذي نفسي بيده!! لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**»، فقال عمير ابن الحمام ﷺ وفي يده تمراتٌ يأكلها: بخٍ بخ!! أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء!! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتِل.

وفي خيبر.. لما سمع النبي ﷺ عامر بن الأكوع ﷺ يُنشد وهو يسوق الركاب بينما هم في الطريق قال رسول الله ﷺ: من هذا؟ قالوا: عامر يا رسول الله، فقال:

---

(١) فتوح الشام: ١/ ١١٧.

غفر لك ربك -وفي رواية: رحمه الله - وما خصَّ النبي ﷺ أحدا بهما من أصحابه إلا استشهد!! فلما سمع ذلك عمر بن الخطاب ﷺ قال: وجبت يا رسول الله!! هلا متَّعتنا بعامر!!

سيد الشهداء نبي!!

وبلغ النبي ﷺ القمة في هذا السباق الاستشهادي نحو الجنة كما سبق وأن بلغ القمة في كل شيء، فبعد أن أدى رسالته ورأى ثمرة غرسه وبركته، أراد الله له أن يجمع بين أسمى المقامات ويضم مع مقام النبوة مقام الشهادة، فقد قال النبي ﷺ في مرض موته يخاطب زوجته: «**يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[1]. مشيرا إلى أثر الشاة المسمومة التي قدمتها له اليهودية زينب بنت الحارث.

وبذلك يكتمل نص الرسالة المفقود والمبعوث إلى أمته:

ها هو رسولكم العظيم يموت شهيدا.

فقوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم.

وما تصنعون بالحياة بعده؟!

آه من غيرة النساء!!

ولأن شرف الجهاد قد لا تدركه عامة النساء فإن شاريات الجنة تأكل الغيرة قلوبهن فيُبدعن ويتألقن!!

(١) صحيح: رواه البخاري عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٢٩.

حضَّ منصور بن عمار الناس على الغزو في فناء دار الرشيد بالرّقة، فطرحت امرأةٌ من حاشيته صرّةً تصحبها رقعةٌ قرئ فيها:

رأيتك يا ابن عمّار تحضُّ على الجهاد، وقد ألقيت إليك ذؤابتي، فلست أملك والله غيرها، فبالله إلا جعلتها قيد فارس غازٍ في سبيل الله تعالى، فعسى الله جل جلاله يرحمني بذلك، فارتجَّ المجلس بالبكاء، وضجَّ بالنّحيب [١].

ولماذا الغرق في الماضي؛ والحاضر أزهى ونماذجه أروع وتضحياته أوضح، فهذه **ريم صالح الرياشي** صاحبة الواحد وعشرين ربيعا والأم لطفلين ومن أسرة معروفة بالثراء، ومع ذلك ضحت بنفسها في سبيل الله، وآثرت جنة الآخرة على جنة الدنيا، وقدَّمت حب الله ورسوله على حب الولد والزوج والناس أجمعين قائلة: «إنني أحب أبنائي حبا كبيرا، لكن حب الله ورسوله أكبر من ذلك كله»، فتقدمت كالأسد الهصور يوم الأربعاء الرابع عشر من يناير لعام ٢٠٠٤ من الميلاد حبا لدينها وانتصارا لعقيدتها مفجِّرة نفسها وسط جمع من جنود اليهود الغاصبين ضاربة بذلك ألوانا مختلفة من التضحية بالمال والزوج والأبناء والحياة.



دعا أعرابي عند الملتزم فقال:

«اللهم إن لك علي حقوقا فتصدّق بها علي، وللناس تبعات فتحملها عني، وقد أوجبتَ لكل ضيف قِرى، وأنا ضيفك فاجعل قِراي الليلة الجنة» [٢].

---

(١) البصائر والذخائر ٨/ ٤٢٤.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٤٢.

سادسا: البيت المسلم

١- الوالد

قال ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة»(١).

قال البيضاوي: «أي خير الأبواب وأعلاها، والمعنى أن أحسن ما يُتوسل به إلى دخول الجنة، ويُتوصل به إلى الوصول إليها مطاوعة الوالد ورعاية جانبه»(٢).

قال شُرّاح الحديث: والمراد بالوالد الجنس فيشمل الوالد والوالدة، أو إذا كان حكم الوالد هذا فحكم الوالدة أقوى وأولى.

ولاستحالة أن تستطيع أداء حق الوالد عليك فقد ضرب النبي ﷺ هذا المثل الجميل فقال ﷺ: «**لا يجزي ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه**»(٣).

ومعنى الحديث: لا يستطيع الولد أن يكافئ والده إلا بأن يُخلّصه من الرّق بشرائه، وهذا الشراء إيجاد جديد له لأن الرقيق كالمعدوم لاستحقاق غيره منافعه، فتسببه في عتقه وتخليصه من ذلك كأنه إيجاد له من العدم، لأن والدك كان سبب إيجادك المادي، ولكي تؤدي حقه عليك فلابد أن تكون سببا في إيجاده المعنوي وذلك بعتقه، وهذا مستحيل، وكذلك: مجازاة الوالد على فضله مستحيلة ولا تُتصوّر، فصار هذا كقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ** ﴾ [الأعراف: ٤٠].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٤٥.

(٢) فيض القدير ٦/ ٣٧١.

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأبو داود والترمذي كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٢٢.



ولفضل الوالد العظيم وقدره النبيل قيل لمجاهد: ينادي المنادي بالصلاة، ويناديني رسول أبي؟! قال: «أجِب أباك»، وعن ابن المنكدر قال: «إذا دعاك أبوك وأنت تصلي فأجب»[1].

ومن حق الوالد على ولده ما رواه أبو غسان الضبي أنه خرج يمشي بظهر الحرة وأبوه يمشي خلفه، فلحقه أبو هريرة ﷺ، فقال: من هذا الذي يمشي خلفك؟ قلت: أبي. قال: «أخطأت الحق ولم توافق السنة، لا تمش بين يدي أبيك، ولكن امشِ خلفه أو عن يمينه، ولا تدع أحدا يقطع بينك وبينه، ولا تأخذ عِرقًا (أي: لحما مختلطا بعظم) نظر إليه أبوك، فلعله قد اشتهاه، ولا تُحِدَّ النظر إلى أبيك، ولا تقعد حتى يقعد، ولا تنم حتى ينام»[2].

٢- الوالدة

عن معاوية بن جاهمة السلمي ﷺ قال:

«أتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله!! إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك!! أحية أمك؟! قلت: نعم. قال: ارجع فبِرَّها، ثم أتيتُه من الجانب الآخر، فقلت: يا رسول الله!! إني كنتُ أردتُ الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك!! أحية أمك؟! قلت: نعم يا رسول الله. قال: فارجع إليها فبِرَّها، ثم أتيتُه من أمامه فقلت: يا رسول الله!! إني كنتُ أردتُ الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة. قال: ويحك أحية أمك؟! قلت: نعم يا رسول الله. قال: ويحك!! الزم

(١) بر الوالدين ١/ ٣ - ابن الجوزي.
(٢) السابق ١/ ٢-٣ - ابن الجوزي.



رجلها فثَمَّ الجنة »[١].

يا أنت.. تطلب الجنة بعملك وهي تحت قدم أمك، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج، وكابدت عند الوضع ما يذيب المُهَجْ، وأرضعتك من ثديها لبنا، وأطارت لأجلك وسنا، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذا، فإن أصابك مرض أو شكاية أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت مالها للطبيب، ولو خُيِّرت بين حياتك وموتها لطلبت حياتك بأعلى صوتها، وكم عاملتها بسوء الخلق مرارا فدعت لك بالتوفيق سرا وجهارا، فلما احتاجت إليك عند الكبر جعلتها من أهون الأشياء عليك، وقدمت عليها زوجك وأولادك بالإحسان، وقابلت أفضالها بالنسيان، وصعب عليك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، فانتبِهِ وإلا فستُعاقَب في دنياك بعقوق البنين، وفي أخراك بالبعد عن رب العالمين[٢].

كان من فقه ابن عباس أن أتاه رجل، فقال: أني خطبتُ امرأة فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبَّت أن تنكحه، فغِرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا. قال: تُبْ إلى الله وتقرب إليه ما استطعت، فقال رجل لابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ قال: «إني لا أعلم عملا أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة »[٣].

وقد قدَّم الحسن البصري بِرَّها على تعلم القرآن، مرسيا بذلك نموذجا لما استحدث العلماء تسميته باسم فقه الأولويات، وذلك لما أتاه هشام بن حسان

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة كما في صحيح ابن ماجة رقم : ٢٢٤١.

(٢) الكبائر بتصرف.

(٣) بر الوالدين ١ / ٣.

قائلا: إني أتعلم القرآن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: «تعشَّ العَشاء مع أمك تُقِرُّ به عينها، أحب إليَّ من حجة تحجها تطوعاً»[1].

وقد قدَّم النبي ﷺ برها على بر الأب، وبذا التزم السلف وبه أخبروا، فهذا الحسن يقسِّم البر ثلاثة أقسام ثم يقول: «للوالدة الثلثان من البر، وللوالد الثلث».

وسئل في رجل حلف عليه أبوه بكذا، وحلفت عليه أمه بكذا أي بخلافه؟ فقال: «يطيع أمه»[2].

وتابعه في مذهبه مكحول حين قال: «إذا دعتك والدتك وأنت في الصلاة فأجبها، وإن دعاك أبوك فلا تُجبه حتى تفرغ»[3].

وكيف لا والجنة مقتربة من البار بأمه أدنى ما تكون منه، وهو ما رآه رسول الله واقعا أمام عينيه ثم حكاه لنا لكي يجتمع مع الوعد باللسان الإثبات بالواقع والمشاهدة والعيان، فقال ﷺ: «**دخلتُ الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البِرُّ، كذلكم البِرُّ**»[4]، وكان من أبر الناس بأمه.

ولذا حقَّ لإياس بن معاوية أن يبكي لموت أمه مبينا السبب عالما بقدر الكارثة:

«كان لي بابان مفتوحان من الجنة، فأُغلِق أحدهما»[5].

---

(١) بر الوالدين ١/ ٤.

(٢) خبر الحسن في بر الوالدين ١/ ٤.

(٣) بر الوالدين ١/ ٣.

(٤) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٧١.

(٥) البداية والنهاية ٩/ ٣٣٨.

٣- البنات

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن وجبت له الجنة ألبتة، قيل: يا رسول الله!! فإن كانتا اثنتين؟! قال: وإن كانتا اثنتين. قال: فرأى بعض القوم أن لو قال واحدة لقال واحدة»[(١)].

لكن هل المقصود بالإيواء والرحمة والكفالة مجرد الإطعام والإشراب الذي تفعله كل الخلائق رحمة بصغارها حتى الدواب؟!

كلا والله.. بل مقصد الحديث إضافة إلى الكفالة المادية: الكفالة الإيمانية بالتقوى وتنشئة البنات على الدين والالتزام، وهو مشروع رائع لدخول الجنة لكنه صعب في ظل إعلام يريد لبناتنا أن يكنَّ جامعات فساد وقِبْلة شهوات، خاصة وهن يملكن بأيديهن مفاتيح إفساد الشباب وصرفهن عن الغايات السامية إلى الشهوات المُحرَّمة الوضيعة، فتكون تربية البنت الصالحة بمثابة تربية جيل بأكمله يقتدي بها من يراها من أخواتها، ويتعلم منها الشباب أصول الحياء وطهارة السلوك والعفاف الراقي، ويُبطَل بذلك كيد الكائدين ومؤامرات اليهود المتربصين.

٤- الزوج

قال ﷺ لعمة حُصَيْن بن مُحْصِن ﷺ: «انظري أين أنت منه؟! فإنه جنتك ونارك»[(٢)].

---

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد بإسناد جيد والبزار والطبراني في الأوسط كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٩٧٥.

(٢) حسن: رواه ابن سعد والطبراني كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٠٩.



أي أن زوجك هو سبب لدخولك الجنة برضاه عنك، وسبب لدخولك النار إن سخط عليك، فأحسني عشرته ولا تخالفي أمره.

بل رسَّخ النبي ﷺ مفهوم هضم النفس والتعالي على الانتصار لها وكبح محاولات كسب معركة الخلاف مع الزوج حين رغَّب كل زوجة في دخول الجنة بقوله: **«ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود العؤود التي إذا ظُلِمت قالت: هذه يدي في يدك، لا أذوق غمضا حتى ترضى»**[1].

وهو أمر شاق على نفس كل امرأة لكن لا شي يا أختاه يصعب أمام الجنة، ولا عقبة تصمد أمام إغراء نعيمها.

وقد تقف مخالفة الزوجة زوجها وعصيان أمره عقبة في طريقها للجنة، وعندها يحق لكل كريم أن يُسلي نفسه بزوجات من الحور يعشقنه وينافحن عنه وهو لا زال بعدُ في دار الدنيا!! قال ﷺ:

«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله!! فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[2].



سئل عمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال: «ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار»[3].

(١) حسن: رواه الدارقطني في الأفراد والطبراني عن كعب بن عجرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٠٤.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٩٢.

(٣) عيون الأخبار ٢٠١/١.



سابعا: حسن الخلق

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق»[1].

أخي العاشق.. كلما كمل إيمانك كلما علا في الجنة مقامك، ولا يكون إيمانك كاملا إلا بالخلق الحسن؛ فأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا.

ومن جوامع كلم القرآن في حسن الخلق ما جمع الله عز وجل من المعاني الجمّة في الألفاظ القليلة في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

حتى قال جعفر بن محمد: «في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها».

وحقيقة الأخذ: تناول الشيء للانتفاع به، واستُعمِل هنا مجازا للتعبير عن اختيار فعل من بين أفعال عديدة لو شاء العبد لاختارها، فمعنى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: عَامِل به ولا تتلبس بضده، والعفو: الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته به، وهو مأخوذ من قولهم: عفت الريح آثار الأقدام أي محتها.

وقد عمّت الآية صور العفو كلها، لأن التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق.

---

(١) حسن: رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه والبيهقي في الزهد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٦٤٢.

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾: والعُرف اسم مرادف للمعروف من الأعمال، والأمر يشمل النهي عن الضد، فإن الأمر بالمعروف نهي عن المنكر، فالاكتفاء بذكر الأمر بالمعروف دون ذكر النهي عن المنكر من أبلغ الايجاز.

والتعريف في ﴿ بِٱلْعُرْفِ ﴾ كالتعريف في ﴿ٱلْعَفْوَ ﴾ يفيد الاستغراق، وحذف الله المأمور بالعرف ليفيد عموم المأمورين.

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾:

والإعراض: إدارة الوجه عن النظر للشيء، فإن الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء الذي أمامه، وهي استعارة مفادها عدم ردّ الإساءة بمثلها، حيث شبّه عدم المؤاخذة على الإساءة بعدم الالتفات لكونه لا يترتب عليه أثر العلم به؛ لأن العلم بالشيء يترتب عليه المؤاخذة عليه ولابد، وهي دلالة على نفسية غالية وهمة عالية لا تستفزها الصغائر ولا تنال منها الإساءات.

والمراد بالجاهلين: السفهاء كلهم لأن التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الشرك بالله.

وأراد الحسن توضيح الآية وشرحها بكلمات أكثر فقال: « حقيقة حسن الخلق: بذل المعروف، وكفّ الأذى، وطلاقة الوجه »[1].

لكن أبا حامد الغزالي خالفه الرأي في مفهوم حسن الخلق وارتباطه بكف الأذى حين قال: «وليس حسن الخلق كف الأذى، بل احتمال الأذى»[2].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٧٨.
(٢) الإحياء ١/ ٢٧٣.



ثم زاد عليها يوسف بن أسباط علامات وأمارات لحسن الخلق تفصيلا وإبانة حتى عدَّ منها عشرة في قوله:

«علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه»(1).

السوق والسوء!!

وأكثر ما تسوء أخلاق الناس عند التعامل بالدينار والدرهم، ولهذا كانت كلمتا السوق والسوء متآخيتين لفظا ومعنى، ولذا وعد رسول الله ﷺ من حسُنت أخلاقه في السوق بدخول الجنة فقال: «**أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا وقاضيا ومقتضيا**»(2).

قال ابن حجر:

«وفيه الحض على السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»(3).

وفي هذا إشارة: إذا كان هذا الغفران في مجرد المساهلة، فما بالك بمن تصدق وأطعم الجياع وكسا العراة؟

وحسن الخلق منه ما هو غريزة، ومنه ما يُكتسب بالتخلق والاقتداء بغيره،

---

(1) الإحياء ٣/ ٧١.

(2) حسن: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن عثمان كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٣.

(3) فتح الباري ٤/ ٣٠٧.

وعشاق الجنة اليوم لا يتأخرون عن بضاعة هي أكثر ما يُدخِل الناس الجنة، فيتخلَّقون بالخلق الكريم والسلوك القويم.



كان أبو مسلم الخولاني يقول: «لو رأيت الجنة عيانا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانا ما كان عندي مستزاد»[١].

وأخيرا.. شهادة الناس

قال رسول الله ﷺ:

« طوبى لمن رآني وآمن بي مرة، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات »[٢].

وكان سفيان بن عيينة يقول: « تفسير هذا الحديث وما كان مثله في كتاب الله، وهو قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٠١] »[٣].

وتتكرر البشارة مرة ثانية في قوله ﷺ: «**يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار** ». **قالوا: بم ذاك يا رسول الله؟! قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض**»[٤].

وصورة الثناء الحسن أو الثناء السيئ وطريقة تحققهما وردت بالتفصيل في

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٣٨.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة وأحمد عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٢٤.

(٣) الاستذكار ١/ ١٨٨.

(٤) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه كما في صحيح ابن ماجة رقم: ٣٤٠٠.



حديث النبي ﷺ: «أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيرا وهو يسمع، وأهل النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شرا وهو يسمع»[١].

قال المناوي: «فإن قلت: ما فائدة قوله وهو يسمع بعد قوله ملأ الله أذنيه؟ قلت: قد يُقال فائدته الإيمان إلى أن ما اتصف به من الخير والشر بلغ من الاشتهار مبلغا عظيما، بحيث صار لا يتوجه إلى محل ويجلس بمكان إلا ويسمع الناس يصفونه بذلك، فلم تمتلئ أذنيه من سماعه ذلك بالواسطة والإبلاغ بل بالسماع المستفيض المتواتر»[٢].

وهذا الثناء المتواتر يدل على صفاء السريرة وطيب الباطن ولابد، والأمر كما أخبر النبي ﷺ: «إنما الأعمال كالوعاء إذا طاب أسفله طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه»[٣].

وأسفل ما في الوعاء غير مرئي وأعلاه مشاهد، والقصد بالتشبيه أن الظاهر عنوان الباطن، ومن طابت سريرته طابت علانيته، فإذا اقترن العمل الصالح الظاهر بالإخلاص الباطن أشرقت أنوار الطاعات على الجوارح فأنارت للضالين الطريق، بعكس ما إذا اقترن برياء وإعجاب وكبر وخيلاء، فإن ذلك يُكسبه ظلمة تجعل الناس يفرون منه.

---

(١) صحيح: كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٧٤٠.

(٢) فيض القدير ٣/ ٦٥.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة عن معاوية كما في صحيح الجامع رقم: ٢٣٢٠.



الفصل الخامس

وآخرون بايعوا

إخوانـــي. خرج أبونا من الجنة بذنب واحد، ونحن نريد دخولها بكل هذه الذنوب؟! وهي خلاصة موعظة أبي النضر سالم بن أبي أمية وهو من تابعي المدينة، وكان يفِد على عمر بن عبد العزيز ويعظه، فقال له يوما:

«يا أمير المؤمنين!! عبد خلَقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، عصاه مرة واحدة فأخرجه من الجنة بتلك الخطيئة الواحدة، وأنا وأنت نعصي الله كل يوم مرارا، ونتمنى على الله الجنة!»[1].

ومعلوم أن كل من مات على التوحيد يدخل الجنة، قد يدخل النار فترة لكن لا يخلد فيها ما دام في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخُل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، فالأحاديث التي تحوي قوله: «لا يدخل الجنة» معناها إذن:

أ- لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه الله، وقد يتكرم الله بأن لا يجازيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد يكون ذلك بسبب أو بغير سبب، ووعيد الله لعصاة المسلمين بالخيار إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم.

ب- أو لا يدخلها مع المتقين أول وهلة، بل يتأخر.

ج- أو هو محمول على من استحل الذنب.

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/ ١٢١.

البائع الأول: المتبرجات

قال ﷺ: «وشر نسائكم المتبرجات المتخيِّلات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»[1].

وعدة أسباب تقف وراء هذه العقوبة الشديدة والحرمان المريع:

الأول: السيئات المضاعفة التي تجنيها المتبرجة من وراء كل مرة تخرج فيها وكل عين تقع عليها.

وسبب ثاني: هو إصرارها على ذنبها وتكراره مع عدم التوبة منه.

والسبب الثالث: الاستصغار حيث تستصغر المتبرجة ذنبها: تعتاده في البداية، ثم تستصغره في منتصف الطريق، ثم يتدهور إيمانها في النهاية لينسلخ من قلبها كل استقباح للذنب، وتعود تفاخر بزينتها وتبرجها.

ورابع: إثم الدعوة الصامتة إلى تبرجها، خاصة إذا كانت من القدوات اللاتي تؤثر في غيرها من النساء، لتبوء بإثم تحريك رغبة الشر في النفوس وترغيب غيرها في التبرج وحملهن عليه.

وخامس: مجاهرة صاحبته به، وشتان ما بين ذنوب السر وذنوب العلانية عند الله، لأن ستر الله على العبد في الدنيا فيه رجاء عدم فضحه به في الآخرة، وستر الله نعمة عظمى؛ يستر سبحانه القبيح ويُظهر الجميل، والمجاهرة كفر بنعمة الستر وركلٌ لها، ولذا صحّ عن

---

(١) صحيح : كما في السلسلة الصحيحة رقم : ١٨٤٩ ، وله شاهد مرسل قوي ، وهو كناية عن قلة من يدخل الجنة من النساء لأن هذا الوصف في الغربان قليل.

النبي ﷺ أن قال بعد رجم ماعز الأسلمي لزناه:

«اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عز وجل عنها، فمن ألمّ فليستتر بستر الله عز وجل»[1].

ومن هنا قال ابن القيم: «المستخفي بما يرتكبه أقل إثما من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثما من المخبر المُحدِّث للناس به؛ فهذا بعيد من عافية الله تعالى وعفوه»[2].

البائع الثاني: جار السوء

قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[3].

البوائق هي جمع بائقة وهي الشرور، وفي المثل الذي يُضرب لمعاناة جار السوء قول من باع داره: بعتُ جاري ولم أبع داري، ولذا قال الشاعر:

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ... ولم يعلموا جارا هناك ينغِّص

فقلت لهم كفوا الملام فإنما ... بجيرتها تغلو الديار وترخص

ولهذا استعاذ النبي ﷺ من جار السوء وعلَّمنا أن نستعيذ منه قائلا:

«اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول»[4].

وفي العصر الحديث ساءت الأخلاق وضاقت النفوس وزادت الجهالات وعمَّت العداوات، فأين هذا من عصور مضت، حيث «كان الرجل فيما مضى إذا

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٦٦٣.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٤٧.

(٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٧٥.

(٤) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة .كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٩٠.



أراد شين جاره أو صاحبه طلب حاجته إلى غيره!!»[(١)].

وهؤلاء كان أحدهم يرعى الجار ولو جار، ويُكرِم الحَميم ولو جرَّعه الحميم، ويستقِلُّ عطاءه الجزيل إذا قُدِّم للنَّزيل، ويغمر الزميل بالجميل، ويُنزِل سميره منزلة أميره، فليت خُطَّاب الجنة اليوم يسلكون نفس الطريق.



البائع الثالث: مريض القلب

عن سلمان الفارسي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني، والإمام الكذاب، والعائل المزهو»[(٢)].

وقد روى أبو هريرة ﷺ حديثا آخر خصَّ هؤلاء الثلاثة ليس فقط بالحرمان من دخول الجنة على هول هذه الكارثة، وإنما بعقوبات أخرى متتالية، فقال مُخبرا عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يُزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[(٣)].

والسبب في فداحة جريمة هؤلاء ما شرحه القاضي عياض:

«سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يُعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعٍ متعدية أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى وقصد معصيته لا لحاجةٍ غيرها.

(١) الجليس الناصح والأنيس الصالح ١/ ٢٢ والقول لعمارة بن عقيل.
(٢) صحيح: رواه البزار بإسناد جيد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٩٠٨.
(٣) صحيح: رواه مسلم والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٣٩٦.

فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مرَّ عليه من الزمان وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء واختلال دواعيه، لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه فكيف بالزنا الحرام؟! وإنما دواعي ذلك عند الشباب: الحرارة الغريزية وقلة المعرفة وغلبة الشهوة لضعف العقل وصغر السن.

وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، وهو غني عن الكذب مطلقا.

وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء: الثروة في الدنيا لكونه ظاهرا فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابها، فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟!

فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى والله أعلم »[1].



قال ابن القيم رحمه الله:

« ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان أن الرجل يسير به، ويأتي به منزله من البُعد في ليلة مظلمة، فيعرف المنزل، فإذا خُلّي جاء إليه، ويُفرّق بين الصوت الذي يستوقف به والصوت الذي يُحثُّ به على السير »[2]، فمن لم يعرف الطريق إلى منزله الأول -وهو الجنة- فهو أبلد من حمار!!

---

(١) شرح النووي على مسلم ٢/ ١١٥-١١٧ بتصرف.

(٢) شفاء العليل ص ٧٤.

البائع الرابع: المتكبر

لقول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر»[١].

فمثقال الذرة من الكبر تمنع دخول الجنة!! ويا لدقة الميزان، ويا لها من عقوبة شديدة دفعت كبار الصحابة إلى التفتيش في قلوبهم عن ذرات الكبر وبقاياه، فهذا **عبد الله بن سلام** ﷺ يمرُّ بقوم وعلى رأسه حزمة حطب فقال له ناس: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله؟ قال: «أردت أن أدفع به الكبر، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من الكبر»[٢].

ولماذا يمنع الكبر من دخول الجنة؟!

لعل السبب في ذلك أن الكبر رسول البغض، ويورث مقت الناس ويوغر صدور الإخوان، والناس شهداء الله في الأرض، فمن كرهه الناس كرهه الله ولابد، وهل يُدخِل الله جنته عبدا يكرهه؟!

لذا بشَّر النبي ﷺ: «من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدَّيْن والغُلول»[٣].

ويكفي الكبر شؤما أنه أول معصية ارتُكِبت في الوجود حين تكبر إبليس فطُرِد من الجنة، ومن قلَّد الشيطان في كبره ناله نفس مصيره، فطُرِد كما طُرِد، وإن أتى بالأعمال الصالحة والقربات الظاهرة، ولذا لما سُئل سلمان عن السيئة التي لا

---

(١) صحيح : رواه مسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم : ٧٦٧٤.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٩١.

(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن ثوبان كما في صحيح الجامع رقم : ٦٤١١.



تنفع معها حسنة، فقال: «الكبر»[1].

ومن هنا حقَّ غير واحد من الحكماء أن يعتبر أن «الكبر فضل حُمق، لم يدرِ صاحبه أين يضعه».

وربنا عز وجل تعجَّب من تكبر عباده مع حقارة ما خُلقوا منه، فأوحى إلى رسوله ﷺ ليبعث إلينا بهذه الرسالة العلوية ويقدِّم لنا هذا المشهد المعبِّر:

عن بسر بن جحاش ﷺ: أن رسول الله ﷺ بصق يوما على كفه ووضع عليها إصبعه، ثم قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم! أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سوَّيتك وعدلتك مشيت بين بُردَين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق!! وأنَّى أوان الصدقة؟!»[2].

ومن صور الكبر التي قد تغزو القلب وتسكنه دون أن يشعر:

- عدم الخضوع للحق حين تسمعه من أصغر منك أو حتى أجهل منك.
- حب مشي الناس حولك واجتماعهم عليك.
- الأنفة من مجالسة البسطاء والفقراء.
- الترفع عن قضاء حوائج الناس.
- عدم الاعتراف بالخطأ والمكابرة فيه.
- رؤية فضلك على من هو دونك، فلا ترى أحدا إلا ولنفسك الفضل عليه.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٣٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن بسر بن جحاش كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٤٤.

البائع الخامس: النمام

قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمّام»[١]، وفي رواية أخرى قتات.

لكن ما هي النميمة؟!

النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الافساد بينهم، «والنمام معناه في كلام العرب: الذي لا يُمْسِكُ الأحاديث ولم يَحْفَظْها؛ من قولهم: جُلودٌ نَمَّة إذا كانت لا تُمْسِكُ الماء، يُقال: نَمَّ فلان إذا ضيَّع الأحاديث ولم يحفظها، ويُقال للنَّمام القَتّات إذا مشى بالنميمة»[٢].

والقتَّات هو الذي يجمع القت وهو ما يوقد به النار من حشيش وصغار الحطب.

وزاد أبو حامد الغزالي:

«حد النميمة كشف ما يُكرَه كشفه؛ سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو طرف ثالث، وسواء كان الكشف بالكناية أو بالرمز أو بالايماء، فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، فلو رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة».

وهي تنبعث من نفسية مريضة لا تقع إلا على الخبيث كما وصف ابن زنجي البغدادي نفرا:

يمشون في الناس يبغون العيوبَ لمن ... لا عيب فيه لكي يُستشرَفَ العطبُ

إن يعلموا الخيرَ يخفوه وإن علموا ... شرا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن حذيفة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٣٤

(٢) لسان العرب ١٢/ ٥٩٢ بتصرف.

وصف بعض الزهاد النمام بصاحب الجرائم الثلاث، حيث جاء رجلٌ إلى **حاتم الزاهد** بنميمةٍ، فقال: «يا هذا!! أبطأت عني وجئت بثلاث جنايات؛ بغَّضت إليَّ الحبيب، وشغلت قلبي الفارغ، وألبست نفسك التهمة عندي وأنت آمن».

فكم دم أراقه سعي ساع، وكم من صَفِيَّين تباعدا، وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين تفرقا، وكم من إلفين تهاجرا، وكم من زوجين تطالقا، فالنمامون لصوص المودات، إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودة، لذا كرههم الله أكثر من كره من خلقه، فقد وُجِد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المُثَلِّث!! قال **الأصمعي**: «هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه»، أي يُهلِك نفسه عند الله بوشايته، ويُهلك أخاه في الدنيا ببطش الإمام به، ويهلك الإمام في الآخرة بدفع نحو الظلم.

من نَمَّ في الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه؟

فالويل للعهد منه كيف ينقضه؟ ... والويل للود منه كيف يفتيه؟

ولذا ولكي يُحبط كيد النمام في مهده نصح **أبو حامد الغزالي** قائلا:

كل من حُمِلت إليه نميمة وقيل له فلان يقول فيك أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه؛ لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات:٦].

ولذا كان خالد بن صفوان يقول: «قبول قول النمام شرٌ من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيء كمن قبل وأجاز».

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح له فعله.

الثالث: أن يبغضه فى الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حُكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى نميمته عنه، فيقول فلان حكى كذا، فيصير به نماما، ويكون آتيا ما نهى عنه.

وإذا سمعت نميمة فتعدَّها ... وتحفَّظَنَّ من الذي أنباكها

وذر النميمة لا تكن من أهلها ... وتجنَّبْ مَنْ صاغها أو حاكها

البائع السادس: آكل الحرام

عن أبي بكر الصديق ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة جسد غُذِّي بحرام»**(١)، ونفس الوصية تكرَّرت على لسان رسولنا ﷺ لأهميتها ورحمته بنا، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خاطب أحد أصحابه: **«يا كعب بن عجرة!! إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت»**(٢).

---

(١) صحيح لغيره: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط والبيهقي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٧٣٠.

(٢) صحيح لغيره: رواه ابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٧٢٨.

ومن هنا يتضح أن آكل الحرام مطرود عن باب الجنة، وإذا كان الجُنُب ممنوعا من دخول بيت الله، والمُحدِث مُحرَّم عليه أن يمس كتاب الله، مع أن الجنابة والحدث حدثان مباحان، فكيف بالمنغمس في وحل الحرام وخبث الشبهات؟! لا جرم أنه لحمه الخبيث جعله مطرودا من أطهر مكان: جنة الخلد، والتي سميت لطهرها من كل الآفات: «حظيرة القُدُس»، والقُدُس: الطهر، لذا لا تقبل أن يسكنها إلا الأطهار.

لذا اندهش **ابن الجوزي** على صفحات كتابه المدهش قائلا:

«من نبت جسمه على الحرام، فمكاسبه كبريت به يوقد»[1].

وفضح **أبو حامد الغزالي** عبادة المغترين من آكلي الحرام حين صرَّح:

«العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار»[2].

ويوسف بن أسباط وكأنه استرق السمع إلى حديث إبليس مع أعوانه ثم نقل لنا ما سمع فقال:



«إن الشاب إذا تعبَّد قال الشيطان لأعوانه: انظروا من أين مطعمه، فإن كان مطعم سوء قال: دعوه يتعب ويجتهد فقد كفاكم نفسه، إن اجتهاده مع أكل الحرام لا ينفعه»[3].

---

(١) المدهش ص ١٢٧.

(٢) الإحياء ٣/ ٨٩.

(٣) الكبائر ص ١١٨.



البائع السابع: الإمام الغشاش

قال ﷺ: « ما من إمام يبيت غاشا لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة »[١].

وغش الرعية بسرقة ثرواتها، وكتمان الأسرار عنها، وإيثار المصلحة الفردية على مصلحتها، والكذب عليها، وهو نوع من المكر والخداع، وقد توعَّد النبي ﷺ هؤلاء فقال: «من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار»[٢]، وهذه ثلاثتها من الكبائر. قال المناوي:

« وأخذ الذهبي من الوعيد على ذلك أن الثلاثة من الكبائر فعدَّها منها »[٣].



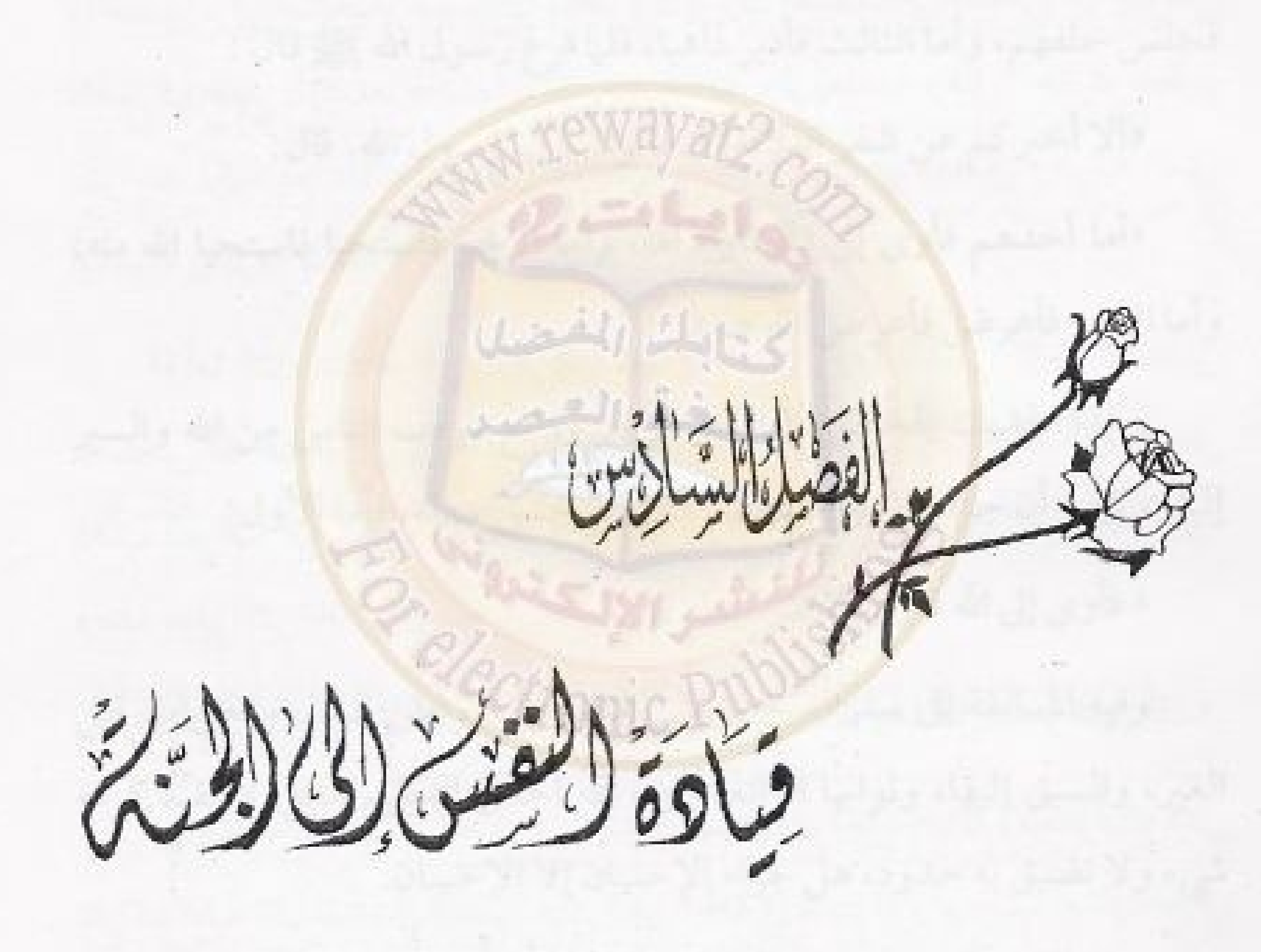
قال أحد السلاطين للإمام ابن تيمية: كأنك تريد ملكي يا ابن تيمية؟ فأجابه: «والله ما ملكك ولا ملك أبيك ولا ملك أجدادك يساوي عندي فلسا، إني أريد جنة عرضها السماوات والأرض ».



(١) صحيح لغيره : رواه الطبراني عن عبدالله بن مغفل المزني كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم : ٢٢٠٧.

(٢) حسن صحيح : رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسناد جيد وابن حبان في صحيحه كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم : ١٧٦٨.

(٣) فيض القدير ٦ / ١٨٦.


الفصل السادس
قيادة النفس إلى الجنة



الجنة أولا

عن أبي واقد الليثي ﷺ أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على رسول الله ﷺ سلَّما، فأما أحدهما فرأى فُرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال:

«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

«أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»[1].

وهذا الحديث يلخِّص على نحو موجز ورائع موقف الناس من الله والسير إليه، وكيف أن جزاء كل واحد منهم كان من جنس عمله، فأما الأول:

« فأوى إلى الله فآواه الله »:

وفيه المسابقة إلى سد الفُرَج بمعنى التقدم إلى مواطن البذل والخيرات قبل الغير، والسبق إليها، وثوابها الرائع: إيواء الله الخالق العظيم الذي لا يقيِّد كرمه شيء ولا تضيق به حدود، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وسد الفرج فيه معنى سد الثغرات التي لا تُسدُّ إلا بك، فإذا كنت في مكان لا ينصر فيه الإسلام أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يرد غيبة مسلم أو

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي واقد الليثي كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٤٠٥.

يغض بصره أو يمسك لسانه غيرك، بحيث تكون الفضيلة متوقفة عليه وإلا ماتت، والخير نابع من وجودك وإلا انعدم، فعندها يتضاعف ثوابك وتنال أجر السابقين.

«وأمّا الآخَر فاستحَيا فاستحيا الله منه»:

أي ترك المُزاحمة وَتَخَطِّي الرقاب حياء من الله تعَالى ومن النبي ﷺ والحضور، أو استحياءً منهم أن تأخر ولم يدرك الحلقة، أو استحى أن يُعرِض ذاهبا كما فعل الثالث، فاستحيا الله منه فرحمه ولم يُعذِّبه، وقيل: جازاه بعظيم الثواب، لكنه مع ذلك لم يلحق بدرجة صاحبه الأول في الفضل والرتبة الذي آواه ربه وأكرمه بلطفه وقربه، فشتان ما بين الدرجتين.

«وَأما الثَّالث فأَعرض فأَعرَض الله عنه»، وفي رواية أنس ﷺ: **«فاستغنى فاستغنى الله عنه»**، أي لم يرحمه وسخِط عليه، وفي هذا إشارة إلى أنّه هذا الرجل ذهب مُعْرِضًا عن الخير لا لعذر وضرورة، وفيه ذم من زهد في الخير وأعرض، وهذا حال أكثر الخلق كما ناجى بعض الصالحين ربه فقال:

«إلهي! ما أكثر المُعترضين عليك والمُعرضين عنك، وما أقل المُتعرِّضين لك».

وإن المرء تتعدد أهدافه في دنياه، على حسب مراحل حياته ومسئولياته التي تتراكم عليه كلما تقدَّم في العمر، فهل تبقى الجنة في سلم الأولويات، أم تتراجع في ظل الضغوط والمغريات؟! هذا هو السؤال الذي يحتاج من كل منا إلى إجابة، وبسبب نسيان الإنسان وغفلته وجد عبد القادر الجيلاني نفسه مضطرا إلى أن يقول:

«اجعل آخرتك رأس مالك ودنياك ربحه، واصرف زمانك أولاً في تحصيل آخرتك، ثم إن فضل من زمانك شيء اصرفه في دنياك وفي طلب معاشك، ولا تجعل دنياك رأس مالك وآخرتك ربحه، ثم إن فضل من الزمان فضلة صرفتها في آخرتك»[1].

وطمأن الحسن البصري جموع الخائفين وعموم الحريصين على دنياهم والباذلين في سبيلها كل ما يملكون فقال موجِّها خطابه إلى الشباب خاصة:

«يا معشر الشباب!! عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيرًا رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحدًا طلب الدنيا فأدرك الآخرة مع الدنيا»[2].

١- ابدأ بالأساس

الاعتماد على النافلة وإضاعة الفريضة من أشهر تلبيسات إبليس. قال ابن الجوزي:

«ومن العوام من يعتمد على نافلة ويضيع فرائض مثل أن يحضر المسجد قبل الأذان ويتنفل فإذا صلى مأموما سابق الإمام، ومنهم من لا يحضر في أوقات الفرائض ويزاحم ليلة الرغائب، ومنهم من يتعبد ويبكي وهو مُصِرٌّ على الفواحش لا يتركها، فإن قيل له قال: سيئة وحسنة والله غفور رحيم، وجمهورهم يتعبد برأيه فيفسد أكثر مما يصلح، ورأيت رجلا منهم قد حفظ القرآن وتزهد ثم

(١) فتوح الغيب ص ١٢٤ ط دار القادري الأولى ١٩٩٥-١٤١٥.
(٢) الزهد للبيهقي ص ٩.



أحب نفسه، وهذا من أفحش الفواحش»[1].

ولذا أوصى **الشيخ عبد القادر الجيلاني**:

«ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولاً بالفرائض، فإذا فرغ منها اشتغل بالسنن، ثم يشتغل بالنوافل والفضائل، فما لم يفرغ من الفرائض فالاشتغال بالسنن حمق ورعونة، فإن اشتغل بالسنن والنوافل قبل الفرائض لم يقبل منه وأهين، فمثله مثل رجل يدعوه الملك إلى خدمته فلا يأتي إليه ويقف في خدمة الأمير الذي هو غلام الملك وخادمه وتحت يده وولايته»[2].

٢- البداية الصعبة

أخي.. أول الغيث رشٌّ ثم ينسكبُ.. المهم: أن تبدأ.

جاء رجل كافر إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أسلم، فقال: أجدني كارها، فقال له النبي ﷺ: «**أسلم وإن كنت كارها**»[3].

قال ابن رجب في فتح الباري: «وهذا يدل على صحة الإسلام مع نفور القلب عنه وكراهته له، لكن إذا دخل في الإسلام واعتاده وألفه: دخل حبه قلبه ووجد حلاوته».

فالمهم إذن أن تبدأ ثم تستمر، وتظل تقاوم الشيطان في توهينه لك عن طاعتك، حتى يُشرِق نور الإيمان في قلبك، وبعدها الحلاوة واللذة بعد الألم الذي صادف في البداية.

---

(١) تلبيس إبليس رقم: ٤٧٥.

(٢) فتوح الغيب ص ١٤٤ ط دار القادري الأولى ١٩٩٥-١٤١٥.

(٣) صحيح: رواه أحمد عن أنس بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: ٩٧٤.

الاستمرار إذن هو مفتاح اللغز وأصل القضية، مهما كان معه من معاناة، وبه تدور تروس القلب التي كادت تصدأ من طول الانتظار وتراكم الأوزار لتبدأ عملها في إحياء البدن بإذن الله.

وتعلم من الكفار الذين لا يؤمنون بجنة أو نار، فقد نقل الإمام الشوكاني عن أفلاطون كلمة رائعة حيث قال:

«وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن أفلاطون، فإنه قال: الفضائل مُرَّة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مرَّة العواقب»(١).

وإلى هذا أشار الحكيم الترمذي في كتابه النفيس "أدب النفس" فقال:

« ألا ترى الصبي إنما اعتاد ثدي أمه ، كيف سكوته بذلك الثدي ، إنما يحِنُّ إليه إذا فقده ، وكيف يفرح به إذا وجده ، فكذلك النفس الشهوانية ، فإذا فُطِم الصبي انفطم ، حتى لا يلتفت إلى الثدي بعد ذلك ، لأنه وجد ألوان الأطعمة ، فلا يحِن إلى اللبن ، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين وروح قرب الله تعالى وحلاوة اختيار الله عز وجل وجميل نظره لها لم تحِنَّ إلى تلك الشهوات »(٢).

قاعدة ذهبية براقة!!

وبمجرد أن تعلم عليك أن تعمل فإن ذلك يرسِّخ العلم في القلب وينمّيه. قال ابن تيمية: « فإن العمل بموجب العلم يثبِّته ويقرِّره، ومخالفته تُضعفه؛ بل قد تُذهبه. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. وقال تعالى:

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب ص ١٨٦.

(٢) أدب النفس للحكيم الترمذي ص ٣٤-٣٥ – ط الأولى – الدار المصرية اللبنانية.



﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]»(١).



قال ابن الجوزي:

« واعجبا لتاجر يرضى بتعب شهر ليتمتع بربح سنة، فكيف لا يصبر أيام عمره القليلة ليلتذ بربحها أبدا!! »(٢).



(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٣٢.

(٢) المدهش ص ٣٨١.

٣- ثمانية طرق

قال ﷺ:

«من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله!! هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة. قال أبو بكر: هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم»[(١)].

الصدِّيق وما أدراك ما الصدِّيق!! ما أعلى هذه الهمة، وأكبر هذه النفس!! ما يضره من أي باب دخل إذا كان المستقر الجنة؟! لكنها الهمم التي لا تعلم بابا من الأجر أعلى إلا سعت إليه، وهمة لا تقبل بالدون، وتنافس نفسها كل يوم أن تدرك ما لم يُدرك بالأمس، هو في سرعة سيره إلى الله وكأنه في منحدر لكنه منحدر يرتقي به إلى الجنة!!

بزَّ الرجال وجاز السبق مبتدئا ... كأنه مصعد ينحطُّ من صبب

قال الحافظ ابن حجر:

«ويُحتمل أن يكون المراد بالأبواب التي يُدعى منها: أبواب من داخل أبواب الجنة الأصلية، لأن الأعمال الصالحة أكثر عددا من ثمانية والله أعلم»[(٢)].

فكلٌّ منا واقف على باب من الأبواب يرجو منه الولوج إلى الجنة: المجاهد في

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٠٩.

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٨.

معركته، والعامل في مصنعه، والمهندس في موقعه، والطالب في جامعته، والمنفق في بذله، والأم في بيتها، والزوجة في طاعة زوجها، كل هؤلاء يخطبون الجنة، وكلٌّ بطريقته، وكلها طرق مؤدية إلى الجنة بإذن الله.

لكن بعض هذه الأبواب مزدحم أمامه طابور طويل، وبعضها خاوٍ!! والذكي هو الذي يطرق مثل هاتيك الأبواب الشاغرة ينشد عدم الانتظار وسرعة الولوج إلى الجنة، فمثلا:

- كثير من الناس تصلي فهذا باب مزدحم، لكن قليلا منهم من يستيقظ في السحر يستغفر فهذا باب خاوٍ.

- كلهم يصومون رمضان وبعض أيام الشتاء، لكن لا يصبر على حر الصيف الذي يقطع الجوف من العطش إلا القليل.

- وما أكثر من يتصدَّق، وقليلٌ من يفعله من الأغنياء الذين لم تلههم أموالهم عن ذكر الله، فإذا جاءت الصدقة من فقير، فهذا قليل من قليل، وهكذا.

فتلفَّت حولك ، وابحث عن ما هجر الناس من خير وزهدوا فيه من فضل، فتقدَّم إلى بابه طارقا، منتشيا أنك أحييت ما أماتوا وسرت وحدك في طريقٍ للخير مهجور.

وفي حديث أبي بكر ﷺ كذلك ملمح من ملامح رحمة الله بنا الذي راعى اختلاف إمكانات البشر وتغير الظروف وتنوع الميول والرغبات، وهي رسالة مفادها أنه لم يعد لأحد عذر، فالكل يملك الثمن، ولن يُعدَم أحد شيئا يقدِّمه لشراء الجنة، أي شيء، والدليل: حديث أبي ذر!! فما حديث أبي ذر؟!

٤- الدال على الجنة يدخلها

لا تكن أنانيا بل أحب لغيرك الخير كما تحب الجنة لنفسك، وادع من حولك إلى نعيمها إذا رأيته اشتغل بالرخيص عن النفيس، وآثر الزائل عن الخالد، وهذه الدعوة هي وراثة الأنبياء الحقة، ومن أحب شيئا أكثر من ذكره، فهل تحب الجنة؟! وهل تدعو غيرك إليها؟! وهل تعلم أن دعوتك إلى الجنة وكثرة ذكرها تضاعف حبها في قلبك، وتجعلك على البذل أقدر.

هل تحب أبناءك؟! هل تحب زوجتك.. والديك؟! فهل تحثهم على الجنة وتدلهم عليها؟! وهل يسرك أن تكون في الجنة ومن تحب منهم يصلى النار؟! إذا لم ترِد ذلك فقدِّم دعوتهم إلى الجنة واشتغل في أن تكون دليلا لهم عليها.

٥- الانتفاضة الثائرة

انتفض على ضعفك، وابدأ من فورك بأقصى قوة، فالبدايات الضعيفة تؤدي ولابد إلى النهايات الضعيفة، وجلد الفاجر وعجز الثقة هما من علامات عدم الثقة في الجزاء الأعلى والاغترار بالموجود التافه الأدنى.

ومن أقبح الإخلاق إخلاف الوعد مع الله، وهو أن تعد ربك في لحظة صدق بأن تشتري الجنة ثم تنكص، ولقد روي عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﵁ أنه كان وعد رجلا من قريش أن يُزوِّجه ابنته، فلما كان عند موته أرسل إليه فزوَّجه قائلا: «كرهت أن ألقى الله بثُلث النفاق»، والذين وعدوا ربهم حريٌّ بهم أن يكونوا أصدق وأحزم.

وكلما كان السن أصغر كان العزم أقوى والوفاء أسهل، وهي وصية **السري السقطي** لجموع الشباب بعدما شاب، فعن الجنيد بن محمد قال: كان السري يقول

لنا ونحن حوله: «أنا لكم عبرة يا معشر الشباب، اعملوا فإنما العمل في الشبيبة»[1].

٦-الإرادة والمقدرة

قد تملك الإرادة الكبيرة والرغبة الجارفة وعشق الجنة المتجذّر في أعماق قلبك، لكن قدرتك وإمكاناتك ومواردك لا تسعفك، كأن تكون مديرا تقضي الساعات الطوال في عملك، أو فقيرا تكالبت عليك مطالب المعيشة واحتياجات العيال، أو تكونين ربة بيت ترعين أطفالا وأسرة كبيرة، وعندها قد تجبر الإرادة الصادقة القدرة الخائرة، لكن عالي الهمة وخاطب الجنة يتفنن في الاستفادة من الموارد المتاحة والبحث عن أي قطرة جهد أو دقيقة بذل يقدِّمها لمحبوبته ويبذلها لغايته، فيجدِّد نيته في ما شُغِل به ويوظِّفه للغاية الكبرى يرجو بذلك نيل الجنة والفوز بها، فلا يشكون أحد بعد اليوم ضعف موارده وعدم سماح الظروف، فأين الرغبة والإرادة في قلبك إذن؟!

٧-النظر إلى الأعلى راحة

روح التسابق إذا سرت بين المؤمنين رأيت العجب، تسابق على نطاق:

- الأجيال: بين جيلنا الحالي وأجيال السلف، ومنافسة أصحاب الهمم العالية والسابقين إلى الخيرات ولو كانوا الصحابة. قال سفيان بن عيينة وهو يتكلم عن عبد الله بن المبارك ويقارنه بغيره من الصحابة:

«نظرتُ في أمر الصحابة، وأمر عبد الله، فما رأيت لهم عليه فضلا

(١) الزهد للبيهقي ص ١٩٩ - ط دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية.

إلا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه»[١].

- أفراد الجيل الواحد بعضهم وبعض؛ بين جيرانك أو زملاء عملك أو أعضاء عائلتك.
- على نطاق كل الأصعدة والمجالات: فتسعى لتكون أكثر الناس إنفاقا، أو أخشعهم صلاة، أو أكثرهم صياما، أو أحسنهم خلقا، وبدون هذا التنافس والتطلع إلى أهل السبق تفتر همة الكثيرين وتبرد.

قال ابن الجوزي:

«ومما يزيل كسلك - إن تأملته - أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك، ويكفي ذلك في توبيخ المقصِّر إن كانت له نفس، فأما ميِّت الهمة فما لجرح بميت إيلام.

كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قُرِّبت نجائب النجاة لأقوام وتعثَّرت، وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط وتخبَّطت؟ هيهات ذهبت حلاوة البطالة وبقيت مرارة الأسف، ونضب ماء كأس الكسل وبقي رسوب الندامة!!

فيا خاطبا حور الجنة وهو لا يملك فلسا من عزيمة، افتح عين الفكر في ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطابك، فإن رأيت تثبيطا من الباطن فاستغث بعون اللطف، وتنبَّه في الأسحار لعلك تلمح ركب الأرباح، وتعلَّق على قطار المستغفرين ولو خطوات، وانزل في رباع المجتهدين ولو منزلا أي منزل»[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٣

(٢) صيد الخاطر ص ٣١٩.

وإن كانت الآية واردة في الجهاد لكن إسقاط معانيها على طلب الجنة مقبول إذا الجهاد أحد أبرز الطرق الموصلة إليها، فهيا جميعا.. مهما كانت أعماركم.. أحوالكم.. كلكم بلا استثناء.. اطلبوا الجنة جهدكم، وابذلوا في سبيلها أرواحكم، ولا عذر لأحد منكم في التأخر عن الركب بعد كل هذا الترغيب والتشويق، كيف وقد انتفت عنكم الجهالة، وعرفتم عظمة المطلوب، فإلى متى الغفلة؟! إلى متى غير الحق؟! إلى متى الهوى؟! إلى متى الطيش؟! إلى متى غير الجنة؟!

أخي عاقد الصفقة وبائع الدنيا في سبيل الآخرة: اجعل همك الأول الجنة، واقطع قائمة أعذار التخلف عنها بعزمك، واحزم أمتعتك نحوها بهمتك، ثم حُطَّ رحالك في حيّ عشاقها، وقف على عرفاتهم، وطُف بسيرتهم كلما عجَّت الدنيا حولك بعشاق الزيف الفارغ والدنيا الزائلة، واعلم أن كثرة ذكر سِيَر عشاق الجنة تدفع المُبحِرين إلى خضم البذل وأمواج العمل دون تردد أو وجل، فهيا جميعا.. انطلقوا.

أما المتسلّحون بالأعذار المتعللون بالأوهام، فهؤلاء في واد وعشاق الجنة في واد، وهي الصيحة العالية التي أطلقها **أبو عبد الله القرشي** يصك بها الآذان الصم ويعالج قلوب المتلكئين ويمزّق قائمة أعذارهم التي لا تنتهي بقوله:

«سيروا إلى الله تعالى عرجًا ومكاسير، فإن انتظار الصحة بطالة»[1].

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٦.

نسائم الأشواق

قيل للعتابي: إن فلانا بعيد الهمة. قال: إذن لا يقنع بدون الجنة، وقيل له: إن فلانا عالم بعيد الهمة، قال: «إذن لا يفرح بالدنيا»[1].

٨- طلق أعذارك

وفي معنى ﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [العنكبوت:٤٠] أورد ابن الجوزي أحد عشر قولاً:

«أحدها: شيوخا وشبابا.

والثاني: رجّالةً وركبانا.

والثالث: نِشاطا وغير نِشاط.

والرابع: أغنياء وفقراء.

والخامس: ذوي عيال، وبغير عيال.

والسادس: ذوي ضياع، وغير ذوي ضياع.

والسابع: ذوي أشغال، وغير ذوي أشغال.

والثامن: أصحّاء، ومرضى.

والتاسع: عزّابا، ومتأهّلين.

والعاشر: خفافًا إلى الطاعة، وثقالاً عن المخالفة.

والحادي عشر: خفافاً من السلاح، وثقالاً بالاستكثار منه».

---

(١) نثر الدر ٢/ ٦٣.

٩-وظف ذنوبك

لا تيأس إن كان الشيطان قد استزلك، وتعلم من ذنبك، واستخدمه في بناء صرح إيمانك، فالإخفاق أساس النجاح، وربما كان الذنب سببا في العودة إلى الله وتصحيح المسيرة، مثلما حدث مع الكثيرين، ومنهم خامس الخلفاء **عمر بن عبد العزيز** الذي روى عنه **ابن كثير** أنه «ضرب **خبيب بن عبد الله بن الزبير** خمسين سوطا بأمر الوليد له، وصُبَّ فوق رأسه قربة من ماء بارد في يوم شتاء بارد، وأقامه على باب المسجد يومها، فمات رحمه الله، وكان **عمر بن عبد العزيز** بعد موت **خبيب** شديد الخوف لا يأمن، وكان إذا بُشِّر بشيء من أمر الآخرة يقول: كيف و**خبيب** لي بالطريق!! ثم يصيح صياح المرأة الثكلى، وكان إذا أُثني عليه يقول: **خبيب** وما **خبيب**؟ إن نجوت منه فأنا بخير، وركبه الحزن والخوف من حينها، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء، وكانت تلك هفوة منه وزلة، ولكن حصل له بسببها خير كثير من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعدل وصدقة وبر وعتق وغير ذلك»[1].

فكان له من وراء هذا الذنب الخير الوفير وكان بمثابة القشة التي قصمت ظهر الشيطان والفتيل الذي أحرق كيده حتى صار خامس الخلفاء الراشدين، ووعى **عمر** الدرس فكان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه»[2].

وهذا ما يجعلنا نقسِّم الذنوب إلى قسمين: **عائقة وسائقة**، فالذنوب **العوائق**

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٨٧.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠١.

هي التي تُقعِد صاحبها عن السير إلى الله بعد أن ألقته في بئر اليأس وجلد الذات، أما الذنوب السوائق فهي التي تُضاعف سير صاحبها إلى الله وتدفعه إلى استدراك الخطأ ومحاولة التعويض كما حدث مع الراشد العُمري.

١٠- الاستثمار الدائم

قال ﷺ: «**سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورَّث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته**»[١].

ونظمها السيوطي في أبيات له لكنه زادها إلى عشر حيث وردت بذلك روايات أخرى فقال:

إذا مات بن آدم ليس يجري ... عليه من فعال غير عشر

علوم بثَّها ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجري

وِراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر

وبيتٌ للغريب بناه يأوي ... إليه أو بناء محلِّ ذكر

وتعليم لقرآن كريم ... فخُذْها من أحاديثٍ بحصر[٢]

وهي فرص للازدياد من الخير بعد فراق الروح الجسد، وطريق للاستمرار في ترقي درجات الجنة وإن وسِّد العبد في التراب، ويا لها من فرصة على كل عاقل أن يهتبلها ويثب نحوها، يقتنص بذلك أعظم الغنائم وأجود الفرص.

---

(١) حسن: رواه البزار سمويه عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٠٢.

(٢) شرح السيوطي على مسلم ٤/ ٢٢٨.

١١- الغيرة ها هنا

من أهم ما يعين النفس على الطاعة ويبعث الروح على الحماسة أن تجد حولها من ينافسها، فزاحم المتقين وسِر في سرب الصالحين وادفن نفسك وسط جماعة المؤمنين، فضمن الجماعة تكون المنافسة وتصحيح المسار وتعاظم الرغبة في التفوق، وهل سمعت أبدا عن مسابقة بغير جماعة؟! أم تريد أن تتباهى بأنك الأول على نفسك!!

السباقَ السباقَ قولا وفعلا حذِّر النفس حسرة المسبوق

ويا لها من حسرة يوم لا تنفع الحسرة!! لذا.. إياك والصحبة القاتلة.. أصحاب الدنيا وإخوان المصالح ورفقة النوم الطويل والكسل المهلك، فما أسرع انتقال ذبذبات الفساد. قالها أبو بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حاجاتهِ كم صالحٍ لفساد آخَرَ يُفسَد

عَدْوى البليد إلى البليد سريعةٌ والجمرُ يوضعُ في الرمادِ فيُخمَد

وظاهرة عجيبة رصدها أبو حامد الغزالي تدفع المرء إلى التنافس الغلط والغيرة الحمقاء حين قال:

«والعجب أنه لو تقدَّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك، وضاق به صدرك، وتنغَّص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة، وفيها أقوام سبقوك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها»[١].

---

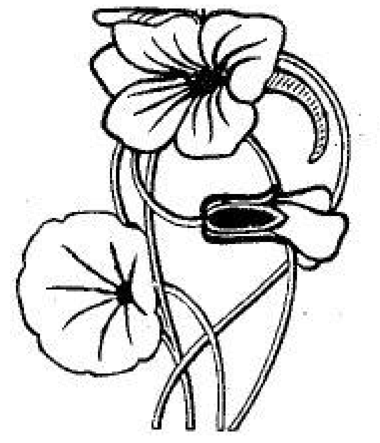
(١) الإحياء ٤/ ٥٣٧ بتصرف.

فهل ضاق صدرك يوما لأن جارك سبقك في صلاة الفجر أو تكبيرة الإحرام؟!

هل تحرَّقت ساعة لأن غيرك أنفق أكثر مما أنفقت أو بذل من وقته وجهده لله ما حُرِمت منه أو تقدَّم في ميدان من ميادين الخير وتأخَّرت؟! أرجو ذلك!!

ولحبه لنا وحرصه علينا فقد حذَّرنا النبي ﷺ من التنافس على هذا النعيم الدنيوي الزائل، فعن **عمرو بن عوف الأنصاري** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث **أبا عبيدة بن الجراح** رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين. قالوا: أجل يا رسول الله. قال:

«أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسَط الدنيا عليكم كما بُسِطَت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»(١).



(١) صحيح: رواه الشيخان وهو في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٢٥٥.

اذرف دمع الفراق!!



والآن..

والآن.. بعد أن نادى عليك مؤذِّن الجنة يعرضها عليك، وخرجت بأسماء الفائزين الجرائد، وعُلِّقت على صدورهم الأوسمة والقلائد، هل لا زلت بعدُ في النائمين!!

أخي..

لو رأيت مواكب الفائزين، لأبصرت طلائع الشهداء، ضحوا بأغلى ما يملكون فنالوا صدارة القوم، ولأبصرتَ الساقة من العُبَّاد يحاولون اللحاق، وسمعت استغاثات المذنبين في سجدات الندم وصرخات الاستغاثة وسط الليل يتباكون، لو رأيتهم لعلمت قدر مصيبتك وفوزهم، وخطورة موقفك ونعيمهم.. يا مستأنسا بالرقاد ومبتهجا بالخسارة.. ماذا كسبت لو خسرت الجنة؟! وماذا خسرت لو ربحت الجنة؟!

آه..

يا حسرةَ العصاة..

يا ذُل مقام الغافلين..



يا خيبة النائمين..

يا خسارة المُسرِفينْ

يا عبدَ شهوته.. **يا** قتيل غفلته.. **يا** أسير بَطالته..

هل حدَّثت الفرد الخطأ..

هل أنشدتُ من لا يسمع..

هل زجرتُ من لا يقبل.

أخي .. أمس قد مضى شاهد عدل عند الله مقبولة شهادته، واليوم غنيمة بين يديك سريع الرحيل عن قريب سفرته، فإن أسأت أمس واليوم اجتمعت شهادتهما أمام الله عليك، وجئت مغلولة عنقك إلى يديك.

أيكون حالك مع الجنة كالذي أحب حبيبة، ولما حيل بينه وبينها في اليقظة أحب أن يراها في المنام فنام، وهي لا يُعجبها منه سوى السهر ولا يفوز بها إلا من قدَّم النصب والتعب.

فقلتُ لها: بَخِلْتِ عليَّ يقظَى ... فَجُودي في المنام لِمُسْتَهامِ

فقالت لي: وَصِرْتَ تنامُ أيضاً ... وَتطمَعُ أن تراني في المنام؟!

يا من لا يحرِّكه تشويق ولا يقلقه تخويف..

لا أريد منك سوى صحو ساعة من سُكْر الغفلة.. وبعدها.. أنت وما أردت!!

هل تسمعني؟!

أجبتَ دعوة كل من دعاك ولم تجب دعوة من دعاك إلى الجنة!.. لماذا الفرار من الله بدلا من الفرار إليه؟! لماذا البعد عنه وهو دائم الاقتراب منك؟! لماذا لا تؤثره على ما سواه وقد آثرك بالتكريم من خلقه على من سواك؟!

أيها الهارب من النعيم: الجنة الهدف؛ وأفقر الناس من عاش بلا هدف.

أي مطلوب يُنال من غير مشقة؟! فكيف بأعظم مطلوب!!

ماذا أقول؟! الطريق واضح، لكن الهوى فاضح!! وسبيل الجنة أصبح الآن من الوضوح بحيث ما عاد يحتاج إلى دليل.

ومن طلب الوصول لدار ليلى بغير طريقها ملك السرابا

يا عاشق ليلى الدنيوية.. كيف تُقبل على من يُعرِض عنك، ولا تركض نحو من يثب نحوك؟!

جُنِنَّا بليلى وهي جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

أخي..



هل نشطت غدة الإيمان الضامرة في قلبك أم ليس بعد؟!

هل أعدت ترتيب عقلك الباطن لتصبح الجنة ورضا الله في بؤرة اهتماماته أم لا؟!

نَقِّلْ فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزلٍ في الارض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل



وكيف إذا كان هذا الوطن أروع وأجمل وأعلى وأغلى؛ الشبر فيه يعدل الدنيا بأسرها بل أحلى:

« موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها »[١].

أتدرون لماذا خصَّ النبي ﷺ السوط بالذكر؟!

لأن من شأن الفارس إذا أراد النزول في منزل أن يلقي سوطه قبل نزوله إعلاما بقدومه، فإذا كان مجرَّد موضع السوط من الجنة خيرا من الدنيا وما فيها وأنت لم تنزل بعدُ من راحلتك إلى الجنة، فكيف إذا نزلت فيها وأقمت.

لذا يسعى أي غريب دنيوي حثيثا في العمل الشاق ويصل الليل بالنهار ويعانق التعب ويخاصم الراحة ليرجع إلى أهله وأرضه في أسرع فرصة، لسان حاله: أسمى أمنية لي أن أعود وبأي ثمن، ومسافر الآخرة أولى بذلك، لا يطيق اللبث في الدنيا والبعد على الجنة. قال **إبراهيم بن أدهم**: «نحن نَسْل من نسل الجنة، سبانا إبليس منها بالمعصية، وحقيق على المسبيِّ ألا يهنأ بعيشه حتى يرجع إلى وطنه »[٢].

سقى الله أرض العاشقين بغيثه ... وردَّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ
وأعطى ذوي الهيئات فوق مُناهمُ ... ومتَّع محبوبًا بقرب حبيبِ

---

(١) صحيح: رواه البخاري والترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٣٥.

(٢) نثر الدر ٢/ ٦٤.

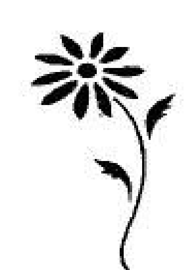
العلم ما عُمِل به، فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى، وقد تعلَّمنا: عالم بعلمه لم يعملن.. مُعذَّب من قبل عُبَّاد الوثن، فأين علامة علمك؟!

أخي..



تخلص من الأسر، واكسر القيد.. استثمر رأس مال حياتك، واملأ شراعك بنسيم العشق تُسرِع به نحو الجنة، لا يوقفك شيء.

حبيبي..



تصبَّر وتشدّد فإنما هي أيام معدودة، وإنما أنت في ركب ينتظر، يوشك أن يُدعى كل منكم إلى ربه فيلبي، فيُذهب به دون أن يلتفت.. فانقلِب إلى الله بصالح الأعمال.

رفيقي في صفحات هذا الكتاب..



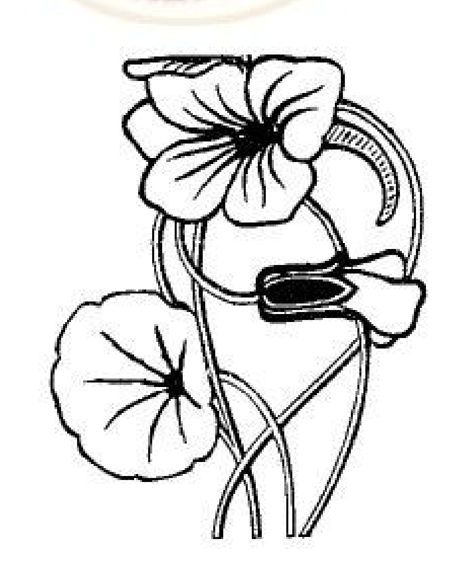
إياك أن تغادر هذا الكتاب حتى تعزم على أن ينقلب حالك إلى أحسن حال، فتحطِّم كل قيد يحول بينك وبين الهدف، ومن أورق بوعد فليثمر بفعل، والكريم إذا وعد لم يخلف، فقدِّم الوعد لربك من الآن أن تنتفض من فورك صوب الجنة، ثم احذر خلف الوعد مع الخالق فإنه مدمِّر؟! فإذا وافقت، فيلزمك امتثال قول الشاعر:

إذا قلتَ في شيء نعم فأتمه ... فإنَّ نعم دَيْن على الحر واجب

وإلا فقل لا تسترحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

وأثمرت الورقات

- حين تقلع عن عادة قبيحة استحكمت فيك باعدتك عن الجنة.
- حين تكتسب خصلة من خصال الخير تدنيك من الفردوس.
- حين تُمسك عن لقمة حرام طالما أكلتها غير آبه بعاقبتها.
- حين تصبر على ألم محنة مستبشرا بحلاوة جزائها.
- حين تفتقدك أماكن المعصية وتسأل عنك رفقة السوء، وترقص روحك طربا لرؤية الصالحين.
- حين تكون أسمى أمانيك أخروية وجُلُّ طموحاتك ربانية.
- حين تتمنى التضحية وترجو الشهادة وتشتاق للقاء الله والتمتع بالنظر إلى وجهه.



الفهرس

الفصل الثاني: من نعيم الجنة

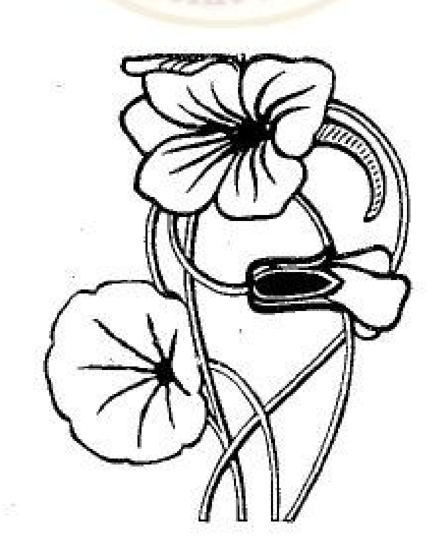
الفصل الثالث: قبل دفع الثمن

الفصل الرابع: عشاق ليلى

الفصل الرابع: وآخرون باعوا

الفصل الخامس: قيادة النفس إلى الجنة







العبور إلى الضفة الأخرى!!

وإلى هنا

انتهت رحلة النعيم.

وآخر صفحة من صفحات العشق.

وبعد ما رأيت ما رأيت وعشت أحلى الصفحات

فالآن .. جاء موعدك مع الصورة المعكوسة!!

وانقلاب النعيم إلى جحيم

والهناء إلى شقاء

وذلك عبر الصفحات المقبلة

كل ما عليك هو أن تقلب الكتاب لترى الجانب الآخر من رحلة الغيب

اعبر إلى الضفة الأخرى من الأوراق

وتصفح صفحات النذير

والأمر بعدها إليك

فانظر ماذا تختار؟!

تفضّل .. ادخل على ..

ليلى في النار!!



العبور إلى الضفة الأخرى!!

والى هنا انتهت قصة الجحيم

وآن لك الآن أن ترطّب قلبك ببعض نسمات الرجاء وبرد النعيم

اعدل الكتاب وغيّر اتجاه القراءة

لتبدأ أول صفحة من صفحات الجنة

واعدل معه حياتك وردّها إلى الفطرة السوية

وتصالح مع نفسك وأعد قلبك إلى روضة الإيمان البهية

وتنسّم عطر الشوق

ومتّع ناظريك برؤية ألوان الجمال الأبدي

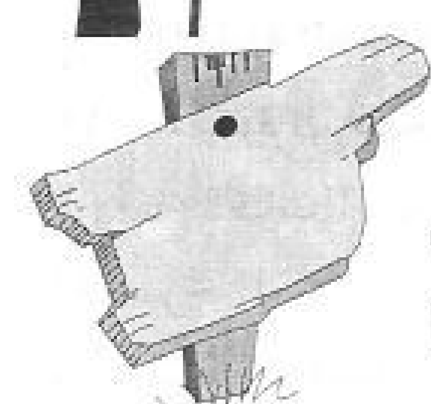
موصوفة مرسومة على الأوراق

تشتاق لزيارتك وتتلهف لرؤيتك والعناق

هيا ..

ابدأ المشوار، واعبر إلى المنتظرة لك على شوق في الجنة..

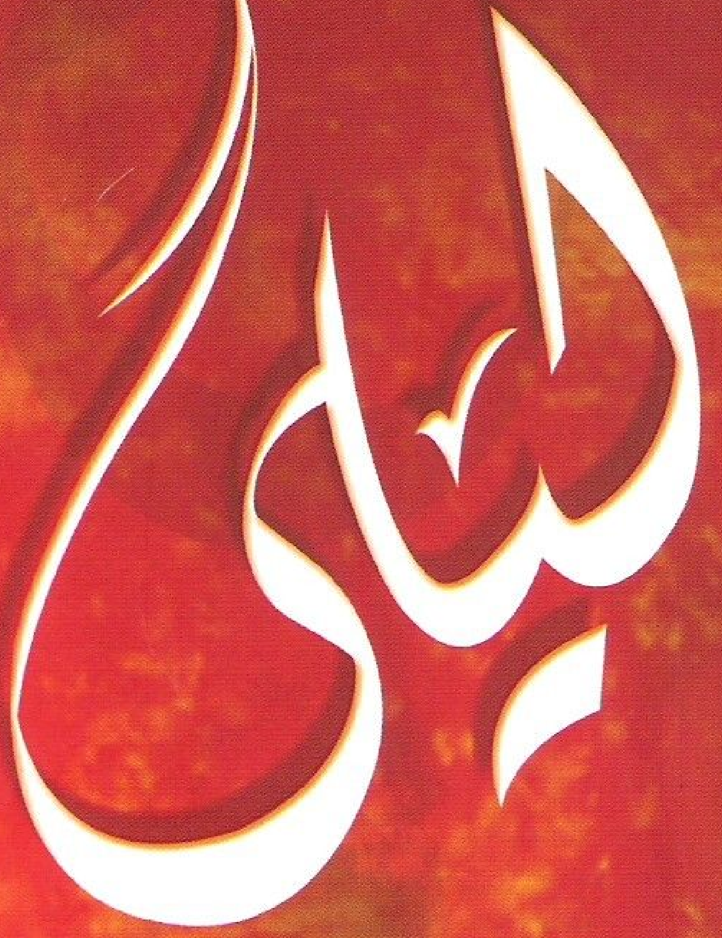
ليلى!!





كنوز





بين الجنة والنار

خالد أبو شادي

Dr. Khaled Abu Shady

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد ..

فهذا هو النصف الثاني من الكتاب، ويمثّل المرحلة الثانية والأخيرة من رحلة الغيب الغائب، وهي رحلة بين جنبات النار، رحلة شائكة لكنها أيضا شائقة، لا يعلم كثير من الناس عنها شيئا، مع أن الله ما أنذر العباد وخوّفهم بشيء قط هو أشدّ وأفظع من النار، حتى وصف لهم حرّها ولظاها، ووصف لهم طعامها وشرابها، ووصف أغلالها ونكالها، حيمها وغساقها، أصفادها وسرابيلها،

وصف ذلك كله حتى إن من قرأ القرآن بقلب حي، وسمع فيه وصف جهنم، فكأنما أقيم على حافة النار فهو يراها يحطم بعضها بعضا، تكاد تميَّز من الغيظ، وكأنما يشاهد أهلها يتقلبون في دركاتها، ويجرجرون بين أوديتها.

وكل ذلك إنذار وتحذير من المولى جلَّ في علاه، وجاء دور رسول الله ﷺ ليكمل المسيرة ويتابع الرسالة.

ولما مضى ﷺ إلى جوار ربه، أصبح الحديث عن النار والدار الآخرة حديثا خافتا لا تكاد تتحرك به الألسنة ولا تستشعره القلوب، حديثا غريبا عن السامع، لا يغري أي طامع.

مع أن كتاب ربنا وسنة نبينا بقيت محفوظة تنطق بما سبق وسمعه الرعيل الأول، لكن قست القلوب ما بين أهواء الدنيا وشهواتها، ثم إذا أفاقت برهة كان على هموم تتنازعها، فإذا حديث الترهيب والوجل اليوم مفقود، تستهجنه الآذان، قلَّ ما تنصت إليه، ونادرا ما تسمعه.

والسؤال إخوتاه: فهل وضعنا على قلوبنا أقفالا أضعنا مفاتيحها، فلا سبيل إلى معالجتها أبدا؟!

كلا والله .. بل الأمل قائم ما بقي في حياتنا نفس، فلا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، والله رحمته وسعت كل شيء، ومن رحمة الله بنا خلق النار، ومن رحمته السابغة أن أخبرنا عن تفاصيل النار وألوان عذاباتها، يردع بذلك كل من تُسوِّل له نفسه بالاعتداء والتجاوز. قال سفيان بن عيينة: «خلق الله النار رحمة يخوِّف بها عباده»[1].

---

(١) التخويف من النار ص ٣٠.



وحين تعلم النفس أن حسابا هناك، وأن الله لا يخفى عليه شيء، وستفاجئها صور معاصيها الملجمة لكل حججها الواهية يوم القيامة، عندها تلين، فلا استقامة بغير إيمان باليوم الآخر والجزاء القادم.

ولهذا الكتاب أهداف، لعل من أهمها:

١- الخوف من الله

وهدف هذا الكتاب الوصول بك إلى الخوف من النار، ومن خلالها وفي النهاية: إدراك الخوف من الله، حيث إن النار «ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثِّر، فجهنم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه في أعدائه، فالخوف منها في الحقيقة خوف من الله وإجلال وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوِّف بها عبده، ويحب منهم أن يخافوه بخوفها، وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالحذر منها، فالخائف من النار خائف من الله متبع لما فيه محبته ورضاه، والله أعلم»[1].

٢- الانقلاب

إعادة صياغة نفسيتك لتكون أخروية وعقليتك لتنقلب إيمانية، ترى نفسها بخير ما دامت على حال ينفعها في الآخرة، وهي على شر حال إن كانت على حال يضرها في الآخرة. عن هشام بن حسان قال: سمعت أبا الضريس عمارة بن حرب يُقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: «إن نجوتُ من النار فأنا بخير»[2].

---

(١) التخويف من النار ص ٢٩.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي فقرة رقم: ٥٦٧ ص ٢٢٠ – ط مؤسسة الكتب الثقافية.



وهذه والله السعادة الحقيقية:

ليس السعيد الذي دنياه تُسعِده   إنَّ السعيد الذي ينجو من النار

أبناء الدنيا:

من آثر الدنيا على الآخرة، فقد خسر الصفقة الرابحة وربح الصفقة الخاسرة، لأن الموت هو فراق كل المحبوبات الدنيوية دفعة واحدة، فما حال يومئذ من لم يفرح إلا بدنياه، ثم سُلبت منه دنياه عند موته وسُلِّمت إلى الورثة، ثم انضاف إلى ذلك: حسرته على ما فاته من نعيم الجنة ونزل به من عذاب النار، فتوالى عليه ألم فراق ما يحب وألم حسرته على ما فات من نعيم وحلَّ به من ألم.

واسمع وصيةً من أغلى الوصايا إلى الدرجة التي دفعت ترجمان القرآن وحبر الأمة **عبد الله بن عباس** ﷺ أن يعتبرها أعظم وصية انتفع بها بعد رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ: ما انتفعْتُ بكلام أحدٍ بعدَ رسول الله ﷺ ما انتفعتُ بكلام كتبه إليَّ **علي بن أبي طالب** ﷺ. كتب إليَّ:

«أما بعد، فإن المرء يسرُّه إدراك ما لم يكن ليَفوته، ويسوءه فَوْت ما لم يكن ليُدركه، فليكن سرورك بما نِلْتَ من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نِلْتَ من أمر دنياك فلا تكن به فَرِحا، وما فاتك منها فلا تَأْسَ عليه جزعا، وليكن همُّك ما بعد الموت»[1].

٣- طرد الشر

يقول أبو حامد الغزالي في فوائد نيران الخوف:

«فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا لا يخلِّصه إلا إحدى

(١) العقد الفريد ٣ / ٧٦ - ط دار الفكر.

النارين: نار الخوف أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان، وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يُطوى بساط الاختيار، وتُساق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار»[1].

٤-علاج القلوب القاسية

قسوة القلب هي طريق إلى الفسوق عن أمر الله، ولا تلين القلوب القاسية بمثل الخوف من العقوبة، وليس هناك عقوبة أشد ولا أفظع من النار، ومن هنا كان ذكرها.

٥-تقديم مدرسة الخوف

ويكون الخوف أوجب حين يستولي الفتور على القلوب، أو تصرع العبد شهوة على غفلة، أو تغلبه رفقة سوء تدفع به نحو الهاوية، وعندها يثور القلب وجلا حين يرى النار بين يديه، وتتقدَّم البصيرة البصرفترى ما غاب عنه، ويشم العبد رائحة المعصية تفوح منها رائحة جهنم، ويرى حروف كلمة «معصية» تشتعل لهبا، فيهرب منها قبل أن تحرقه، وتعود تشكِّل علامة بارزة في الضمير لا يمحوها هبوب رياح الشهوات، بل يردِّد كلما لاحت له هاوية قول ربه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام:١٥].

وقدَّم بعضهم الخوف على الرجاء لسبب منطقي لم يخطر لنا على بال من قبل. قال مريج بن مسروق: «يا بني!! المخافة قبل الرجاء، فإن الله عز وجل خلق جنة ونارا، فلن تخوضوا إلى الجنة حتى تمروا على النار»[2].

---

(١) الإحياء ٤/ ٣.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ١٥٥.



وآخرون جعلوا لكلٍ من الخوف والرجاء مهمة محدَّدة، «فالخوف للنفس سائق، والرجاء لها قائد، إن ونت على قائدها حثَّها سائقها، وإن أبت على سائقها حرَّكها قائدها، مزيج الرجاء يُسكِّن حرَّ الخوف، وسيف الخوف يقطع سيف سوف»[1].

وهذا هو الخائف الحقيقي لا الخائف المزيف الذي فضحه الزاهد الكوفي إسحاق بن خلف في قوله:

«ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه وهو مرتكب للمعاصي، إنما الخائف الذي ترك الذنوب خوفا من ربه»[2].

وهذا هو سبيل الأمن الأكبر والنجاة العظمى حتى قرَّر العلماء أن «أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة»[3].

وهو ما قرَّره شقيق البلخي في قول جميل:

«القبر روضة من رياض الجنة على من يذكره، وحفرة من حفر النار على من نسيه»[4].

أنت إذن من تصنع بيديك حياتك المقبلة، ومستقبلك القريب، وتنسج تفاصيل حياتك الطويلة في أرجاء قبرك، وإن من العجيب أن يخطط العبد لمستقبله لعام أو عامين، ثم يهمل آلاف السنين يقضيها وحده مُوسَّدا في التراب!!

---

(١) الياقوتة ص ٩١.

(٢) تنبيه المغترين ١١٤.

(٣) الإحياء ٤/ ٥٢٥.

(٤) تنبيه المغترين ص ٢٠١.

الزمان والأشخاص والأحوال

ونهج الصحابة وسط بين الخوف والرجاء حتى قال **الفاروق** ﷺ: «لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل».

وتبقى هنا ملاحظة أخيرة قد ترجِّح كفة الخوف والترهيب، وذلك أن الناس تختلف أحوالهم مع الخوف بحسب الزمان والأشخاص والأحوال؟!

حسب الأشخاص: فمن الناس من تنفر نفسه من الترهيب، وتجزع نفسه من كثرة اللوم والتقريع، في حين تستريح نفسه للترغيب، وتتصاعد حماسته عند ذكر الجنة ومواطن الرحمات، وكلٌّ طبيب نفسه وخبير ذاته وأدرى بما يدفعه إلى الأمام أو يؤخِّره.

حسب الأحوال: قد تمر بالمرء حالات فتور تتدنى فيها همته ويطغى أمله، ويتعاظم رجاؤه في رحمة الله ويتوارى عمله، ويظهر طمعه في الجنة ويختفي بذله، فعندها يحتاج إلى ترهيب يضرب القلب بسوط العزم ليدفعه إلى التجافي عن فراش الكسل، واستبدال الجد والعمل بالفتور والوهن.

حسب الزمان: فالزمان المعاصر الذي نحياه من حيث التجرؤ على حدود الله والتعدي على الحرمات، وتسرب كراهية الباطل من القلب من جراء كثرة مشاهدته وإلفه، كل هذا يرجِّح كفة مدرسة الترهيب وإيثار الخوف.

وأخــيرا ..

ليس هذا كتاب تفريع وخوف بل هو بسط الحقائق العارية وعرضٌ للخطر الأكبر الذي يتهدَّدنا إن نحن فرَّطنا، وله دور كبير في تذكير الإنسان المجبول على النسيان في ظل طوفان أعباء المعيشة وتدبير الرزق اللذين كبَّلا الجميع.

أسأل الله ينفعني وينفعكم بما كتبت، فيزجركم عن السيئات، ويردعكم عن الخطيئات، ويسمو بكم عن الدنيات، وذلك بفضله سبحانه الذي ساقه إليكم عن طريق عبد فقير إليه ؛ يسَّر له كتابة هذه الصفحات.

اللهم أمين.

د. خالد أبوشادي





الفصل الأول

هذا خلق النار

١- ضخامة النار

عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبة، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟! قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفا، فالآن حين انتهى إلى قعرها**».

سبعون سنة وهذا الحجر يهوي حتى وصل من خلال هذه الرحلة الطويلة إلى قاع جهنم!! فأي عمق هذا؟! وأي حجم لها يمكن لأحد أن يتصوره؟! وكيف لمحدودي العقول والأفهام أن يتخيلوا ما لا تطيقه العقول والأفهام، ولذا ورد في الحديث أن هذا الكائن الضخم المُسمّى بالنار يؤتى به ويُسحب بواسطة أعظم خلق الله: الملائكة، لتبدأ النار عملها في الإحراق والأكل، وهي المهمة التي خلقها الله أساسا من أجلها. قال ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1].

▪ ومن ضخامتها أنها تسع خلقا من أضخم الخلق: الشمس والقمر كما روى **عبد الله بن مسعود** ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**الشمس والقمر ثوران مُكوَّران في النار يوم القيامة**»[2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٠١.

(٢) صحيح: رواه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٢٤. جاء في فتح الباري: «قال الخطابي: ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلا، وقيل إنهما خلقا من النار فأعيدا فيها، وقال الإسماعيلي: لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذابا وآلة من آلات العذاب وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة». فتح الباري ٦/ ٣٠٠.



ولهذا لا تتوقف عن العمل لحظة، ولا تمتلئ مهما وُضِع فيها من بشر، ولا تزدحم مهما امتلأت، حتى يتدخَّل الجبار بنفسه ليوقفها. قال ﷺ: «**فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله قدمه عليها، فتقول: قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحدا**»[1]، ومعنى **قَطْ قَطْ**: حسبي حسبي.. اكتفيت وامتلأت.

٢- كائن حي

قال ﷺ: «**يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبمن جعل مع الله إلها آخر، وبمن قتل نفسا بغير نفس، فينطوي عليهم، فيقذفهم في غمرات جهنم**»[2].

وليس الكلام فحسب بل الاطلاع لقول الله عز وجل: ﴿**ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ**﴾ [الهمزة: ٧].

ومعنى: ﴿**تطّلع**﴾:

- تحرق الأفئدة إحراق العالِم بما تحتوي عليه هذه الأفئدة من الكفر أو العصيان، فتصيب كل فؤاد بما يكفيه من شدة الحرق على حسب سوء اعتقاده وعمله، وذلك بتقدير من الله وإلهام منه، وهو ما قاله عبادة بن الصامت وكعب رضي الله عنهما: «يخرج عنق من النار: ألا إني أعرَفُ بالرجل من الوالد بولده،

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩١٩، وجمهور السلف على أن هذا الحديث وغيره من أحاديث الصفات لا يُتكلم في تأويلها، بل نؤمن أنها حق على ما أراد الله، ولها معنى يليق بها، وظاهرها غير مراد.

(٢) السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٩٩.

والمولود بوالده»[1]، أو بمعنى:

- تنفذ إلى الأفئدة فتُحرِقها في نفس الوقت الذي تُحرق فيه ظاهر الجسد إشارة إلى شدتها وقوتها ونفاذها وتأثيرها، أو بمعنى ثالث:

- الرؤية والمشاهدة كأي كائن حي يرى ويُبصر كما في قوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

٣- الخلود

الخلود في اللغة هو الإقامة الطويلة وطول اللبث.

أخي.. لو أُعطيت أفضل طعام في أجمل قصر في العالم شُيِّد على أجمل بقعة من الأرض، ثم قيل لك وفي مقابل هذا تُقتل آخر الشهر!! اختر هذا.. أو عش في بيت من صفيح في أفقر بلد وبأقسى ظروف على أن تعيش أعوام عديدة، فماذا كنت تختار؟!

ليس من عاقل إلا وهو يختار الحياة الأطول هربا من الموت، ولو كان الغافل الغارق في خضم الأهواء عاقلا لعرف أن الموت ينتظره آخر طريق اللذة على أحرّ من الجمر، وليته كان الموت وحده بل أشد منه ما بعد الموت من عقوبات وعذابات يتمنى معها صاحبها الموت فلا يقدر.

قال الشاعر:

مسَرَّة أحقاب تلقيتَ بعدها ... مساءة يوم أُريها شِبْه الصَّاب

(١) التخويف من النار ص ٢٢٩

فكيف بأن تلقى مسرّة ساعة وراء تلقّيها مساءة أحقاب

والصّاب شجر مُرٌّ وقيل: هو عُصارة الصّبر، والشاعر هنا يقول: العِبْرة بالخواتيم، فما معنى أن تظل أعواما في غاية الرخاء ثم ترد مواطن الشقاء، فهل تذكر ساعتها من نعيمك شيئا؟! فكيف إذا كان الأمر بالمقلوب؟! وكان الرخاء ساعة والشقاء أبدا؟!

وليس في النار عذابٌ أشدُّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس، ولا لِضِيقهم مهرب، ولا لعَذابهم نهاية، فهذا من الألم النفسي الذي يُضاعف أثر العذاب البدني.

ولا يزال أهل جهنم في رجاء الفرج حتى يذبح الموت فحينئذ يقع منهم اليأس وتعظم عليهم الحسرة والحزن، بالله: ما حال دار أقصى أماني أهلها: الموت؟

مرَّ **عمر بن الخطاب** ﷺ بكثيب من رمل فبكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت أهل النار، فلو كانوا مخلدين في النار بعدد هذا الرمل كان لهم أمد يمدون إليه أعناقهم، ولكنه الخلود أبدا»[1].

وقد ظل هذا الأمر مؤرقا لجموع الصالحين خاصة القريبين من جيل الصحابة الكرام والرعيل الأول، لهذا لما شكا عامل **لعمر بن عبد العزيز**، كتب إليه عمر:

«يا أخي!! أذكِّرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنصرَف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء».

---

(١) التخويف من النار ص ٢١٣.

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على **عمر بن عبد العزيز**، فقال له: ما أقدمك؟! قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل»[1].

وهو تفسير **الحسن البصري** لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. قال **الحسن**: «الغرام: الذي لا يفارق صاحبه، وكل عذاب يفارق صاحبه، فليس بغرام»[2].

٤- حرها



في صحيح مسلم أن قال رسول الله ﷺ:

«**ناركم هذه التي يوقدها ابن آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم**»، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال: «**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها**»، ولذا كان مجرد المس فيها مهلك.

ومعنى قوله: «**جزء من سبعين جزءا**»:

- أن النار التي نجدها في الدنيا بالنسبة إلى نار جهنم في حرها وأثرها وسرعة اشتعالها واحد من سبعين.

أو

- أنه لو جُمع كل ما في الوجود من النار أو مما يوقد منه الآدميون نارهم لكان هو الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم المكونة من سبعين جزءا.

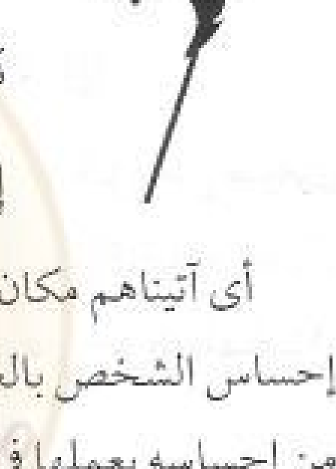
---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٢٤٤.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٤٤٠.

ومن هنا قال حجة الإسلام الغزالي: «فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات، لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه»[1].

٥- ساكنوها خلق آخر



قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أى آتيناهم مكان كل جلد محترق جلدا آخر غير محترق، فإن ذلك أبلغ فى إحساس الشخص بالعذاب لأن إحساسه بعمل النار فى الجلد الذى لم يحترق أبلغ من إحساسه بعملها فى الجلد المحترق، وهو ما بلغه العلم الحديث بعد مئات السنين من نزول القرآن، حيث أنه إذا وصلت النار عميقا حتى تحرق أعصاب الإنسان فقد الإنسان أي إحساس بالألم، فكان لابد لاستمرار عذابه وإيلامه إمداده بأعصاب جديدة، بل يتحوّل الناريون خلقا غريبا ضخما. قال عنه ﷺ :

- **«إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا بذراع الجبار، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة»**[2].

---

(١) الإحياء ٤/ ٥٣١.

(٢) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢١١٤. قال المنذري: الجبّار ملك باليمن له ذراع معروف المقدار. تحفة الأحوذي ٦/ ٣٧٢. قال البيهقي: أراد التهويل أي بلفظ الجبار ويحتمل إرادة جبار من الجبابرة. فيض القدير ٥/ ٥٥٤.

وفي حديث آخر:

- «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»[1].

ولماذا كل هذا؟!

لكي تشعر كل ذرة من جسد المُعذَّب بالعذاب فيتضاعف أثر الألم على البدن، ولو أن رجلا اشتكى رأسه من الألم أو اشتكى بطنه فحسب أو رجله أو يده لنغَّص هذا الألم المحدود في عضو واحد من أعضائه عليه أوقاته وأطار منامه، فكيف إذا كانت كل خلية في الجسد تشتكي وتتعذَّب؟!

ومن كثرة ما يلقى أهل النار من السعير يتحولون تحولا آخر، حيث التهبت أحشاؤهم واحترقت أجوافهم حتى بدا أثر ذلك في أنفاسهم وزفيرهم، ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم لأحرق من في المسجد أو يزيدون»[2].

وقد أخبر النبي ﷺ في حديث آخر أن خصائص الخلايا البشرية تتغير، فبدلا من مجرد احتراق الأنسجة وتفحمها إذا وصلت النار إليها تتغير خصائصها، فتوصل هذه الأنسجة الحرارة حتى تمتد من قدمي المعذَّب إلى دماغه. قال ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشدَّ منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا»[3].

وتكون النتيجة الحتمية: ما أخبر عنه النبي ﷺ من أن النار تلتهم الجسد كله

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٩١.

(٢) صحيح: رواه البزار وأبو يعلى كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٦٦٨ والسلسلة الصحيحة رقم: ٢٥٠٩.

(٣) صحيح: رواه مسلم عن النعمان بن بشير كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٣٣.

لا تُبقي منه غير الوجه ليُعرف به صاحبه، فقد أخبر ﷺ بالمشهد التالي وكأنه رآه رأي عين: «إن الله يخرج أقواما من النار بعدما لا يبقى منهم فيها إلا الوجوه، فيُدخِلهم الجنة»[1].

٦- لا نوم

وكما أن النوم في الجنة منعدم، فكذلك هو في النار، وهل يُعقل نوم لمن لا يستقر به مضجع، ولا يجف له مدمع؟!

يا نائمين عن صلاة الفجر ليس في جهنم نوم

قال الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

قال محمد بن كعب والضحاك والسدي وغيرهم: المهاد: الفراش، والغواش اللحف، وقال الحسن في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[الإسراء: ٨]. قال: فراشا ومهادا، بينما قال قتادة: محبسا حُصِروا فيها فلا يفلت منهم أحد.

وكيف النوم والقرار لمن لباسه النار؟!

قال عز وجل: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾[الحج: ١٩].

وكأنَّ الله يُقدِّر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تُقطع الثياب الملبوسة، وجمع الثياب بدلا من إفرادها لأن النار لتراكمها عليهم تصبح كالثياب الملبوس بعضها فوق بعض، والنار كذلك تغزو أجسادهم طبقة من بعد طبقة، وجاء لفظ الماضي إشارة إلى أن ذلك كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق.

---

(١) صحيح: رواه عبد بن حميد عن أبي سعيد كما في صحيح رقم: ١٨٩٣

ثياب ليتها ما نُسِجت ولا لُبِست. قال وهب بن مُنَبِّه: «كُسِي أهل النار والعري كان خيرا لهم، وأُعطوا الحياة والموت كان خيرا لهم»[1].

وهو ما دفع عطاء السلمي إلى أن يقول: لو أن إنسانا أوقدت له نار فقيل له: من دخل هذه النار نجا من النار، فقال عطاء: «لو قيل لي ذلك لخشيت أن تخرج نفسي فرحا قبل أن أقع فيها!!»[2].

٧- لا عزاء

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

والمعنى أن الله عز وجل حرم أهل النار هذا المقدار من الفرح وهو أن يواسي بعضهم بعضا، وذلك أن صاحب البلاء إذا رأى من يساويه في المصيبة خفَّ عليه حزنه كما اشتُهِر عن الخنساء عندما فقدت أخاها صخرا فقالت:

يذكّرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ... ولكن أُعزّي النفس منه بالتأسي

فما تعارف عليه الناس في الدنيا من تسلي أحدهم برؤية مثله ممن ابتُلي بمصيبة، فذلك كله من أوهام البشر في الدنيا، وقد جعل الله ذلك رحمة بهم في دنياهم، وأما الآخرة فعالم الحقائق فقط ينتصب دون عالم الأوهام.

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٧١.

(٢) التخويف من النار ص ٩٨.

٨- العطش

وهو من أشد عذاب أهل النار قسوة: العطش. قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

قال الضحاك: عطاشا، وقال مجاهد: منقطعة أعناقهم من العطش، وذلك في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، لا يذوقون فيه شربة ماء، ولا يستظلون من حر الشمس الحارق لحظة، حتى تتفتّت أكبادهم من العطش، وتستمر حالة الظمأ غير المعقولة هذه حتى دخول النار، وعندها يرفع الله الحجب عنهم ليطلوا على أهل الجنة وهم يرتوون من أحلى شراب ويلتذون بغاية النعيم، فيرون ما يُضاعف عذابهم ويزيد ألمهم، فإن صاحب المصيبة إذا جهل أن غيره آمن هان عليه ما هو فيه من العذاب، أما إذا رأى ضد ذلك تضاعفت حسراته أن لم يسلك طريق الفوز، عذاب ما بعده عذاب، ظلمات بعضها فوق بعض.

ومع ذلك الألم تلمح لهم بارقة أمل، وذلك أن ينالوا قطرة واحدة تُذهب الظمأ، لكن هيهات، اسمع القصة من كتاب الله أبلغ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]

قال ابن عباس: «ينادى الرجل أخاه، فيقول: .. يا أخي أغثني، فإني قد احترقت، فأفض علي من الماء، فيقال: أجبه فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[١].

وقد سبقنا جيل الصحابة رضوان الله عليهم يقينا وعملا، حين عاشت

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ص ٧٠.

آيات القرآن معهم واقعهم اليومي وسكنت تفاصيل الحياة، فقد شرب عبد الله بن عمر ﷺ ماء باردا يوما فبكي واشتد بكاؤه، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: ذكر آية من كتاب الله ؛ قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[الأعراف: ٥٤]، فعرفتُ أن أهل النار لا يشتهون شيئا شهوتهم الماء البارد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]»[1].

وهو ما كان يذكره إبراهيم النخعي كلما مرَّ بآية سورة سبأ قائلا:

«ما قرأت هذه الآية إلا ذكرتُ برد الشراب، وقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤]»[2].

فإن أذن الله لهم في الشرب وفتح لهم هذا الباب، كان بابا جديدا من أبواب العذاب، وهو:

٩- شراب أهل النار

الشراب الأول: الحميم

عن ابن عباس ﷺ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣]: الحميم الذي قد انتهى غليه، أما الضحاك فقال: يُسقى من حميم يغلي من يوم خلق الله السموات والأرض إلى يوم يُسقونه ويُصبُّ على رؤوسهم، وكانت العرب تقول للشيء (آن) إذا انتهى حره حتى لا يكون شيء أحر منه.

لذا إذا صُبَّ هذا الحميم على رؤوس أهل النار كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره

---

(١) السابق ص ٧٠.

(٢) التخويف من النار ص ١٥٧.

في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم تماما كما يذيب جلودهم: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩-٢٠] وهو أشد من قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال: خرجتُ ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغني هذا البيت:

بطول سيناء كرْمٍ[1] ما مررتَ به ... إلا تعجَّبْت ممن يشرب الماء

فسمتعت قائلاً يقول:

وفي جهنم ماء ما تجرعه ... حلق فأبقى له في البطن أمعاء

قال: فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة»[2].

الشراب الثاني: الغساق

ومن عجائب النار أن الله يعذِّب فيها بالشيء وضده: بالحر والبرد. قال ابن عباس رضي الله عنه: الغساق: الزمهرير البارد الذي يُحرِق من برده. قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥].

فاستثنى الله من البرد الغساق ومن الشراب الحميم، والغاسق هو الليل وسُمِّي غاسقا لبرده.

---

(١) قال ﷺ: «لا تسموا العنب الكرم». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في ص ج ص رقم: ٧٣٣٠.
قال العلماء: سبب كراهة ذلك أن لفظة الكرم كانت العرب تطلقها على شجر العنب وعلى العنب وعلى الخمر المتخذة من العنب، فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره لأنهم اذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا الخمر وهيجت نفوسهم إليها فوقعوا فيها أو اشتهوها، ولأن كلمة الكرم كذلك تحمل معنى الكرم والسخاء، فرجل كَرْم أو امرأة كَرْم بمعنى كريم وكريمة.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٩٣.



الشراب الثالث: الصديد

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾[إبراهيم: ١٦].

قال: يعني القيح و الدم و قال قتادة: الصديد ما يسيل من بين لحمه وجلده، ثم قال عز وجل مبينا شناعة طعمه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وهو ما أبكى خليفة من أغنى وأعظم خلفاء الأمة لم يشغله الحطام الدنيوي عن العذاب الأخروي، فعن عبد الملك بن مروان أنه شرب ماءا باردا فقطعه وبكى، فقيل: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟! قال: «ذكرتُ العطش يوم القيامة وذكرتُ أهل النار، وما مُنِعوا من ماء بارد الشراب، ثم قرأ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[إبراهيم: ١٧]»[1].

لما سمع قتادة هذه الآية قال: «هل لكم بهذا يدان أم لكم على هذا صبر؟! طاعة الله أهون عليكم - يا قوم - فأطيعوا الله و رسوله»[2].

وصدَقَنا والله!! فأي طاعة هي أهون ولابد من هذا، وإن كانت بذلا للنفس في سبيل الله أو دفعا للمال كله لله أو غضا للبصر عن المحرمات أو حفظا لله في الخلوات، والعاقل من يختار!! وإذا أردت المزيد وتوضيح الصورة أكثر؛ دعوناك إلى حضور:

جلسة التحقيق

قال ﷺ: «ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم! كيف وجدتَ

(١) التخويف من النار ص ١٥٧.

(٢) التخويف من النار ص ١٥١.



منزلك؟ فيقول: أي رب! شَرَّ منزل فيقول له: أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهبا؟ فيقول: أي رب! نعم فيقول: كذبتَ!! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيُردُّ إلى النار»[1].



وهنا الحسرة الأبدية والألم الذي لا ينتهي والدموع التي لا تنقطع والعذاب الذي يفتت الأكباد.

لكن من يشرب هذا الصديد بالخصوص؟!

قال ﷺ: «كل مُخمَّر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال: صديد أهل النار»[2].

وابن الجوزي سبق وأن صاح في كل شارب خمر: «يا متناولا للمُسْكر!! لا تفعل!! يكفيك سُكْر جهلك، فلا تجمع بين خليطين»[3].

الشراب الرابع: المهل

قال عبد الله بن عمر ﷺ: هل تدرون ما المُهْل؟ «مهل الزيت يعني أحرّه»[4].

والُمهل يجمع بين لونين من ألوان العذاب: أحدهما بصري وهو لون العكارة والشكل القبيح، والآخر حسي وهو حرارته الصاهرة ولهبه الفظيع.

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٦.

(٢) صحيح: رواه أبو داود عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥٤٨.

(٣) المدهش ص٤٧٥.

(٤) الزهد لابن المبارك ص ٤٣٩.

١٠- وطعامها الزقوم



وهي شجرة جهنم الشهيرة التي جاء ذكرها في القرآن في أكثر من موضع، ونعرض هنا لآيتين:

- **الآية الأولى**: في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[الإسراء: ٦٠].

فكانت فتنة المشركين في الرؤيا حيث ارتد بعضهم عن الإسلام حين أعلمهم النبي ﷺ بحادث الإسراء فازداد الكفار له تكذيبا، وكانت الفتنة الثانية لهم في الزقوم وهي أنهم قالوا: إن محمدا يزعم أن في النار شجرا والنار تأكل الشجر، لذا أخبر الله في سورة الصافات عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾[الصافات: ٦٣].

وسبب نزول آية الإسراء كما أوردها ترجمان القرآن **ابن عباس** رضي الله عنهما:

لما ذكر الله عز وجل الزقوم في القرآن قال **أبو جهل**: هل تدرون ما الزقوم؟! هو التمر بالزبد، أما والله لئن أمكننا الله منها لنتزقمنها تزقما، فنزلت الآية، وهي سخرية القوم من النار، وسيجازيهم الله عليها بأن يأكلوا منها حتى يملؤوا بطونهم، ولعل من الغريب أن يناسب معنى الزقوم اللغوي صورة هذا العذاب وحقيقته. قال **ابن حجر**: «الزقوم من الزقم وهو اللقم الشديد والشرب المفرط»[1].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢٧. لكن كيف لعن الله شجرة خلقها لتؤدي دورا وهي لا تستحق اللعن؟! قال الزجاج: «العرب تقول لكل طعام مكروه: ملعون». فتح القدير ٣/ ٣٤٢، وقيل: وصفها الله تعالى باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل جهنم وهو أبعد مكان من الرحمة، أو المقصود لعن الكفار الذين يأكلونها لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وإنما وُصفت بلعن أصحابها على سبيل المجاز.



- الآية الثانية: في الصافات: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات٦٤، ٦٥].

والتشبيه بالشيطان لما يقع في القلب من قبح صورته، ومع أنه لم ير أحد الشيطان حتى يخاف منه، لكن كفى بصورته الغائبة المجهولة رعبا، فليس الطعم المريع ما ينتظر المعذَّب فحسب بل يسبق هذا: المنظر الفظيع والرعب من الشكل المخيف، وهذا أيضا من العذاب النفسي الذي يضاعف أثر الجسدي.

ويتابع النبي ﷺ حملة التخويف من عذاب النار ومنه شجرة الزقوم فيعرض للشق الحسي فيها قائلا:

«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟!»[1].

قال المناوي:

«والقصد بهذا الحديث وما أشبهه: التنبيه على أن أدوية القلوب: استحضار أحوال الآخرة وأحوال أهل الشقاء وديارهم، فإن النفس مشغولة بالتفكر في لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من أحد إلا وله في كل حالة ونفس من أنفاسه شهوة سُلِّطت عليه واسترقَّته، فصار عقله مُسخَّرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة، أو مباشرة قضاء الشهوة، فعلاج ذلك أن تقول لقلبك: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده من أهوال الموقف، ثم عذاب جهنم وطعام أهلها وشرابهم فيها، يورد على فكره مثل

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٥٠.



هذا الحديث، ويقول كيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا»[1].

١١- عقوبة الحبس

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي مطبقة أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها، ولا فرج، ولا خروج منها إلى الأبد.

قال الضحاك: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: «حيط لا باب له»[2].

ومعنى إيصادها عليهم: ملازمة العذاب واستحالة الهرب واليأس من الإفلات كحال المساجين الذين أُغلق عليهم باب السجن، ومضاعفة العذاب بالحبس يستهدف تشديد العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وهو مجرَّد تمثيل وتقريب صورة أما حال جهنم فأشد من أن يتصوره عقل.

وإضافة إلى الجانب النفسي المترتب على الإيصاد هناك الجانب المادي، بما فيه من مضاعفة حرارة النار بسبب الضغط الرهيب وإغلاق جهنم على أصحابها، وهذه هي عقوبة الفزع الأكبر التي وردت في القرآن كما في تفسير سفيان الثوري في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[الأنبياء: ١٠٢]: «تُطبِق النار على أهلها»[3].

ومن هنا صاح ابن الجوزي واعظا:

---

(١) فيض القدير ٥/ ٣٠٩.

(٢) ابن كثير ٤/ ٦٦٢.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٧٨.



«يا هذا!! مثّل نفسك في زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكي أبدا، وأبوابها مغلقة، وسقوفها مطبقة، وهي سوداء مظلمة، لا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم يُريح ولا نَفَس»(١).

١٢- الظلمة

الظلمة في الدنيا هي الغموض والخوف من المجهول، وترقب الكوارث، وانتظار الأخطار، وإذا اقترن ذلك بألوان العذاب التي تنهال على العبد من كل ناحية، من فوقه ومن أسفل منه وعن يمين وعن شمال، فتخيَّل نفسك أخي في ظلمة هذا الليل البهيم والعذاب المهين: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[إبراهيم: ١٧]، فأي رعب نحياه؟! وأي عذاب روحي أشد من العذاب المادي آلاف المرات كهذا؟! وإلى ظلمة النار سبق وأن أشار **عبد الله بن عباس** ﷺ: «إن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها ولا لهب»(٢).

وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[الواقعة: ٤٣] أي من دخان جهنم وهو أسود شديد السواد كما ورد كذلك عن **ابن عباس ومجاهد** وغيرهما، واليحموم في اللغة: الشديد السواد، لذا أكّد **الضحاك**: النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود.

(١) المدهش ١/ ١٨٥.

(٢) يقظة أولي الاعتبار ص ١٢٨.



منبع الظلمة

وهذه الظلمة منبعها من العبد نفسه، فمن العبد تبدأ وفي النار تنتهي. قال ابن القيم وهو يعدِّد أثر المعاصي:

«ومنها ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى أُخرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد»[1].

ثم ينتقل سواد الوجه في الدنيا إلى سواد آخر في نار جهنم!! وهو ما دفع الفضيل بن عياض لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين أن يقول له: «يا حسن الوجه!! لقد وليت أمرا عظيما، إني ما رأيت أحدا هو أحسن وجها منك، فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل»[2].

وارتباط الظلم بالسواد والظلمة يوم القيامة واضح وثيق لا يحتاج إثباتا أو دليلا بعد بلوغ حديث النبي ﷺ إلى أسماعنا:

«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[3].

وليست ظلمات القيامة فحسب بل ظلمات الدنيا كذلك، فترى الظالم يتخبط

---

(١) الجواب الكافي ص ٣٥.

(٢) الحلية ٨/ ١٠٥.

(٣) صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١٠١.



ويخبط في المظلومين خبط عشواء، ويسير بذلك إلى النار في خطى ثابتة، ويصنع هلاكه بيده، وكأنه أعمى أو في ظلام دامس. قال حجة الإسلام: «لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه، فإن كان من السعداء ظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإلا أُخفي عنه لينهمك ويستوجب النار»(١).

ويكمل المناوي تفاصيل العاقبة المريرة:

«فلا يهتدي الظالم يوم القيامة بسبب ظلمه في الدنيا، فربما أوقع قدمه في وهدة، فهو في حفرة من حفر النار، وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى تجنب سبل الردى، فإذا سعى المتقون بنورهم الحاصل بسبب التقوى احتوشت ظلمات ظلم الظالم فغمرته فأعمته حتى لا يغني عنه ظلمه شيئا»(٢).

١٣- وقودها الناس

قال تعالى في وصف النار: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

قال الزمخشري: «معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة، وبأن غيرها إن أُريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أوقدت أولا بوقود، ثم طُرِح فيها ما يُراد إحراقه أو إحماؤه، وتلك - أعاذنا الله منها برحمته الواسعة - توقد بنفس ما يُحرق ويُحمى بالنار، وبأنها -لإفراط حرها وشدة ذكائها- إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار اشتعلت وارتفع لهبها»(٣).

(١) فيض القدير ٢/ ٣٧١.

(٢) فيض القدير ١/ ١٣٤.

(٣) الكشاف ٥٠.

جاء في التحرير والتنوير:

«في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] إشكال لأن نار جهنم لا تخبو، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ [النحل: ٨٥]، فعن ابن عباس: أن الكفرة وقود للنار. قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فإذا أحرقتهم النار زال اللهب الذي كان متصاعدا من أجسامهم فلا يلبثون أن يعادوا كما كانوا فيعود الالتهاب لهم، فالخبو وازدياد الاشتعال بالنسبة إلى أجسادهم لا في أصل نار جهنم، ولهذه النكتة سُلّط فعل ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ على ضمير المشركين للدلالة على أن ازدياد السعير كان فيهم، فكأنه قيل: كلما خبت فيهم زدناهم سعيرا، ولم يقل: زدناها سعيرا».

أما كيف يُرمى هذا الحطب البشري في النار؟! وكيف تستقبل جهنم حطبها فاسمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

قال الضحاك:

«يعني يرمون بهم في النار كما يُرمى بالحصباء، وأصل الحصْب: الرمي. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤] أي ريحا ترميهم بحجارة»[1].

وهذا الوقود من الناس يضحك اليوم ويستمتع، ويلهو ويعب من الملذات أقصى ما يستطيع، ولا يدرك المسكين ما الذي ينتظره في الغد؟! قال بلال بن سعد: «رب مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك؛ وقد حُقّ له في كتاب الله أنه من وقود النار»[2].

---

(١) تفسير البغوي ص ٣٥٦.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٢٣.



تفاوت العذاب

قال ﷺ:

«إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه إلى عنقه»(١).

والعذاب في جهنم ليس على درجة واحدة، بل يتفاوت:

- موضعا: كما هو واضح في هذا الحديث: فماذا تحرق النار من جسده؟! وكم تنال من بشرته؟! وذلك بحسب نوع معصيته فيعذَّب منه العضو الذي عصى، أو بحسب كثرة معاصيه فيُعذَّب جسده كله.
- زمانا: فكم سنة أو شهرا أو يوما يمكث في النار أو أكثر من ذلك أو أقل؟! إلى أن ينال ما استوجبه بذنوبه من العذاب.
- نوعا: فكم لونا من العذاب يلاقي ونوعا من الآلام يعاني، واختلاف أنواع العذابات فباختلاف أنواع السيئات، فكل سيئة لها لون خاص من العذاب.
- شدة: فشدة العذاب تتناسب مع قبح السيئات وكثرتها، ولكل واحد في النار حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه لا يزيد ولا ينقص، ولو أن أقلهم عذابا عُرِضت عليه الدنيا بأسرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه، والله لا يظلم مثقال ذرة!..


(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن سمرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٣٧.



١٤- عذابات الروح:

وقد أشرتُ إلى بعض منها سابقا، وهاك البقية:

- «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: **لولا أن الله هداني فيكون له شكر، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون عليه حسرة**»[١].

وهذه الحسرة من البلاء الرهيب، وعندها يكره العبد نفسه أشد المقت، ويعاديها وهو ما زال بعدُ في قبره. قال ربنا:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]

والمقت هو أشد أنواع البُغض والغضب، وهو من أشد العقوبات وأقساها في الآخرة، فهؤلاء إما مقتوا أنفسهم أي عادى بعضهم بعضا، أو مقت كل واحدٍ منهم نفسه، فالآية تحتمل المعنيين، وليس المقت كل شيء، بل فوقه وزيادة عليه: نداء الملائكة أو المؤمنين بالصدمة الأشد:

مقت الله لكم أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم، ووقع هذه الكلمة على الكافر لا يُطاق؛ لأنه يعلم عندها أن لا بكاء ينفعه، ولا عناء يُزيل ما هو فيه ويدفعه، فلا يُسْمَعُ له تضرُّع، ولا تُرْجَى له حيلة، ويتضاعف هذا المقت حين تحيط به النار من كل جانب وتلتهمه!!

---

(١) حسن: رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥١٤.





الفصل الثاني

حلقات التحذير والتذكير

ما هـــــي؟!

هي طلقات تحذيرية تستهدف قلوب الغافلين لتقتل فيها الغفلة وتسفك دماء الأهواء، فتنبعث بعدها الحياة، وإليكم أولى هذه الطلقات، وصاحبها رسول الله ﷺ، وهو من وصفه الله تعالى بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فكان نعم الطبيب الرفيق.

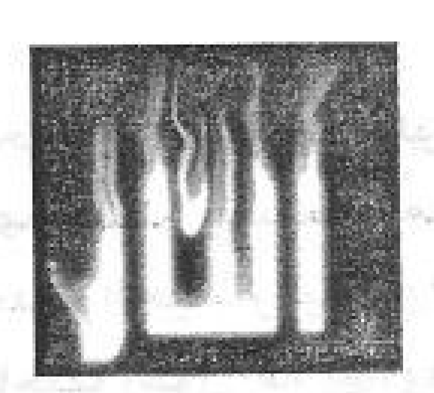
كان ﷺ المُخبر عن «الغيب» وعن «غيب الغيب»، وبالتالي فهو المفسّر البشري الوحيد للأشياء والأحداث الدائرة حولنا، لأنه رأى ما لم نر، وسمع ما لم نسمع، فبيّن ما لا يَبين، وأشعر أرواحنا بما لا يُدرك، لذا فهو الشارح الحقيقي للظواهر، والناطق بأسرار البواطن.

هو من جهة: الأول والأقرب إلى الله تعالى لذا خصّه الله بما لم يُخُصّ به غيره، ومن جهة أخرى: الأعظم أمانة لذا انطلق ناصحا أحرص ما يكون الناصح مبينا، أبين ما يكون البيان.

عُرِف بالعصمة، فطهّر الله بذلك قلبه من كل ما يخدش هذه الروحانية العالية وهذا اليقين منقطع النظير، استمع إلى صوت الحق بموجة أعلى تختلف عن موجاتنا، وتصرّف على هذا الأساس، لذا تقدّم على أكرم عباد الله: الملائكة، فوصل إلى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٩]، من أجل ذلك خضعت له أعصى النفوس تمردا، واستسلمت له أذكى الأدمغة قاطبة، فإلى أولَى هذه الرصاصات الحيوية ونبدأ بالنبوية منها:



١- التحذير المباشر



■ عن النعمان بن بشير ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنذرتكم النار .. أنذرتكم النار**»، فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا سمعه أهل السوق، وحتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه»[١].

وهو ملخص رسالة النبي ﷺ التي صدح بها منذ بداية بعثته وحتى رحيله إلى ربه، وتُبرز حرصه الشديد على استنقاذنا من عذاب جهنم وعتق رقابنا من النار، ولذا كان من أوائل ما نطق به النبي ﷺ بعد أن نزل عليه الوحي:

«يا معشر قريش! أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا أو نفعا، يا معشر بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا، إن لك رحما وسأبلها ببلالها»[٢].

وكانت الرسالة واضحة وضوح الشمس وكان البدء بأهم الأمور وأعظم الأخطار: النار.

---

(١) صحيح: رواه الدارمي كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥٦٨٧.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٨٣. «والبِلال جمع بَلَل، وقيل هو كلّ ما بلّ الحلْق من ماءٍ أو لبن أو غيره». النهاية في غريب الأثر ١/ ٤٠٦. قال النووي: «شُبِّهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه: بلُّوا أرحامكم أي صلوها». شرح النووي على مسلم ٣/ ٨٠، وبلها يكون بمعروفها اللائق بها في الدنيا أو بالشفاعة لها يوم القيامة.

▪ عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار**». قال: وأشاح، ثم قال: **اتقوا النار**، ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: **اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»[1].

ووصيته ﷺ: «**اتقوا النار**» مفادها أن من اتقى النار ترك معاندة ربه، ونظيره أن يقول الملك لحاشيته: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا غضبي، واتبعوني وأطيعوا أمري، وافعلوا كل ما يحميكم من سخطي، وهذا من أعظم البلاغة والإيجاز الذي أوتيه نبي البلاغة والبيان.

لكن النبي ﷺ الرحيم بأمته والشفيق على رعيته عرض المشهد الأخروي والحساب الدقيق بتفاصيل أكثر وأحداث أوضح لعل قلوبنا تعي وأرواحنا تخشع وجوارحنا في النهاية تخضع، فلننجرف جميعا مع تيار جذب قوله ﷺ:

«**يقي أحدكم وجهه حر جهنم ولو بتمرة ولو بشق تمرة، فإن أحدكم لاقى الله وقائل له ما أقول لأحدكم: ألم أجعل لك سمعا وبصرا؟ فيقول: بلى فيقول: ألم أجعل لك مالا وولدا؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قُدّامه وبعده وعن يمينه وعن شماله، ثم لا يجد شيئا يقي به وجهه حر جهنم، ليق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة**»[2].

ومن معاني «**ولو بشق تمرة**»: أن الله يقبل منك أي شيء تقدِّمه، ولعلك لا تقبل ما يقبله ربُّك!! وهل تقبل أن يهاديك أحد بنصف تمرة؟!

مرَّ **الحسن البصري** بنخَّاس ومعه جارية، فقال للنخاس: أترضى في ثمنها

---

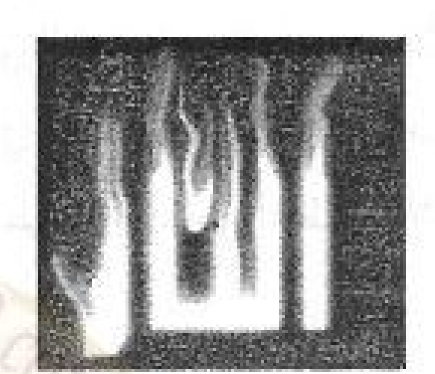
(١) صحيح: رواه الشيخان عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٥٧.

(٢) حسن: رواه الترمذي عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٤٧.



الدرهم والدرهمين؟! قال: لا. قال: «فاذهب، فإن الله عز وجل رضي في الحور العين بالفلس واللقمة»[1].

٢- الدعاء المتكرر



▪ عن **أنس بن مالك** ﷺ قال: «**كان أكثر دعوة يدعو بها: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**»[2].

وأجمل الأقوال في تفسير الحسنة في الدنيا: العبادة والعافية، وفي الآخرة: الجنة والمغفرة.

ومعنى قوله «وقنا **عذاب النار**»: احفظنا من كل شهوة وذنب يجرنا إليها، وفيه طلب العفو عن التقصير والعصيان إن هما غلبا وتمكنا.

والخوف من عذاب النار واليقين به دفع بعض الصحابة إلى تمني تعجيل العقوبة في الدنيا إن كان ذلك سيحميه من عقوبة الآخرة، وهذا من معرفتهم قدر العذاب واستشعارهم له، فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفَتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم .. كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟**». قال فدعا الله له فشفاه[3].

---

(١) الإحياء ١/ ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن أنس كما في صحيح الجامع: ٤٨٠٢.

(٣) صحيح: رواه مسلم رقم: ٢٦٨٨.



ونحن اليوم في أمس الحاجة لهذا الدعاء في مواجهة فريقين متكتّلين وحزبين متآزرين: أبالسة الإنس المتربصين بنشر الفحشاء وقطع الطريق إلى العلياء، وشياطين الجن اللذين لا ينامون، وقد عزم كل منهما على أن لا يدخلوا النار وحدهم، لذا كان أعظم سلاح يُدفع به مكر الليل والنهار من هؤلاء: الدعاء، والأمر كما قال **يحيى بن معاذ**:

«ابن آدم.. احذر الشيطان فإنه عتيق وأنت جديد، وهو فارغ وأنت مشغول، وهمته واحدة وهي هلاكك وأنت مع همم كثيرة، وهو يراك وأنت لا تراه، وأنت تنساه وهو لا ينساك، ومن نفسك للشيطان عون عليك».

- **كان من دعاء النبي ﷺ:**

«**اللهم رب جبريل وميكائيل ورب إسرافيل أعوذ بك من حرّ النار ومن عذاب القبر**»[1].

وهو كما ترى يعلّمك هذا الدعاء لتحفظه وتستحضره دوما في خاطرك، وهي الوصية التي كررها النبي ﷺ مع أم حبيبة رضي الله عنها، لكن هذه المرة بالأمر المباشر والتوجيه القاطع، واسمع عن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: قالت أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال: «**سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يُعجّل شيئا منها قبل أجله ولا يُؤخَر، ولو كنت سألت الله أن يُعيذَك من النار وعذاب القبر كان خيرا وأفضل**».

وهي وصية مباركة بركة التوجيه النبوي تعيد صياغة النفس المؤمنة على

(١) حسن: رواه النسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٠٥.



نحو يجعل الآخرة مقدَّمة على كل شيء وفي أول سلم الأولويات، وهي ليست دعوة لعدم سؤال الله من فضله بل دعوة لإعطاء الآخرة قدرها وإنزالها منازلها، وهل تساوي الدنيا في الآخرة شيئا؟! فإلى الله نشكو همة دنيوية ورغبات أرضية صرفت القلب عن حياته وتركته في سباته.

- حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا قال ﷺ:

«إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»[1].

فهذه خمس مرات يوميا على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها، جعلها الله لفريضة يذكرها المرء إجباريا، فلا مجال للنسيان أو الانشغال، وعندما تنتهي صلاتك فلا تفعل جوارحك ما يوردك ما تعوَّذ منه لسانك منذ لحظات، وإلا كنت .....!! كنت ماذا؟!

بل حرص النبي ﷺ على أن يعلِّم أصحابه هذا الدعاء ويحفِّظهم إياه كأنه سورة من القرآن!! فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ **«كان يُعلِّمهم هذا الدعاء كما يعلِّمهم السورة من القرآن، قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»**[2].

---

(١) صحيح: رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي كما في صحيح الجامع رقم: ٦٩٩.

(٢) صحيح: رواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٦٥١.



وورث أبو هريرة ﷺ المهمة واستمر في أداء الرسالة قائما بها على أكمل وجه، وذلك بطريقة مبتكرة وصيحة متكرِّرة، فكان له صيحتان كل يوم: أول النهار وآخره، يقول: ذهب الليل وجاء النهار، وعُرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا استعاذ بالله من النار[1].

يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الآثام والأوزار .. استعِذ بالله من النار.

▪ حديث أبي هريرة ﷺ: «كان إذا كان في سفر فأسحر يقول: **سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحِبنا وأفضِل علينا، عائذا بالله من النار**»[2].

فكان النبي ﷺ إذا قام في السحر وركب فيه أو انتهى في سيره إلى السحر سمعه السامع يحمد الله، وقوله «**سمع سامع**» رُوي بوجهين:

أحدهما: فتح الميم مع تشديدها «**سمَّع**»، ومعناه: بلَّغ قولي هذا رجلا فسمعه، ثم بلَّغه هو لغيره تنبيها له على فضل الذكر في السحر والدعاء في هذا الوقت المبارك.

والثاني: بكسر الميم وتخفيفها «**سَمِع**»، ومعناه: شهد شاهدٌ على حمدنا لله تعالى على نعمه وحسن بلائه.

وهذا الحمد والدعاء يقوله النبي ﷺ وهو على هذه الحال: «**عائذا بالله من النار**»، وهو ما يجعل القلب أخشع والإجابة أوقع.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦١١.

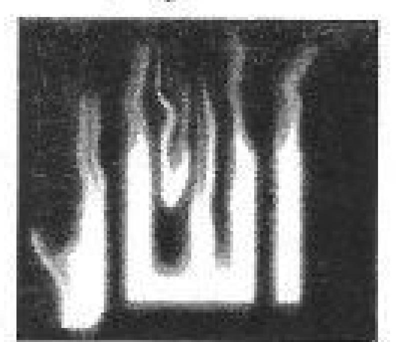
(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٣٨.



٣- التحذير العملي

▪ الذهب المطروح:

رأى النبي ﷺ خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، ثم قال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»(١)، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبدا وقد طرحه رسول الله ﷺ.



وفي ربط المعصية بالنار ربطا مباشرا أبلغ التحذير للعصاة، ونفاذ لبصيرة النبي ﷺ الذي رأى ما وراء الحدث حيث طوى الله له حدود الزمان والمكان كما لم يفعل لأحد قبله، وكم يعمد الناس اليوم إلى جمرات النار يلبسونها أو يأكلونها اليوم ومازال صدى التحذير النبوي يتردد في الآذان.

وأما قول صاحب هذا الخاتم حين قالوا له خذه لا آخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ، ففيه المبالغة في امتثال أمر رسول الله ﷺ واجتناب نهيه، وعدم التهاون في تنفيذه والترخص فيه بالتأويلات الضعيفة.

▪ الحق المحرق:

قال ﷺ وقد جاءه اثنان يختصمان:

«إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٠٩.

(٢) صحيح: رواه الشيخان ومالك عن أم سلمة .كما في صحيح الجامع رقم: ٢٣٤٢.

وقوله «قطعة من النار» تمثيل يفهم منه شدة التعذيب، فهو من مجاز التشبيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وقوله فليأخذها أو ليتركها: للتهديد لا للتخيير كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]

وفي هذا الحديث من الفوائد:

- إثم من خاصم غيره بالباطل لينال به حراما، فمن ادّعى مالا وحلف عليه ثم حُكِم له به فلا يبرأ عند الله.
- وفيه أن فصاحة اللسان وروعة البيان قد تكون ثمن العذاب في النار والهوان.
- وأن أي ربح وإن علا وأي كسب وإن غلا لا قيمة له إذا كانت النهاية له: جهنم.
- وأن من احتال لباطل بوجه من الوجوه حتى ناله فلا يحل له أخذه ولا يرتفع عنه إثمه، والقاضي بشر، والبشر لا يعلمون الغيب، ولا ما استتر من ضمائر الناس، وإنما يقضي القاضي بما سمع من إقرار وإنكار أو بينة ليس غير، فإذا كان بعض الناس أدرى بمواضع الحجة ولحن القول ربما فازوا ببعض المتاع في الدنيا لكنهم اشتروا به شقاء الآخرة.

كل هذه المعاني ثارت في قلب الصحابيين من قول النبي ﷺ فارتعدا خوفا ووجلا وبكى الرجلان، وقال كل منهما للآخر: حقي لك، فقال لهما النبي ﷺ: أما إذا فعلتما، فاقتسما وتوخيا الحق، ثم استهما، ثم تحاللا.

ولو أن كل أخوين في سوق أو شريكين في تجارة أو متنازعين على تركة

استضاءا بأنوار هذا الحديث لاختفت كثير من نزاعات اليوم وقضاياه، ولكن عمت البصائر وماتت الضمائر.

الجمر المتقد:

قال ﷺ: «**من سأل الناس أموالهم تكثرا، فإنما يسأل جمر جهنم فليستقل منه أو ليستكثر**»(١).

والمعنى: أنه سأل ليجمع الكثير من غير احتياج إليه، وإنما عوقب بهذه العقوبة لأنه أخذ ما لا يحل له، أو لأنه كتم نعمة الله عليه وذلك جحود للنعمة وكفران بالمنعم.

وفي الحديث تربية الأمة على عزة النفس والتعفف وترك المسألة من غير حاجة وعدم إراقة ماء الوجه والسعي على الرزق، والحافز والقوة المحرّكة لذلك كله: الخوف من جمر في صورة مال يأخذه المرء في الدنيا ويُعذَّب به في الآخرة.

وزجر **عمر بن الخطاب** ﷺ بالسلطان من لم ينزجر بتحذير اللسان، فقد سمع سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عشِّ الرجل، فعشَّاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال: ألم أقل لك عشِّ الرجل؟ قال: قد عشَّيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال: لا تعد»(٢).

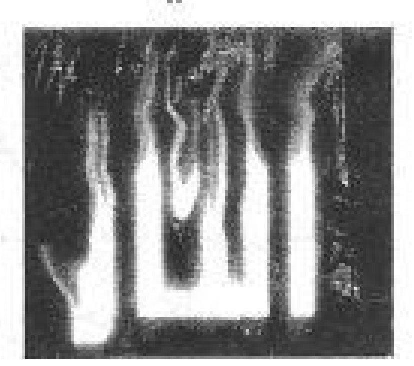
---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٧٨.

(٢) الإحياء ٤/ ٢١١.



٤-رأي العين



▪ عن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟! قال: «رأيت الجنة والنار»[١].

فقد رأى النبي ﷺ ما لم ير أحد قبله، وما لن يراه أحد بعده، وهي ليست رؤيا بشر كأي بشر، بل رؤيا المعصوم الذي لم تتلطَّخ بصيرته بمعصية قط حاشاه، ولم تمس فطرته غفلة أو خاطر غفلة وما أجله وأسماه، لذا كانت أصدق حقيقة دون أدنى زيادة أو نقصان.

وفي حديث أبي ذر ﷺ:

«والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[٢].

وفي رواية أن الصحابة بكوا على إثر ذلك بكاء شديدا، ثم انصرف عنهم رسول الله ﷺ ، فأوحى الله عز وجل إليه :يا محمد!! لم تقنِّط عبادي؟ فرجع النبي ﷺ فرجع إليهم فقال : «أبشروا وسدِّدوا وقاربوا»[٣].

لقد رأى النبي ﷺ كل ما غاب عنا، رأى النعيم الرائع وبجواره الشر المفزع في لحظة تاريخية نادرة لن تتكرر ليخرج بعدها إلى أصحابه محذِّرا ومنذرا حتى

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو يعلى عن أنس كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٦٦٣.

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي ذر كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٤٩ .

(٣) الصحيحة رقم: ٣١٩٤.



انفطرت قلوبهم لما رأوا عليه رسوهم من الخوف والوجل.

▪ قال رسول الله ﷺ: «**لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط. قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه)، فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد!! هذا مالك صاحب النار، فسلِّم عليه، فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام**».

ويرى النبي ﷺ مالك خازن النار، ويرى قبله الأنبياء واحدا واحدا ووجها لوجه، ويصفهم بأشكالهم، ثم يرى مالك خازن النار بهيئته الملائكية التي خلقه الله عليها، وكأن المراد إثبات أن ما رآه النبي ﷺ كان واضحا حقيقة لا خيالا، جسدا لا صورة، وأي صناعة على عين الله أروع من هذا!! وأي قلب نتعلم على يديه؟! وأي قلب نستقي منه!! وأي كلام يروينا مثل كلمات النور تفيض من لسان نبينا الذي ما زاغ بصره يوما وما غوى.

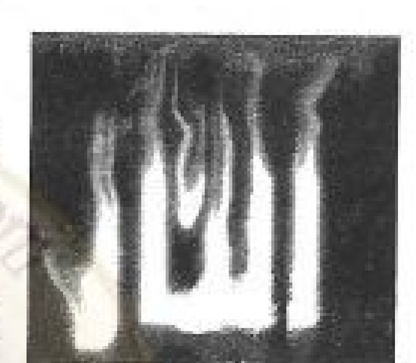
▪ قال النبي ﷺ: «**رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعدتم به حتى لقد رأيتُني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني تقدَّمت، ولقد رأيتُ النار يحطِم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت**».

إنها المشاهدة الحقيقية للنار بعيني النبي ﷺ، ففي لحظة فريدة رأى ﷺ المستقر النهائي والنهاية الأكيدة رأي عين ولمس يد، واطلع على كل ما يشحن القلب شوقا إلى الجنة أو خوفا من النار، لتكون النذارة طازجة مؤثرة ناجعة تجعل

اللسان أفصح والحجة أبين والصورة حقيقة والغيب شهادة، رأى ذلك ثم حذَّر أمته من ذلك.

٥- ضرب المثل

قال النبي ﷺ:



«مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»[1].

قال العلماء:

«أصله أن الرجل اذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه، وأشار به إليهم إذا كان بعيدا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم. قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو، وقيل معناه: أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي، فأنا أنذركم عريانا»[2].

والحديث رائع يدل على شدة حب النبي لنا وخطورة ما ينتظرنا والهول

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٦٠.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٥/ ٤٨.

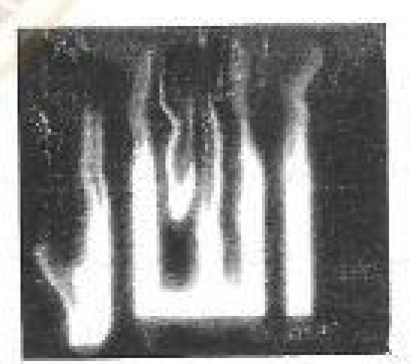


الذي رآه رسولنا، ولأن الأمر أكيد لا يحتمل شكا ولا يقبل تأجيلا فقد امتلأ الحديث بكل ألوان التأكيدات. قال **الطيبي**: «في كلامه أنواع من التأكيدات؛ أحدها: «**بعيني**»، ثانيها: قوله «**وإني أنا**»، ثالثها: قوله: «**العريان**» لأنه الغاية في قرب العدو، ولأنه الذي يختص في إنذاره بالصدق»(١).

وهكذا ورثة هذا النبي في حرصهم على هداية الخلق لدعوة الحق، ومن هنا ذهب يحيى بن معاذ إلى أن «العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل: وكيف ذلك؟! قال: «لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة»(٢).

وبعد هذه الطلقات النبوية المباركة ننتقل إلى طلقات أخرى، ومنها طلقة من طلقات الطبيعة المنطلقة بإذن الخالق سبحانه، وهي طلقة:

٦- الحر



جعل الله تعالى في الدنيا أشياء كثيرة تذكرنا بالنار وما فيها من الآلام والعقوبات، ومن ذلك حر الصيف.

قال النبي ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها وقالت: أكل بعضي بعضا، فجعل لها نفسين: نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف، فأما نفسها في الشتاء فزمهرير، وأما نفسها في الصيف فسموم**»(٣).

---

(١) فتح الباري ١١/٣١٧.

(٢) الإحياء ١/١١.

(٣) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ١٤٥٧.

وفي هذا إشارة نبوية إلى الصلة الوثيقة بين حر النار وحر الصيف، لذا كان هذا الحر من أعظم المذكِّرات بنار جهنم، وقد كرَّر النبي ﷺ ذكر هذه العلاقة حين قال:

« **أبردوا بالظهر فإن شدة الحر من فيح جهنم**»[1].

وقوله أبردوا أي أخِّروا الصلاة عن وقت شدة الحر وتجاوزوا وقتها المعتاد إلى أن تنكسر شدة الحر، وفي رواية للبخاري: «**أبردوا بالصلاة**»، والمراد بالصلاة: الظهر لأنها الصلاة التي يشتد الحر في أول وقتها.

وإن كان هذا في أمر الصلاة فإن واحدا من الحجاج آثر الحر وزهد في الرخصة، فعانى حر الشمس طمعا في نجاة القيامة: كان بعضهم إذا أحرم لم يستظل، فقيل له: لو أخذت بالرخصة، فأنشد:

ضحَّيت له كي أستظل بظله ... إذا الظل أضحى في القيامة قالصا

فوا أسفا إن كان سعيك خائبا ... ووا أسفا إن كان حظك ناقصا[2]

وأورد ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين:

«وكان بعضهم إذا رجع من الجمعة في حر الظهيرة يذكر انصراف الناس من موقف الحساب إلى الجنة أو النار، فإن الساعة تقوم في يوم الجمعة، ولا ينتصف ذلك النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. قاله ابن مسعود وتلا قوله:

---

(١) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي سعيد، وأحمد والحاكم عن صفوان بن مخرمة والنسائي عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠.

(٢) لطائف المعارف ص ٣٤٧



﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾[الفرقان: ٢٤]».

وكثير من الناس يتقي حر الشمس بيده أو بمظلة أو حتى جدار لكنه لا يكلِّف نفسه عناء أن يتقي نار جهنم فيتعرَّض لها صباح مساء بعمله السيء وصحيفة أعماله المخزية، ولهذا صدح الشاعر المؤمن بقوله:

نسيتَ لظى عند ارتكانك للهوى   وأنت توقّى حرَّ شمس الهواجر

كأنك لم تدفن حميما ولم تكن   له في سياق الموت يوما بحاضر

وهو ما أبكى صاحب القلب الحي والذاكرة الإيمانية النشطة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز الذي ما أنسته برودة النعيم حر العذاب، ولا ألهته أعباء الخلافة وأُبَّهة الحكم عن شدة الحساب يوم الحساب، وذلك حين رأى قوما في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل، وتوقوا الغبار، فبكى ثم أنشد:

من كان حين تصيب الشمس جبهته   أو الغبار يخاف الشين والشعثا

ويألف الظل كي يبقى بشاشته   فسوف يسكن يوما راغما جدثا

في ظل مقفرة غبراء مظلمة   يطيل تحت الثرى في غمها اللبثا

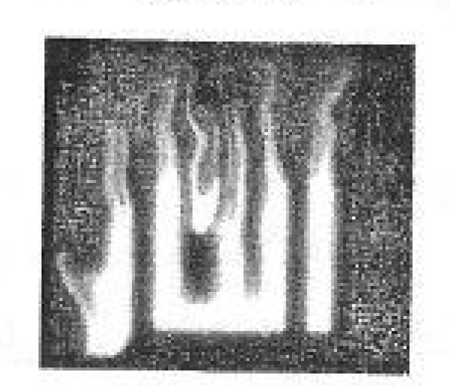
تجهَّزي بجهاز تبلغين به   يا نفس قبل الردى لم تُخلقي عبثا

ومن الأماكن ما يذكِّر بحر النار كالبلاد الحارة من الأرض، بل بعض الأماكن الخاصة التي تذكِّر بحرِّها ومنها الحمام، فكان كثير من السلف يذكرون النار بدخوله. قال أبو هريرة رضي الله عنه:

«نعم البيت الحمام يدخله المؤمن فيزيل به الدرن ويستعيذ بالله فيه من النار»[1].

(١) لطائف المعارف ص ٣٤٧.

٧- الحمّى



وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**الحُمّى حظ كل مؤمن من النار**»[١]، وفي الحديث:

«**الحُمّى كير من جهنم، وهي نصيب المؤمن من النار**»[٢].

والسبب أن الحمى وارتفاع درجة الحرارة أثناء نزلة برد أو نحوها تعمل في القلب عمل النار في الجسد، فتنقي المؤمن من الذنوب كما ينقي الكير خبث الحديد، وإذا طهر المؤمن من ذنوبه في الدنيا لم يجد حر النار يوم القيامة، لأن الناس تجد حرها عند المرور عليها بحسب ذنوبهم، فمن تطهر من الذنوب في الدنيا جاز على الصراط كالبرق الخاطف دون أن يجد من حرِّها شيئا.

والمؤمن في دنياه لا ينفك عن ذنب يصيبه، فتعجل عقوبته لطفا به ليلقى ربه طيبا، وقد كان أبو هريرة ﷺ يؤثر الحمى على سائر الأمراض لسبب عجيب قائلا:

«أحب الأوجاع إلي الحمى لأنها تعطي كل مفصل حقه من الأجر بسبب عموم الوجع»[٣].

ولهذا الفضل **نهى النبي ﷺ عن سبِّها**، وذلك لما دخل النبي ﷺ على أم السائب أو أم المسيب، فقال: مالك يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟

---

(١) حسن: رواه البزار عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٨٧.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن أبي ريحانة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٩٠.

(٣) فيض القدير ٣/ ٤٢١.

قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال لها: «لا تسبي الحُمّى، فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[1].

وليست الحمى هي المقصودة من الأمراض فحسب بل كل ألم يجده الإنسان، وأي ضيق أو كرب يمر به، يتذكر به النار، فإذا كان هذا الألم «الصغير» قد بلغ به من الضيق منتهاه، وربما جعله يتقلب على سرير الألم ومهاد الشوك، وقد تكون بعض الآلام من الصعوبة بحال يتمنى معها المرء الخلاص ولو بالموت فلا يجده، فكيف بالألم «الأكبر» في النار؟!

كان سفيان الثوري إذا عاد رجلا ذكر هذا المعنى الدقيق الذي لا يشعر به سوى أصحاب الحساسية الإيمانية فقال: «عافاك الله من النار»[2].

وإذا ذكرتَ النار عند مرضك هان عليك وخفَّ لأن النار تأكل ما سواها. كانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكروا لها ذلك فقالت: «ما أُصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب»[3].

ولذا تختلف مقاييس أهل الآخرة في الصحة والمرض وسعة العيش وضيقه والسعادة والتعاسة، حيث يُقاس كل هذا بحسب بعده عن النار أو قربه منها، ومن هنا كان أبو الدرداء ﷺ إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال:

«أصبحت بخير إن نجوتُ من النار»[4].

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٢١.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٣٥٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٧٠

(٤) تسلية أهل المصائب ١/ ٤٠.

٨- نار الدنيا



قال تعالى:

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[الواقعة: ٧٣]

تذكيرا بنار جهنم حيث علق الله بها أسباب المعايش كلها، وعمت البلوى بالحاجة إليها لتكون حاضرة أمام الناس ينظرون إليها، ويذكرون ما أوعدوا به كلما استخدموها.

ومن هنا أحرق القوم شهواتهم بذكر نار الآخرة؛ يذكرونها بالنظر إلى نار الدنيا، فكان غير واحد منهم يذهب إلى الحدَّادين ينظر إليهم يبتغي بتلك النظرة الذكرى والعظة.

وربما ترك مس النار أثرا أقوى لا يُنسى، فكان **عمر بن الخطاب** ﷺ ربما توقد له النار ثم يدني يده منها، ثم يقول: يا ابن الخطاب!! هل لك على هذا صبر؟! ومثله من الصحابة **الأحنف بن قيس** في صحوة حسابية فريدة؛ يجئ إلى المصباح بالليل فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حس حس، ثم يقول: ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!



الله هو المُسعِّر!!

ولعظمة النار فالله وحده هو الذي يعذِّب بها، وليست نار الآخرة هي المقصودة فحسب بل نار الدنيا كذلك، فلا أحد مسموح له أن يعذِّب بنارها إلا الحق سبحانه، وهو ما ورد في حديث حمزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمَّره على سرية قال له: «**إن وجدتم فلانا فاحرقوه بالنار**»، فولَّيت فناداني فرجعت إليه فقال: «**إن وجدتم فلانا فاقتلوه ولا تُحرِقوه، فإنه لا يُعذِّب بالنار إلا رب النار**»[1].

ورأى النبي ﷺ قرية نمل قد حرَّقها أصحابه، فقال: **من حرَّق هذه؟!** قال الصحابة: نحن. قال: «**إنه لا ينبغي أن يُعذِّب بالنار إلا رب النار**»[2].

ذكاء مؤمنة

لكن جارية مؤمنة تقية ذكية لجأت إلى الإحراق بالنار تنبيها لا تقتيلا وتذكرة لا تهلكة، وهي جارية كان يملكها عبد الله بن مرزوق وكان من حاشية الخليفة المهدي، وما نعرف اسمها لكن عرفنا فعلها الجميل، فشرب سيدها ذات يوم على لهو وسماع، فلم يصل الظهر والعصر والمغرب، وفي كل ذلك تنبهه جارية حظية عنده، فلما جاز وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله فانزعج وقال: ما هذا؟! قالت: جمرة من نار الدنيا، فكيف تصنع بنار الآخرة؟! فبكى بكاء شديدا، ثم قام إلى الصلاة ووقع في نفسه مما قالت الجارية، فلم ير شيئا ينجيه إلا مفارقة ما هو فيه من ماله، فأعتق جواريه، وتحلل من معامليه، وتصدَّق بما

---

(١) صحيح: رواه أبو داود كما في صحيح أبي داود رقم: ٢٣٢٧.

(٢) صحيح أبي داود رقم: ٢٣٢٩.



بقي حتى صار يبيع البقل، وتبعته على ذلك الجارية، فدخل عليه **سفيان بن عيينة** **وفضيل بن عياض**، فوجدا تحت رأسه لبنة وليس تحته شيء، فقال له **سفيان**: إنه لم يدع أحد لله شيئا إلا عوَّضه الله منه بدلا، فما عوَّضك مما تركت له؟! قال: «الرضا بما أنا فيه»[1].

وألزم نفسه العزائم يستدرك بها ما أوقعه إبليس فيه من الهزائم، فقد رؤي **عبد الله بن مرزوق** في مكة يطلب الكعبة فسئل: راكبا جئت أم راجلا؟! فقال: «ما حق العبد العاصي أن يرجع إلى باب مولاه راكبا، لو أمكنني جئت على رأسي»[2].

وكل هذا في ميزان حسنات جارية!!



(١) التوابين ص ١٦٢.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص ٣٣٨ فقرة رقم: ٩١٢ – ط مؤسسة الكتب الثقافية.



الفصل الثالث

طاعات مكافحة النيران



طاعات مكافحة النيران

تمثل الطاعات خط الدفاع الأول للمؤمن وقوة الحماية المتقدِّمة في وجه الشيطان، وعلى أعتابها تقف المعاصي متوثبة، ويتربص إبليس متحفزًا، ينتظر ثغرة في الجدار ليخترق، وهذا المعنى نلمحه من بريق الحديث النبوي:

«لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخرهم الله في النار»[1].

فما العلاقة بين الصف الأول والنار إن لم تكن ما قلت!!

فإذا هجم عليك الشيطان وآذاك ولم ترد على الشيطان ضربته أو تسترد ما سلبه منك؛ زادت جرأته عليك وتقدَّم على قلبك أكثر وأكثر، وسلب من رصيد الإيمان قدرا أكبر، وأنت السبب!!

وهذه الطاعات التي تقي عذاب النار وفضلها وصفتها وعددها، فكل ذلك معروف لنا تفصيلا، لم يقصِّر في توضيحه الرسول ﷺ مقدار شعرة أو مثقال ذرة حاشاه. قال ﷺ: «ما بقي من شيء يُقرِّب من الجنة ويُباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم»[2].

وبذلك لم يعد لأحد فينا عذر، وتمَّت البشارة والنذارة الكاملة، وبقيت الاستجابة منوطة بحيوية القلوب ويقينها.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٩٩.

(٢) صحيح: كما في السلسلة الصحيحة عن أبي ذر رقم: ١٨٠٣.



تنبيه لازم للفهم

ستمر عليك في هذا الباب أحاديث نبوية فيها قوله ﷺ: «حرَّم الله عليه النار» أو قوله: «حُرِّم على النار»، فما المقصود منها؟! وهل كل من فعل طاعة قلت أو كثرت، داوم عليها أم لم يداوم أعتق من النار؟!

المقصود بالنار في هذه الأحاديث: نار الخلود، وإذا تجنب العبد الذنوب أو تاب أو عفى الله عنه دخل الجنة، وظاهر هذه الأحاديث يقتضي عدم دخول أي أحد النار لما فيها من التعميم، لكن قامت الأدلة القطعية على أن طائفة من عصاة الموحدين يُعذَّبون ثم يخرجون، لذا فظاهر هذه الأحاديث غير مراد، فكأنه ﷺ أراد أن ذلك مقيَّد بمن عمل صالحا، أو في من عمل هذه الأعمال ثم مات عليها، أو خرجت هذه الأحاديث مخرج الغالب؛ إذ الغالب أن الموحد يعمل الطاعة ويجتنب المعصية حتى يُختم له.

قال المناوي معلقًا على حديث من هذه الأحاديث:

«قد يتخذ نحو هذا الحديث البطلة والإباحية ذريعة إلى طرح التكاليف ورفع الأحكام وإبطال الأعمال ظانين أن الشهادة كافية في الخلاص، وذا يستلزم طي بساط الشريعة وإبطال الحدود، ويوجب كون الترغيب في الطاعة والتحذير من المعصية غير متضمن طائلا، وبالأصل باطلا، بل يقتضي كون الانخلاع من ربقة التكليف والانسلال عن قيد الشريعة والخروج عن الضبط والولوج في الخبط، وترك الناس سدى من غير مانع ولا دافع، وذلك مُفضٍ إلى خراب الدنيا والأخرى»[1].

لكن يبقى أن من حصَّل من أسباب النجاة والعتق أكثر من غيره كانت

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٥٩.



فرصه في النجاة أوفر، ولحق بالصحاب الكرام الذين بلغ من كرامتهم على الله ومكانتهم عنده أن أُخبِروا بنجاتهم وهم أحياء، وعتقهم من عذاب ربهم ،وهم لا يزالون يدبون على وجه الأرض، وإن لم يكن الصدّيق في مقدمة هؤلاء فمن يكون؟!

عن عائشة أن **أبا بكر** ﷺ دخل على رسول الله ﷺ فقال: «**أنت عتيق الله من النار، فيومئذ سُمِّي عتيقا**»[1].

فإذا أردت أن تلحق بالعتيق، فما عليك إلا أن تسلك طريقه وتقلّد سلسلة أعماله وقائمة طاعاته، وإليك أولها:

١- الدموع النازفة



وعينان بكتا من خشية الله هما عينان لا تمسهما النار، فوجب تقديم الشكر لهما على هذه الخدمة الجليلة بل على هذه النجدة المصيرية التي استنقذت صاحبها من عذاب الخلد، وهذا هو الجمال الحقيقي للعين، وإلا فما جمال عين تسيل في النار غدا وتتحول إلى جمرتين!!

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، يعني: يبكي.

وبكاؤه ﷺ إنما هو محض تعليم للأمة، وأما هو فأعظم الآمنين الفرحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) صحيح المشكاة رقم: ٢٩٠٥.

وممن استجاب لدعوة رسوله: يزيد بن مرثد الذي سُئل: مالي أرى عينك لا تجف؟! قال للسائل: وما مسألتك عنه؟! قلت: عسى الله أن ينفعني به. قال:

«يا أخي!! إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، ووالله لو لم يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريا أن لا تجف لي عين»[1].

أنا إن بكيت فلن أُلام على البكا ... فلطالما استغرقت في العصيان

يا ربُّ عبدك من عذابك مشفقٌ ... بك مستجيرٌ من لظى النيران

ارحم تضرعه إليك وحزنــه ... وامنــن عليه اليوم بالغفران

وليس بعد الموت إلا أحد المستقرين؛ إن لم تكن الجنة كانت الأخرى: النار!! لذا لما عوتب عطاء السلمي في كثرة بكائه، فقال: «إني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله تعالى مثّلت نفسي بينهم، فكيف لنفس تُغلُّ يدها وتُسحَب إلى النار ولا تبكي؟»[2].

ويساعد على البكاء ويستجلب دموعه: روحانية الصلاة والخشوع فيها، لذا لما سئل سعيد بن عبد العزيز: ما هذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ قال: «ما قمتُ في صلاتي إلا مُثّلت لي جهنم»[3].

والبكاء في حقيقته ثمرة من ثمار خشية الله، فقد قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء: ١٠٩]

لكن لا يحس بهذا إلا من أحرق الخوف قلبه، وزاد اليقين شفافية نفسه،

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٦٤.

(٢) الياقوتة ص ٥٣.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٧٤ بتصرف.

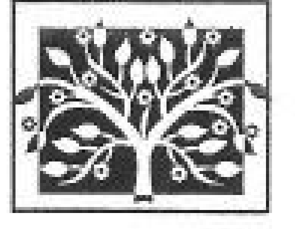
فرأى ما لا يراه الغافلون، وعلم ما لم يعلموا، وكأن عامة الناس عمي، ولا يبصر غير الموقنين، وقد أطلق **عمر بن ذر** على كل من انتمى إلى هذا الصنف المبارك لقب: النائحة الثكلى، فقد قال **ذر بن عمر** لأبيه **عمر بن ذر**: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب؟! فقال: يا بني!! ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة[1].

وآخرون ما بكوا في الدنيا قط فبكوا في الآخرة، ولكن هيهات.. بعد فوات الأوان وحلول الكارثة؛ ذهب العمل وجاء العقاب، **ما بكوا** على تضييع وقت أو مقارفة ذنب أو فوات طاعة، وما تأسفوا على عظم المصاب فنالوا أشد العقاب. قال ﷺ:

«إن أهل النار ليبكون حتى لو أُجرِيت السفن في دموعهم جرت، وإنهم ليبكون الدم»[2].

فأي البكائين تختار ولأي الفريقين تنتسب؟!

مع علمك أن البكاء من موجبات الرحمة لعل الله يراك على حالتك هذه فيرحمك، وإذا كانت النار تستجير لك عند ربك فتقول: اللهم أجره مني كلما استجرت الله منها، فما ظنك بفعل ربك الرؤوف الرحيم إذا رآك ترتجف بالبكاء بين يديه؟!



---

(١) الإحياء ٤/ ١٨٧.

(٢) حسن: رواه الحاكم عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٣٢.

٢- اشتر نفسك من الله



لقول النبي ﷺ:

«**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(١).

وفي رواية الطبراني:

«**اجعلوا بينكم وبين النار حجابا ولو بشق تمرة**»(٢).

وقد وعت الدرس أم المؤمنين عائشة فأنفقت ولو كان الإنفاق عنبة واحدة، وتصدَّق **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه بعنبة حين لم يجد غيرها، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه تصدَّق بتمرة، ولم لا وقد حفظوا من كتاب ربهم: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ**﴾ [الزلزلة: ٧]، وتعلموا من نبيهم: «**لا تحقرن من المعروف شيئا**».

وحتى لو كانت هذه التمرة مبذولة لمن تجب له النفقة عليك، كما حدث مع عائشة رضي الله عنها التي روت:

جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن عدي كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥.

(٢) حسن: رواه الطبراني عن فضالة بن عبيد كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٣.

(٣) صحيح: كما في صحيح مسلم رقم: ٢٦٣٠.

ومن أعلى الهمم التي طلبت العتق من النار بالسير في هذا الطريق: الصحابي الجليل معاذ بن عفراء ﷺ -صاحب العقبتين وبدر- الذي كان لا يدع شيئا إلا تصدق به ، فلما وُلِد له ولد استشفعت إليه امرأته بأخواله فكلموه وقالوا له: إنك قد أعلت ، فلو جمعت لولدك ، فقال:

«أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار»[1].

وليست الوقاية من عذاب النار فحسب، بل وما قبل عذاب النار، وذلك من أهوال يوم القيامة في ساحة الحشر .. تأتي الصدقة لتظلل صاحبه وتحميه من الشمس الدانية المحرقة. قال ﷺ: «**كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس**»[2].

فالناس في حر يوم القيامة يتألمون ويُقاسون ويُرهقون وصاحبنا المنفق في الظل مستريح يتبرّد!!

قال المناوي:

«كأن صدقته تجسد كالطود العظيم فيكون في ظله أو هو مجاز، وقال **العامري**: ليس المراد بها ظله من حر الشمس فقط بل تمنعه من جميع المكاره وتستره من النار إذا واجهته، وتوصله إلى جميع المحاب، من قولهم: فلان في ظل

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٢، ومن أخبار جوده التي كان يرجو به عتق رقبته من النار ما رواه أفلح مولى أبي أيوب قال: كان عمر يأمر بحلل تنسج لأهل بدر، فبعث إلى معاذ بن عفراء حلة فقال لي معاذ: يا أفلح.. بِعْ هذه الحلة فبعتها له بألف وخمسمائة درهم، ثم قال: اذهب فابتع لي بها رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرأ اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأي .. اذهبوا فأنتم أحرار. صفة الصفوة ١/ ٤٧٣.

(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر كما في صحيح ص رقم: ٤٥١٠.



فلان، وتمسك به من فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، ولو لم يكن في فضل الصدقة إلا أنها لما تفاخرت الأعمال كان لها الفضل عليهن لكفى»(1).

وللنساء أوجب

والصدقة في حق النساء أوجب، والسبب نجده بين ثنايا حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال:

شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحثَّ على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: «**تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم**»، فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: «**لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير**». قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن(2).

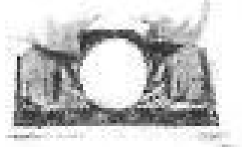
وانظر كيف الربط بين الخوف والعمل في الحديث ثم قلِّد.

٣ - الصلاة :



فريضة أو نافلة، ونبدأ بالأهم وهو :

- **الفريضة :**



عن حنظلة الكاتب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل**

(١) فيض القدير ٢/ ٣٦٢.

(٢) صحيح: رواه مسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله كما في إرواء الغليل ٣/ ١١٩.

الجنة، أو قال: وجبت له الجنة، أو قال: حُرِّم على النار»[1].

وهي بمنزلة الصاحب الذي يدفع عنك كل ما يؤذيك، ويحميك من كل من يعاديك، كما فهم ذلك **الأسود بن هلال** تمنى طول البقاء لهذا السبب، وذلك لما عاده أحد أصحابه قائلا له: قد كنتُ أُحِبُّ أن تُنعى لي، فقال: «إن لي صاحبا خيرا منك، خمس صلوات في كل يوم وليلة، خمسون حسنة»[2]، وفي رواية: «بئس ما تقول!! أليس أسجد كل يوم وليلة أربعا وثلاثين سجدة»[3].

وبعض الصلوات أشق وتحتاج إلى مجاهدة أشد وجهد أصعب، لذا شجَّع النبي ﷺ عليها بمكافآت مجزية فقال:

«لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، يعني الفجر والعصر»[4].

وهذا لأن من تكبَّد مشقة هاتين الصلاتين فهو مستحضر لثوابهما وخائف من العقوبة النارية المترتبة على تضييعهما، فهلمَّ بعيداً عن النار بالمحافظة على المكتوبات.

ونائم الصبح هالك!!

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«من صلى الصبح فهو في ذمة الله تبارك وتعالى، فلا تخفروا الله تبارك وتعالى

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد بإسناد جيد ورواته رواة الصحيح كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٨١.
(٢) حلية الأولياء ٤/ ١٠٤.
(٣) السابق ٤/ ١٠٤.
(٤) صحيح: رواه مسلم عن أبي زهيرة عمارة بن روبية كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٤٥٧



في ذمته، فإنه من أخفر ذمته طلبه الله تبارك وتعالى حتى يكبه على وجهه»[1].

ولهذا الحديث قصة تُظهر حفظ الله لمن حفظه وحراسته لمن حرس حدوده، ذلك أن الطاغية الحجاج بن يوسف أمر سالم بن عبد الله بقتل رجل، فقال له سالم: أصليت الصبح؟! فقال: الرجل نعم، فقال له: انطلق، فقال له الحجاج: ما منعك من قتله؟! فقال سالم: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ: من صلى الصبح كان في جوار الله يومه، فكرهت أن أقتل رجلا أجاره الله، فقال الحجاج لابن عمر: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عمر: نعم.

النار بِدارِك شبَّت!!

قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة ليؤذَّن لها، ثم آمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأُحرِّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده؛ لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»[2].

وقوله ﷺ: «عليهم» تأكيد على أنهم المقصودون من عملية الحرق وليس مجرد البيوت والأموال!! الرسول الذي بعثه الله رحمة للعالمين يحرِّق البيوت على رؤوس أصحابها؟! كيف؟!

لأن الطبيب قد يبتر عضوا من أعضاء الجسد رجاء إنقاذ الجسد كله، والمريض يكابد مشقة العلاج رغبة في الشفاء، والوالد الرحيم قد يضرب ولده

---

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد والبزار ورواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه عن عبد الله بن عمر كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٤٦٢.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومالك والنسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع: ٧٠٧٢.

إذا وجد فيه اعوجاجا ليصرفه عن ما يضره، وكذلك رسول الله يعلم أن نار الدنيا أهون على الناس من نار الآخرة، ولأن تحترق على صاحبها هنا خير من أن تضطرم في جسده في سقر ولا مفر، فتحذيرات الدنيا ناجعة، وتحذيرات الآخرة لا طائل من ورائها حيث لا فرصة هناك للاستدراك.

وآخر جملة في الحديث تستوجب وقفة:

«لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء».

فالعَرْق هي العظام التي يؤخذ منها هبر اللحم ويبقى عليها لحم رقيق فيكسر ويطبخ ويؤكل ما على العظام من لحم، ومرماتين هي ما بين ظلفي الشاة من اللحم وهو لحم يسير حقير، وقيل هو سهم صغير يُتعلَّم به الرمي، وهو أحقر السهام وأرذلها، والمعنى أنه لو دُعي هذا المسكين إلى أن يُعطى سهمين من هذه السهام لأسرع الإجابة حرصا على الشيء الحقير من مطعوم أو ملعوب به على حساب ما يحصل عليه في الآخرة من رفيع الدرجات ومنازل الكرامة، فلو علم أنه يدرك هذا الشيء الحقير من متاع الدنيا بحضوره إلى الصلاة لبادر إلى حضور الجماعة إيثارا لدنياه على أخراه، ورسول الله ﷺ يُقسِم على هذا تأكيدا، وما أكثر هؤلاء!!

بين الفجر والوظيفة!!

إخوتاه..

يخرج أحدنا كل يوم إلى عمله باذلا قصارى جهده ليصل في موعده، ولتتأمل يوما تأخرتَ فيه عن العمل وكان لديك اجتماع هام، أو موعد مصيري مع مدير أو شخصية هامة كأمير أو حاكم أو رئيس، هل سيكون حالك وقتها مثل حالك وقت الفجر؟! اسمع ما قال عمر ﷺ لصاحب هذه الحال؟!



فقد عمر بن الخطاب ﷺ رجلا في صلاة الصبح، فأرسل إليه فجاء، فقال: أين كنت؟! فقال: كنتُ مريضا ولولا أن رسولك أتاني لما خرجت، فقال عمر: «فإن كنت خارجا إلى أحد فاخرج للصلاة»[1].

■ **النافلة :**

وأما صلاة النافلة ودورها في درء النار:

قال رسول الله ﷺ «**من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حُرِّم على النار**»[2].

بل حتى إذا دخل العبد النار فترة ثم دخل الجنة، لم تجرؤ النار في فترة تعذيبه على أن تقترب من أعضائه الساجدة تكريما لها، وتعظيما وتشريفا لهذه العبادة الجليلة. قال ﷺ: «**تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود**»[3].

قال النووي :

«ظاهر هذا أن النار لا تأكل جميع أعضاء السجود السبعة التي يسجد الانسان عليها، وهي الجبهة واليدان والركبتان والقدمان، وهكذا قاله بعض العلماء وأنكره القاضي عياض رحمه الله وقال المراد بأثر السجود الجبهة خاصة والمختار الاول»[4].

---

(١) مصنف أبي شيبة ١/ ٣٠٣.

(٢) صحيح: رواه أبوداود عن أم حبيبة كما في صحيح أبي داود رقم: ١١٣٠.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة كما في صحيح ابن ماجة رقم: ٤٣١٧.

(٤) شرح النووي ٣/ ٢٢.

٤- الجهاد في سبيل الله

قال رسول الله ﷺ:



«**ما اغبرّت قدما عبد في سبيل الله إلا حرّم الله عليه النار**»(١).

لأن الجزاء من جنس العمل، فلماذا يدخل عبد النار وقد سبق له أن خاض نار الجهاد وتعرّض لغبار القتال، فكافأه الله بأن يقيه غبار جهنم. قال رسول الله ﷺ:

«**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا**»(٢).

وزاد النسائي في رواية أخرى: «**في منخري مسلم أبدا**»(٣).

فكأنهما ضدان لا يجتمعان، وكأن غبار الجهاد ينادي: أنا الأمان من دخان جهنم، وكأن الله يقول: لا أجمع عليكم عذابين.

وبشارة أخرى للمجاهد يهديها له رسول الله ﷺ، وهذا إذا قتل كافرا بيده، فيقول ﷺ: «**لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا**»(٤).

فهنيئا لساداتنا المجاهدين اليوم في فلسطين وغيرها من ديار الإسلام المغتصبة؛ بما أمنوا من عذاب النار حيث خاضوا نار الجهاد ولهيب المقاومة دفاعا عن شرف الأمة.

---

(١) صحيح: رواه الأربعة عن مالك بن عبدالله الخثعمي كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٤٣.

(٢) صحيح: رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦١٦.

(٣) صحيح: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦١٧.

(٤) صحيح: رواه مسلم وأبو داود ورواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٣١٣.

٥- دافع عن أخيك



قال ﷺ:

«من ذبَّ عن عِرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يُعتقه من النار»[١].

وفي الحديث تربية على الذاتية وإنكار المنكر والجرأة في مواجهة الإثم والمروءة الإجبارية التي يتعلمها المرء طمعا في عتق رقبته من النار. قال المناوي:

«وفيه أن المستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، فإن قدر على القيام أو قطع الكلام لزمه، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشتهٍ ذلك بقلبه فذلك نفاق. قال الغزالي: ولا يكفي أن يشير باليد أن اسكت أو بحاجبه أو رأسه وغير ذلك، بل ينبغي الذب عنه صريحا كما دلت عليه الأخبار»[٢].

التلميح لا يغني إذن عن التصريح، والذب الصريح باللسان ليس غير هو الذي يصرف عنك النار ويحميك منها. قال ﷺ:

«من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»[٣].

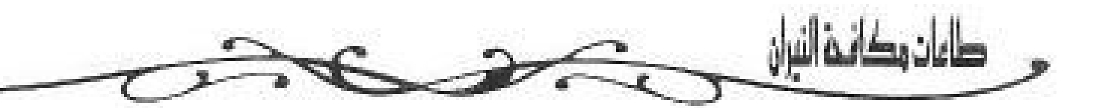
والسبب في ذلك أن «عرض المؤمن كدمه، فمن هتك عرضه فكأنه سفك دمه، ومن عمل على صون عرضه؛ فكأنه صان دمه، فيُجازى على ذلك بصونه

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أسماء بنت يزيد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٤٠.

(٢) فيض القدير ٦/ ١٢٧.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع: ٦٢٦٢.



عن النار يوم القيامة»[1].

هذا إن كان العبد ممن استحق دخول النار، فإن كان من أهل الجنة كانت مكافأته: زيادة نعيمه ورفعة درجاته في الجنة.

هذا ثواب الآخرة، لكن ماذا عن ثواب الدنيا؟! أليس فيها ثواب معجَّل أو حسنة قريبة؟!

بلى .. وهذه هي النصرة الربانية التي يتمتَّع بها المرء سبق وأن بشَّر بها النبي ﷺ في قوله :

«من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة»[2].

نصره في الدنيا بأن أوقف له من يرد عنه غيبته ويدافع عنه من ورائه ويسُلُّ لسانه نصرة له، أما في الآخرة فالنصرة الأهم في مواجهة العذاب.

٦- اللين :

قال ﷺ:

«ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدا؟ على كل هيِّن ليِّن قريب سهل»[3].

وفي رواية أحمد:

«حُرِّم على النار: كل هيِّن ليِّن سهل قريب من الناس»[4].

---

(١) فيض القدير ٦/ ١٣٥.

(٢) حسن: رواه البيهقي والضياء عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٧٤.

(٣) صحيح: رواه الترمذي والطبراني عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦٠٩.

(٤) صحيح: رواه أحمد عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٣٥.



قال الماوردي:

«بين بهذا الحديث أن حسن الخلق يدخل صاحبه الجنة ويحرِّمه على النار، فإن حسن الخلق عبارة عن كون الإنسان سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة، لكن لهذه الأوصاف حدود مقدرة في مواضع مستحقة، فإن تجاوز بها الخير صارت ملقا، وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا، والملق ذل والنفاق لؤم»(1).

واللين ألوان لا يكون المرء لينا حتى يجمع بينها، فمن ألوان اللين:

لين القول وهو لون من ألوان الصدقات، هكذا عدَّه رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكلمة اللينة صدقة**»(2).

وأعلاها: الكلمة اللينة مع من أغلظ لك القول، فترد إساءته بإحسان، وتأسر قلبه بخلقك النبيل النادر.

ولين القلب مع الله: خشوعه وإنابته والوجل منه سبحانه خاصة عند سماع المواعظ والآيات، وأعلاها كتاب الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]

ولين معاملة الناس:

وذلك بقبول اعتذارهم إن أساؤوا وتجاوزوا:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن بَرَّ عندك فيما قال أو فجرا

(١) فيض القدير ٣/ ١٠٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد رقم: ٨٠٩٦. تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.



فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أجلّك من يعصيك مستترا

ومن لين المعاملة: حسن القضاء، وفي القمة منه رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلا تقاضى رسول الله ﷺ؛ وكان له على رسول الله ﷺ بعيرا، فأغلظ له، ، فهمّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه». قالوا: لا نجد إلا أفضل من سِنّه. قال: «اشتروه فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء»(1).

ومن لين المعاملة: التسامح بيعا وشراءً. قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يُحبُّ سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء»(2).

وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، ومعاملتهم بالعفو، والتنازل عن بعض حقك ليصفو لك قلب أخيك، ونظمها أبو سليمان الخطابي لك شعرا فقال:

تسامحْ ولا تستوفِ حقك كله وأبق فلم يستوف قطُّ كريمُ

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ



---

(1) صحيح: رواه البخاري رقم: ٢٢٦٠.

(2) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٨٨.

٧- القرآن:



قال رسول الله ﷺ:

«لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار»[(١)].

قال المناوي في الفيض:

«لو صُوِّر القرآن وجُعل في إهاب، وأُلقي في النار ما مسته ولا أحرقته ببركته، فكيف بالمؤمن المواظب لقراءته ولتلاوته؟!

وقيل: المعنى من علَّمه الله القرآن لم تُحرقه نار الآخرة، فجعل جسم حافظ القرآن كإهاب له. قال الطيبي: «وتحريره أن التمثيل وارد على المبالغة والفرض؛ أي ينبغي ويحق أن القرآن لو كان في مثل هذا الشيء الحقير الذي لا يؤبه به ويُلقى في النار ما مسته، فكيف بالمؤمن الذي هو أكرم خلق الله، وقد وعاه في صدره، وتفكَّر في معانيه، وعمل بما فيه كيف تمسه فضلا عن أن تُحرقه»[(٢)].

فأي تكريم لحامل القرآن أشرف من هذا؟! وأي شرف للقرآن أجلُّ؟! فلنكن أهلا لحمل هذا الكنز الثمين وإلا كنا نحن الخاسرين. قال ﷺ: **«القرآن شافع مُشفَّع، وماحل مُصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»**[(٣)].

---

(١) حسن: رواه الطبراني عن عقبة بن عامر وعصمة بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٨٢.

(٢) فيض القدير ٥/ ٣٢٤ بتصرف.

(٣) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن جابر والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٤٣.



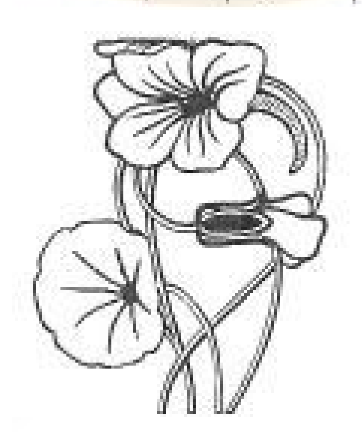
والماحل هو الساعي؛ بمعنى أن من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع له مقبول الشفاعة عند الله في العفو عن زلاته، ومن ترك العمل به شهد عليه، ومن شهد عليه القرآن بالتفريط فهو في النار، حتى ولو كان قارئا متقنا حافظا، وتذكَّر أن أول من تُسعَّر بهم النار ثلاثة منهم حامل للقرآن، وليرتجف قلبك وجلا وأنت تسمع هذا الحديث المخيف:

عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قام ليلة بمكة من الليل، فقال: اللهم هل بلغت ثلاث مرات، فقام عمر بن الخطاب وكان أواها، فقال: اللهم نعم وحرضت وجهدت ونصحت، فقال: «ليظهرن الإيمان حتى يُردُّ الكفر إلى مواطنه، ولتخاضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن، يتعلمونه ويقرؤونه ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن ذا الذي هو خير منا؟ فهل في أولئك من خير؟».

قالوا: يا رسول الله من أولئك؟ قال:

«أولئك منكم وأولئك هم وقود النار»[1].

اللهم سلِّم!! اللهم سلِّم!! اللهم سلِّم!!



(١) حسن لغيره: رواه الطبراني في الكبير كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٣٧.


الفصل الرابع
وللنار عشاق

قال رجل للحسن البصري: أوصني!! فقال الحسن:

«لا تذنب فتُلقي نفسك في النار؛ مع أنك لو رأيت أحدا يلقي برغوثا في النار لأنكرتَ عليه، وأنت تُلقي نفسك في النار كل يوم مرات كثيرة ولا تُنكر عليها!!»[1].

ولمعرفة قدر هذه العقوبة الأخروية وبشاعتها قارنها دائما بالعقوبة الدنيوية كما سبق وأن فعل يونس بن عبيد، وذلك بينه وبين نفسه، ثم خرج لنا بهذا القول البليغ والنتيجة:

«اليد تقطع في خمسة دراهم، ولا شك أن أصغر ذنوبك أقبح من سرقة خمسة دراهم، فلك بكل ذنب قطع عضو في الآخرة»[2].

وللأسف بعض الناس يعشقون النار، وكثير منهم لسان حالهم ينطق بذلك، رغم أنهم يستعيذون بالله من النار فور سماع اسمها، إلا أن صحائف الأعمال تكذِّب صحائف الأقوال، ومن هؤلاء:

---

(١) تنبيه المغترين ص ٨٨

(٢) تنبيه المغترين ص ١١٥



١- النساء:

قال رسول الله ﷺ: «**عامة أهل النار النساء**»(١).

وقد يكون السبب في هذا حديث: «**صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لى رؤوسهن كأمثال أسنمة البخت**»، ..

التبرج إذن هو سر البلاء!! لذا انهار معنى الحجاب واضمحل الحياء ونشر اليهود ثقافة العري وملأوا بها وسائل الإعلام والفضائيات، وخلقوا من العابثات قدوات تتبارى المسكينات في تقليدهن ليدخلن من وراءهن النار.

وسبب ثانٍ: قال ﷺ:

«**إن الفساق هم أهل النار**». قيل: يا رسول الله ومن الفساق؟ قال: النساء. قال رجل: يا رسول الله!! أولسن أمهاتنا وأخواتنا وأزواجنا؟ قال: «**بلى، ولكنهن إذا أُعطين لم يشكرن، وإذا ابتُلين لم يصبرن**»(٢).

٢- مانع الزكاة

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما**

(١) صحيح: رواه الطبراني عن عمران بن حصين كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٧٠.
(٢) الصحيحة رقم: ٣٠٥٨.



بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال:

«ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وِردها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بِقاعٍ قرقر (مستوي لا انخفاض ولا ارتفاع)، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا، تطؤه بأخفافها، وتعُضُّه بأفواهها، كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أُخراها، وكلما مرَّ عليه أُخراها رُدَّ عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال:

«ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قرقر لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عقصاء (الشَّاة الملتوية القُرون)، ولا جلحاء (لا قرن لها)، ولا عضباء (مشقوقة الأذن) تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

وخصَّ الله هذه الثلاثة: جنبه وجبينه وظهره لأن التألم بكيِّها أشد لما فى داخلها من الأعضاء الشريفة، وقيل ليكون الكي فى الجهات الأربع من الأمام والخلف وعن اليمين واليسار، وقيل لأن الجمال فى الوجه أو الجبين، والقوة فى الظهر والجنبين، والإنسان إنما يطلب المال للقوة والجمال»[1].

---

(١) يقظة أولي الاعتبار ص ٧١.



وقد جزم النبي ﷺ باستحقاق مانع الزكاة للعذاب حين قال :

«مانع الزكاة يوم القيامة في النار»[1].

ومن صور تعذيبه التي أخبرنا بها النبي ﷺ قوله:

«من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالك .. أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»[2].

إخواني .. يا من أمسكتم أموالكم، وبخلتم على أنفسكم بنجاتكم :

لا يدنو الطائر صوب الحبة إذا رأى طائرا مخنوقا في الفخ، فماذا عنكم؟!

٣- سيئ الكلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم». رواه البخاري .

وفي حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعد أن ذكر مختلف العبادات قال له: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ كفَّ عليك هذا - وأشار إلى لسانه - قال: يا

---

(١) حسن: رواه الطبراني عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٠٧.

(٢) صحيح: أخرجه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٧٦١.



نبي الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! قال: **ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**»[1].

وزاد الطبراني والبيهقي:

«**إنك لن تزال سالما ما سكتَّ، فإذا تكلَّمت كُتِب لك أو عليك**».

والمِلاك ما به إحكام أي شيء وتقويته، وذلك إشارة إلى ما ذكر من أول الحديث إلى هنا من العبادات المختلفة من الصلاة والصيام والصدقة والجهاد، وأكده ﷺ بقوله «كله» إشارة إلى شمول إمساك اللسان لما تقوم به تلك العبادات جميعها، وإنما أشار النبي ﷺ إلى لسانه هو من غير اكتفاء بالقول تنبيها على أن معالجة اللسان مهمة شاقة.

قال المباركفوري مبيِّنا دقة التشبيه النبوي وفصاحته:

«حصائد ألسنتهم أي محصوداتها؛ شبَّه ما يتكلم به الانسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع ولا يُميِّز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام حسنا وقبيحا»[2].

ويخرج ابن رجب بنتيجة صاعقة وحقيقة مؤلمة لكثير ممن استسهل الكلام من غير نظر منه للعاقبة:

«وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يُدخل الناس به النار: النطق بألسنتهم، فإن معصية النطق يدخل فيها: الشرك وهي أعظم الذنوب عند الله عز

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجة عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٣٦.

(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ٣٠٥.



وجل، ويدخل فيها: القول على الله بغير علم وهو قرين الشرك، ويدخل فيها: شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله عز وجل، ويدخل فيها: السحر والقذف، وغير ذلك من الكبائر والصغائر كالكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالبا من قول يقترن بها يكون معينا عليها»[1].

وما كان ابن رجب إلا متابعا لرسول الله ﷺ حين سُئل: ما أكثر ما يُدخل النار؟! فأجاب في إيجاز: «**الأجوفان؛ الفم والفرج**»[2].

أما مسقط هذا العبد من جهنم ومساحة رقعته التي حجزها فيها من وقع عثرات لسانه، فنعرفها من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[3].

هذا عن المكان الذي يُلقى فيه والمساحة المحجوزة له في النار، أما كم من الأعوام يقضيها بسبب هذا العضو المحتقر ومن جراء تلك الكلمة المستصغرة، فنجده كذلك في حديث لأبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ:

«**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار**»[4].

كل هذا من وراء اللسان؟! ومن جراء كلمة واحدة فحسب، فكيف بآلاف الكلمات من وراء الآلاف؟! كيف تكون العاقبة أحبتاه؟!

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٧٤.

(٢) حسن: كما في الصحيحة رقم: ٩٧٧، وصحيح ابن ماجة عن أبي هريرة رقم: ٣٤٢٤.

(٣) صحيح: رواه البخاري ومسلم والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٨٧٥.

(٤) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٦١٨.

وتوضيحا لكثرة معايب اللسان وشدة عثراته إن كنت لم تلمحها من قبل، ولم تحسَّ بنفسك وأنت تنزلق نحوها باستمرار؛ أشار صاحب كتاب التسلية:

«اللسان لا تؤمن غائلته، وخطره عظيم، ولسهولة حركته وسرعة إطلاقه قد بُلي أكثر الناس في زماننا بآفاته التي هي فاكهة وسرور مجالسهم: كالغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال والخوض في الباطل والخصومات وفضول الكلام والتحريف والزيادة والنقصان وتزكية النفس تصريحا وتعريضا، وحكاية كلام الناس، والطعن على ما يبغضه، وتزكية من يحبه، وهتك المستورات ونحو ذلك، فيتفق قوة الداعي وسرعة حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: أمسك عليك لسانك»[1].

ولعلك تكون مواظبا على صيام النهار وقيام الليل وغير ذلك من القُرُبات، لكن لا يمضي عليك يوم إلا ويجري على لسانك من آفات اللسان ما يستوي في جميع حسناتك فكيف بباقي سيئاتك؟!

فاللسان إذن هو الجارحة الأهم لديك، ومن ملكها ملك جسده كله، فلا تشتِّت جهدك من اليوم بين الجوارح كلها تحاول كبح جماح كل منها على حدة، بل املك لسانك أولا وبعدها: يفتح الله عليك بالبقية، وهو ما لمحه وأرشدك إليه المؤمن الفطن الزاهد الورع يونس بن عبيد حين درس أعمال الجوارح وحلَّل آثارها، ثم خرج لنا بهذه النتيجة الهامة فقال:

«لا تجد شيئا من البر واحدا يتبعه البر كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل

(١) تسلية أهل المصائب ص ١٩٢.



يصوم النهار ويُفطر على حرام، ويقوم الليل ويشهد الزور بالنهار، وذكر أشياء نحو هذا، ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عمله أبدا»[1].

٤- الظالمون:

بألوانه المختلفة، وقد يكون الظلم ضربا:

عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: «كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي: اعلم أبا مسعود!! فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود أن الله عز وجل أقدر عليك منك على هذا الغلام، فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا»، وفي رواية: فقلت: يا رسول الله .. هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار[2].

وقد أطلق النبي ﷺ على هذه العقوبة الأخروية كلمة القصاص، على سبيل المجاز لتقريب العقوبة إلى الأذهان، ف قال ﷺ:

«من ضُرِب بسوط ظلما اقتُصَّ منه يوم القيامة»[3].

وهو ما أيقن به العالم المجاهد سعيد بن جبير لما واجه الحجاج، فقال له الحجاج: اختر أي قتلة أقتلك، فدمغه سعيد بقولة الواثق من عقوبة الله للظالمين: «اختر أنت فإن القصاص أمامك!!»[4].

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٧٥.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود والترمذي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٢٧٨.

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد والبيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٧٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٣٨.



ورسول الله ﷺ قرَّر أن الله ينتقم لعباده مؤمنين كانوا أم كافرين إن هم عُذِّبوا، وذلك تكريما للجنس البشري الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه، وذلك حين نقل وعيد ربه فقال:

«إن الله تعالى يعذِّب يوم القيامة الذين يعذِّبون الناس في الدنيا»[1].

وليس أي عذاب، بل كلما اشتدت قسوة الطغاة على عباد الله كلما اشتد سعار النار ولهيبها من حولهم وأسفل منهم، وإنما تحصد يا ظالم ما زرعت، وكما تدين تُدان. قال ﷺ: **«أشد الناس عذابا للناس في الدنيا أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة»**[2].

لكن الفارق رهيب رعيب بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، بل لا وجه للمقارنة من الأساس.

فالعتق إذن لم يكن تفضلا من أبي مسعود البدري على عبده بل تفضل منه - في الحقيقة - على نفسه، وهو ما أحس به عبد الله بن عمر ﷺ حين أعتق مملوكا له، فأخذ من الأرض عودا أو شيئا، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يساوي هذا. سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته أن يعتقه»**[3].

وقد يكون هذا الظلم غصب مال أو أملاك للمظلوم، فتكون العقوبة كما جاء عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرَّم الله عليه الجنة»**، فقال له رجل: وإن كان

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن هشام بن حكيم كما في صحيح الجامع رقم: ١٩٠٠.

(٢) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن خالد بن الوليد والحاكم عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم كما في صحيح الجامع رقم: ٩٩٨.

(٣) صحيح: رواه أبو داود كما في صحيح أبي داود رقم: ٢٢٧٨.



شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: «**وإن كان قضيبا من أراك**»(١).

وقد تكون هذه الأملاك أرضا ينهبها الظالم، فتأتي العقوبة من جنس الجريمة:

«**أيما رجل ظلم شبرا من الأرض كلفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين، ثم يُطوَّقه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس**»(٢)، وقال:

«**لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طوَّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**».

وذكر النبي ﷺ الشبر في الحديث إشارة إلى استواء القليل والكثير في وعيد الظالم، ومعنى التطويق على خمسة معان:

الأول: أن الظالم يُكلَّف نقل ما أخذ ظلما من الأرض في القيامة إلى المحشر، ويكون ثقيلا عليه كالطوق في عنقه لا أنه طوق على الحقيقة.

الثاني: وقيل معناه كالأول لكن بعد أن ينقل جميع ما حفر إلى سبع أرضين يجعله الله كله في عنقه طوقا، ويعظم قدر عنقه حتى يسع ذلك كما ورد في غلظ جلد الكافر في النار.

الثالث: معناه أنه يُعاقب بالخسف إلي سبع أرضين، فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه.

الرابع: يُكلَّف أن يجعله له طوقا ولا يستطيعه فيعذب بذلك؛ كما جاء في حق من كذب في منامه كُلِّف أن يعقد شعيرة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجة عن أبي أمامة الحارثي كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٧٦.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن يعلى بن مرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٧٢٢.

الخامس: التطويق هو تطويق الإثم، والمراد به أن الظلم المذكور لازم له في عنقه لزوم الإثم، ومنه قوله تعالى ألزمناه طائره في عنقه.

قال ابن حجر: «ولا مانع أن تتنوع هذه الصفات لهذا الجاني، أو تنقسم بحسب أصحاب هذه الجناية، فيُعذَّب بعضهم بهذا، وبعضهم بهذا بحسب قوة المفسدة وضعفها»[1].

حلوٌ ومرٌّ!!

وليس من حديث حلو يتسلى به مظلوم ويحترق به ظالم مثل هذا الحديث، فهو مرهم العافية لمن ظُلِم وشوك القتاد لمن ظَلَم:

«من كانت لأخيه عنده مظلمة من عِرضٍ أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يومَ لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أُخِذ من سيئات صاحبه فجُعِلت عليه»[2].

ولو أيقن ظالم بالعاقبة السابقة لقبَّل يد المظلوم ليرحمه، ولكن عيني الظالم عمياوان، ومن ثم لا يرى ما في كتاب الله من آيات وعِظات وزواجر وسياط كالتي قرأها رجل على صالح المري وهي قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، فقطع عليه صالح القراءة وقال:

«وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والطالب له رب العالمين، إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يُساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم، حفاة

---

(١) فتح الباري ٥/ ١٠٤-١٠٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥١١.



عراة مسودة وجوههم، مُزرقَّة عيونهم، ذائبة أجسامهم ينادون: يا ويلاه .. يا ثبوراه .. ماذا نزل بنا؟! ماذا حلَّ بنا؟! أين يُذهب بنا؟! ماذا يُراد منا؟! والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرّون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين، ومرة يُقادون إليها عنتا مُقرَّنين، من بين باكٍ دما بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخٍ طائر القلب مبهوت، إنك والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرا لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقر لفظاعة هوله على قرارٍ قدمك، ثم نحب وصاح: يا سوء منظراه، ويا سوء منقلباه، وبكى وبكى الناس»[1].

ويل للقتلة!!

وقد يصل الظلم بصاحبه إلى حد القتل، فتكون العقوبة أبشع، ويتولى الله جل جلاله بنفسه توجيه هذه العقوبة والنطق بها يوم القصاص:

قال ﷺ: «**يأتي المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه، متلببا قاتله بيده الأخرى، تشجب أوداجه دما حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله للقاتل: تعست، ويُذهب به إلى النار**»[2].

الظالم القاتل رجل مخمور ما سمع من سكره تهديد ربه: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[النساء: ٩٣]

وإذا كان المقتول صار من أهل النار بمجرد إرادة قتل أخيه فكيف بالقاتل؟!

---

(١) حلية الأولياء ٦/١٦٦.

(٢) السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٩٧.



الفرار من الوباء

ولذا قال تعالى محذِّرا من أي قرب من الظالمين:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]

والركون: الميل بالركن أي بالجانب من الجسد، واستعمل هنا في الموافقة، وقوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي إلى الذين وُجِد منهم الظلم، ولم يقل إلى الظالمين تعظيما وتغليظا لأي قدر من الظلم، فإذا كانت هذه العقوبة في من ركن إلى ظالم، فكيف بمن ظلم؟! وكأن الظلم جرب لا يُقترب منه لأنه مُعدٍ ومُهلك، ولا يلمح هذا إلا أصحاب العقول السليمة والقلوب الحية، واسمع واحدا منهم:

حُكِي أن **المُوفَّق** صلى خلف الإمام، فقرأ بهذه الآية، فغُشِي عليه، فلما أفاق قيل له في ذلك فقال: «هذا في من رَكَن إلى مَنْ ظلم، فكيف بالظالم؟!»[1].

يا علماء السوء.. اسمعوا قبل الحشرجة:

أورد **الزمخشري** في تفسيره:

«لما خالط **الزهري** السلاطين كتب إليه أخ له في الدين:

عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخا كبيرا، وقد أثقلتك نعم الله بما فهَّمك الله من كتابه، وعلَّمك من سنة نبيه، وقد أخذ الله الميثاق على العلماء، فقال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخص ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم،

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ١٧٤.



وسهّلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد لله حقا، ولم يترك باطلا حين أدناك، اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخِلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمّروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك فلا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سُقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام»[1].

وبعد النثر جاء دور الشعر في التحذير، فليت كل عالم يصغي إلى وصية الأمير المُنقِذ أسامة بن منقذ الذي أشار إلى أن أشقى الناس أقربهم من السلطان كما أن أقرب الأشياء من النار أسرعها احتراقا، فقال رحمه الله :

إيـاكَ والسلطانَ لا يُدنيك من ... أبوابـهِ مُتكَسَّبٌ ومعـاشُ
واعلمْ بأنهمُ على ما كانَ من ... أحـوالهمْ نـارٌ ونحـنُ فَـراشُ

ولذا أرسى ابن تيمية هذه القاعدة الجليلة مبرزا مكانة العدل وبشاعة الظلم، فقال:

«جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم»[2].

---

(١) الكشاف ص ٥٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٨٦.



٥-... سوء القضاء

قال ﷺ:

«القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة ؛ قاض قضى بالهوى فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار، وقاض قضى بالحق فهو في الجنة»[1].

ولأن ثلثي أنواع القضاة -بموجب هذا الحديث- في النار، وهي كما ترى أغلبية فقد جاء حكم النبي ﷺ عاما في القضاة معلنا:

«من جُعِل قاضيا فقد ذُبِح بغير سكين»[2].

والمراد بذبح نفسه: إهلاكها بتوليها القضاء، وإنما قال بغير سكين إعلاما بأن المراد به: إهلاك النفس بعذاب الآخرة.

قال الخطابي: «إنما عدل عن الذبح بالسكين ليُعلم أن المراد ما يخاف من هلاك دينه دون بدنه، وهذا أحد الوجهين.

والثاني: أن الذبح بالسكين فيه إراحة للمذبوح، وبغير السكين كالخنق وغيره يكون الألم فيه أكثر، فذكر ليكون أبلغ في التحذير»[3].

وما ذلك إلا لأن منصب القضاء خطير، وضرره عظيم، فالقاضي قد يميل بحكمه إلى من يحب، وقد يحكم لمن له منصب يخاف بطشه وسطوته، أو يخضع لرغبة حاكم ظالم فيقضي بغير الحق، وقد يقبل القاضي الرشوة، وكل هذه مهالك

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٤٧.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٩٠.

(٣) تحفة الأحوذي ٢/ ٤٦٢.



سقط فيها الكثيرون ولا يزالون، وفي هؤلاء يصدق وصف رجل اسمه ابن الفضل عاتب أخا له زلّت قدمه في هذا المنزلق

ولما أن توليتَ القضايا وفاض الجور من كفيك فيضا

ذُبحتَ بغير سكين وإنا لنرجو الذبح بالسكين أيضا

الصالحون يتأخرون!!

ولخوفهم من عذاب الآخرة ويقينهم بعقوبة الجور، فقد حذَّر الصالحون من هذا المنصب. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: ينبغي للقاضي أن يكون يوما في القضاء و يوما في البكاء على نفسه، وقال محمد بن واسع: أول من يُدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة.

وهذا مكحول يقول: لو خُيِّرتُ بين القضاء وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي على القضاء، وأيوب السختياني يربط بين العلم وبين الهرب من منصب كهذا قائلا: إني وجدت أعلم الناس أشدهم هربا منه، وقيل للثوري: إن شريحا قد استقضي، فقال: أي رجل قد أفسدوه!

وقد رفض الصالحون -على تقواهم وورعهم وتجنبهم- هذا المنصب، خوفا من الخطأ في الحكم والمجازاة على ذلك الخطأ، فكيف بمن باع آخرته متعمّدا وأمات فطرته بطوع اختياره، واشترى النار وهو يبتسم!!

حين أراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط، وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب، فقال مؤثرا نار الدنيا على نار جهنم:



«الضرب بالسياط في الدنيا أهون علي من الضرب بمقامع الحديد في الآخرة»[1].

ودعا مالك بن المنذر محمد بن واسع ليجعله على قضاء البصرة فأبى فعاوده وقال: لتجلسن وإلا جلدتك!! فقال له مستحضرا عذاب الآخرة بين عينيه:

«إن تفعل فإنك سلطان، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة»[2].

وليس مقصدي بما أوردت هنا من آثار أن أزهِّد الصالحين في هذا المنصب الخطير، فتبقى هذه الأماكن شاغرة لكل فاسد لا يقيم لله وزنا في قلبه، بل مقصدي التقدم بقوة لشغر هذه الأماكن مع ورع وتقوى يعصمان من الزلل والجور.

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٢٢٠.

(٢) كتاب الكبائر ص ١٢٩.



٦- اللصوص

قال ﷺ:

«**إن رجالا يتخوَّضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة**»[١].

ويدخل في هذا الحديث: المرتشون، والغشاشون، وأي مؤتمن خائن، وكل من استرعاه الله أمانة فخانها، والذين ينظرون إلى مصالح الأمة على أنها غنيمة باردة ولقمة سائغة وفرصة للتربح وحيلة للثراء، وفي حديث البخاري:

«**وأهل النار خمسة:...، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقَّ إلا خانه،...**».

وما أجمل هذه الوصية التي وجَّهها والدٌ رحيمٌ بولده مشفق عليه من عواقب شرهه، وهو والد عبيد الله بن شميط بن عجلان حين رأى في المال وظيفة أخرى عند أهل النفاق فقال موصيا ابنه:

«الدنانير والدراهم أزِمَّة المنافقين بها يُقادون إلى النار»[٢].

ولسنا نتعلم أصول الأمانة وطهارة اليد من جيل أتقى من الصحابة عليهم سحائب الرضوان.

عن موسى بن عقبة قال: «لما ولي عياض بن غنم قدم عليه نفر من أهل بيته يطلبون صلته، فلقيهم بالبشر وأنزلهم وأكرمهم، فأقاموا أياما، ثم كلموه في

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن خولة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٧٣.

(٢) إصلاح المال ص ٢٩.



الصلة، وأخبروه بما لقوا من المشقة في السفر رجاء صلته، فأعطى كل رجل منهم عشرة دنانير، وكانوا خمسة فردوها وتسخطوا ونالوا منه، فقال: أي بني عم!! والله ما أنكر قرابتكم ولا حقكم ولا بعد شُقَّتكم، ولكن والله ما حصلت إلى ما وصلتكم به إلا ببيع خادمي وببيع ما لا غنى بي عنه فاعذروني. قالوا: والله ما عذرك الله، فإنك والي نصف الشام وتعطي الرجل منا ما جهده أن يبلغه إلى أهله. قال: فتأمرونني أسرق مال الله!! فوالله لأن أُشقَّ بالمنشار أحب إليَّ من أن أخون فلسا أو أتعدى. قالوا: قد عذرناك في ذات يدك، فولِّنا أعمالا من أعمالك نؤدِّ ما يؤدي الناس إليك، ونصيب من المنفعة ما يصيبون، وأنت تعرف حالنا، وإنا ليس نعدو ما جعلت لنا. قال: والله إني لأعرفكم بالفضل والخير، ولكن يبلغ عمر أني وليت نفرا من قومي فيلومني. قالوا: فقد ولاك أبو عبيدة وأنت منه في القرابة بحيث أنت، فأنفذ ذلك عمر، فلو وليتنا لأنفذه. قال: إني لست عند عمر كأبي عبيدة، فمضوا لائمين له»[1].

وهذه اللذة الدنيوية التي حصَّلها من أكل أموال الناس بالباطل ؛ ما قدرها؟! بل ما لذات الماضي كلها التي مرَّت بك طوال حياتك؟ هل تحس بأي منها الآن وقد استحالت ذكرى وصارت نسيا منسيا، وهو ما أدهشنا به ابن **الجوزي** قائلا:

«هل تجد لماضي العمر لذَّة؟ والباقي على القياس»[2].

يتوسع اليوم قوم في الحرام ويلتذون به، فهم في شهوات يُنفَق عليها من أموال الشبهات، ظلمات فوق ظلمات!! ثم ينقلب الحرام بعد موتهم جمرا في

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٦٩-٦٧٠.

(٢) المدهش ص ٢٦٧.



بطونهم، فما تفي لذته بتبعته:

تفنى اللذاذة ممن نال لذتها	من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبّتها	لا خير في لذة من بعدها النار

وهو ما فهمه الأمراء والحكام زمنَ العدل والرشاد، وعلى القمة منهم عمر بن عبد العزيز الذي دخل يوما على امرأته فقال: يا فاطمة ..عندك درهم أشتري به عنبا؟! قالت: لا، فأقبلت عليه، فقالت: أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري بها عنبا!! قال: "هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غدا في نار جهنم»[1].

فإذا أضفت لذلك أن الحريص المجاهد في سبيل المال والقنوع الزاهد في تحصيله، كلاهما يستوفي رزقه المقدور له غير منقوص، فعلام التهافت على نار جهنم إذن؟!

المرتشون اللصوص!!

قال النبي ﷺ وكأنه يخاطب كل موظف يرتشي تحت ذريعة أن راتبه لا يكفيه:

«من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا، فما أخذ بعد ذلك فهو غُلول»[2].

وردّ النبي ﷺ على كل من خادع ربه فتصدق من المال المسروق وتطهّر بالنجاسة من النجاسة فقال :

«لا يقبل الله صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول»[3].

---

(١) إحياء علوم الدين ٥/ ٢٥٩ بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والحاكم عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٢٣.

(٣) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٧٤٦



ومزّق النبي ﷺ دعاوى الشيطان لآكلي الحرام وفتاوى إبليس لبائعي الجنة فقال حاسما: «**هدايا العمال غُلول**»[1].

وقد تحوّل هذا الحديث النبوي إلى قاعدة إدارية صارمة أخذت مكانها بجدارة وسط جهاز الدولة زمن الراشدين، بعد أن رأوا بأعينهم أثر الرشوة الهدّام ودورها في إفساد الذِّمم، فقد نُقِل عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلا أهدى له فخذ جزور، ثم أتاه بعد مدة ومعه خصمه فقال: يا أمير المؤمنين .. اقضِ لي قضاء فصلا كما يفصل الفخذ من الجزور!! فضرب عمر بيده على فخذه وقال مردِّدا نص القاعدة النبوية السابقة:

«الله أكبر!! اكتبوا إلى الآفاق: هدايا العمال غلول»[2].

وفقه الفاروق الدرس، فلم يُلدغ من جحر مرتين، فقد أهدى رجل من عُمّاله نمرقتين[3] لامرأته، فدخل عمر ﷺ فرآهما فقال: من أين لك هاتين؟!

فقالت: اشتريتهما.

قال: أخبريني ولا تكذبيني.

قالت: بعث بهما إليَّ فلان، فقال: قاتل الله فلانا إذا أراد حاجة فلم يستطعها من قبلي أتاني من قِبَل أهلي، فاجتبذهما اجتباذا شديدا من تحت من كان عليهما جالسا، فخرج يحملهما فتبعته جاريتها، فقالت: إن صوفهما لنا، ففتقهما وطرح إليها الصوف وخرج بهما، فأعطى إحداهما امرأة من المهاجرات، وأعطى الأخرى

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن أبي حميد الساعدي. كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٢١

(٢) فيض القدير ٦/ ٣٥٧

(٣) تثنية نمرقة وهي الوسادة الصغيرة.



امرأة من الأنصار"[1].

أخطر ألوان الحرام: رشوة!!

وقد نهانا ربنا في كتابه فقال: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

وهذا في عموم أكل أموال الناس بالباطل، وهو شامل لكل صور أكل الحرام سواء بالغش والتدليس وبخس الوزن والتطفيف والاختلاس والاغتصاب والسرقة والنهب، وكذلك الربا والرشوة، لكن الله خصّ الرشوة هنا بالذكر هنا اهتماما بها وتدليلا على خطورتها وتنبؤا بشيوعها وكونها من أخطر ألوان أكل الحرام، وهو اختصاص يُعرف عند المفسرين بالاهتمام بالخاص من بين أفراد العام.

وقد صوَّر الله الرشوة صورة بلاغية رائعة مطابقة لصورة الراشي والمرتشي بطرفيها؛ حيث قال: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾، والإدلاء هو إرسال الدلو في البئر، ولا يكون إلا بالحبل، وحبل الدلو يسمى رِشاء؛ فالرِّشاء والرشوة كما ترى من مادة واحدة، والمُدلي هو الراشي، والمُدلى إليه هو المرتشي، وما في الدلو هو الرشوة.

ولما كان التدلي مرادفا للتدني وهو ضد الترفع، فكأن الآية تحكم على المرتشي أنه تدنى من منعة العز إلى هوة الذل، ومن رفعة الصدق إلى سحيق الكذب، ومن علياء الأمانة إلى حضيض الخيانة، وانحرف بذلك عن جادة الجنة إلى شعاب جهنم.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ١٠/ ١٣٨. ط مكتبة الباز بمكة المكرمة.

لكن .. لماذا خصَّ الله الحكام بذكر الرشوة مع كونها ليست قاصرة عليهم؟!

والجواب: لأنها منهم أعظم خطرا وأشد فتكا؛ فهم ميزان العدالة؛ وإذا فسد الميزان اختل الاتزان، ولأنهم رأس الجسد، وإذا مرض الرأس عمَّ الوباء الأمة بأسرها، حتى تتحول الرشوة إلى لغة التواصل بين الناس وشرط قضاء الحوائج بينهم وإنفاذ مصالحهم، وهذا هو حالنا اليوم .. أليس كذلك؟!

٧- المعتدون:

قال ﷺ: «**من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبا فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة**»[١].

ويدخل في هؤلاء: من خدع مسلما فحصَّل منه مالا بالغش والخداع[٢]، أو كان بعمله الذي يقتات منه يوصل الأذى إلى المسلمين، أو باع سلعة مغشوشة، أو كان رجل أمن يخدش الأمن فيعتدي ويجور ثم يقبض الثمن آخر الشهر: راتبه النجس، وكما ترى هنا في هذا الحديث أن كل جزاء هو من جنس عمل صاحبه، لكن شتان بين أكلة وأكلة، وثوب وثوب.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبوداود والحاكم عن المستورد بن شداد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٨٣.

(٢) وفي الحديث: «المكر والخديعة في النار». كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٥٧، وكان قيس بن سعد بن عبادة ﷺ يقول: «لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول المكر والخديعة في النار لكنت من أمكر الناس». فتح الباري ٤/ ٣٥٦.

٨- دعاة السوء:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟! قال: «الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»[1].

إخواني .. راغبي العتق من النار:

العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس و يحرق نفسه كما قال أبو العتاهية:

وبّخت غيرك بالعمى فأفدته ... بصرا وأنت محسّنٌ لعماك

وفتيلة المصباح تُحرق نفسها ... وتضيء للأعشى وأنت كذاك

يا من تنشد إنقاذ غيرك من النار .. أنقذ نفسك أولا، فاقد الشيء لا يعطيه، والغريق لا ينقذ غريقا مثله، والنافلة لا يقبلها الله حتى تؤدّى الفريضة.

الداعي إلى ما لا يعمل به كحامل المسك إذا كان مزكوما لا حظ له فيما حمل، وأصحاب الشخصية المزدوجة وذوو الوجهين أبعد الناس عن الله، اللهم صدّق أقوالنا بأفعالنا، وزيّن قلوبنا برؤيتك.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان في صحيحه واللفظ له والبيهقي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٣٢٧.

٩- صحبة السوء:

وضرب النبي ﷺ لنا مثلا بليغا للرفيق الصالح ورفيق السوء ربط فيه ربطا مباشرا بين الصحبة السيئة وبين النار، ف قال ﷺ:

«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء؛ كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة»(١).

وحرق الثياب هنا إشارة مجازيَّة إلى حرق الجسد بنار الأعمال القبيحة والمعاصي المُهلكة التي تقود ولا بد إلى النار الحقيقية المُعدَّة منذ زمن، يتطاير شررها في جهنم كما يتطاير شرر الكير في الدنيا غير أنه شرر كالقصر!!

وضرر جليس السوء مردُّه إلى أن المرء مجبول على الاقتداء بجليسه والتأثر به وبعمله، وفي الحديث: **«الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**(٢).

فمجالسة الحريص ومخالطته تحرِّك الحرص في النفس، كما أن مجالسة الزاهد ومخاللته تبعث على الغيرة فتزهِّد في الدنيا، لأن الطباع سرَّاقة، وأنت إذا خاللت صاحب الهوى قادك ولا بد إلى طريقه ومذهبه، فإذا كانت طريقه تورد النار دخلتها معه دون أن تشعر.

ولذا جاء الأمر النبوي صارما لا يحتمل أي تأويل:

---

(١) صحيح: متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٦٧٨.

(٢) حسن: رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٤٥، والخليل هو الذي أحبك وأحببته حتى تخلل حبه جميع البدن كما قال بشار: «قد تخللت مسلك الروح مني».



«لا تُصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

واستثار فكرك لتختار صحبتك بكل دقة فقال:

«المرء مع من أحب»[2].

وعلَّمك الدعاء التالي يردِّده مع أنه ﷺ المعصوم:

«اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة»[3].

وكثير من الشباب اليوم يدرك أن عليه فراق صحبة السوء، لكن لا تطاوعه نفسه على ذلك، ولا يستطيع أن يكسر هذا القيد الثقيل عنه، فيظل حبيس رفقتهم وأسير معرفتهم، وربما رجع ذلك إلى أسباب منها:

- أنهم يملأون عليه وقت فراغه القاتل.
- أو أنهم صحبة العمر الذين تربَّى معهم منذ صغره.
- أو أنهم وقفوا معه مواقف رجولة في وقت شدة ملكوا فيه عقله وقلبه.
- أو أنهم يعوضونه عن جوانب عاطفية افتقدها في أسرته.
- أو أنهم يمثلون طريقه الوحيد لتحصيل اللذة والمتعة.
- أو أنهم يلبُّون احتياجاته ومتطلبات شبابه من روح المغامرة والتمرد والانطلاق المتوقِّدة في هذه السن.

---

(١) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٤١.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٨٩.

(٣) حسن: رواه الطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع الصغير رقم: ١٢٩٩.



وأنا أحطِّم كل هذه الأسباب وأسحقها بقولي:

لا تنظر فقط تحت قدميك، بل انظر أمامك ودبِّر لمستقبلك، ومستقبلك في آخرتك، والصحبة هي التي تُحدِّد معالم هذا المستقبل، فلا تقامر معهم بحياتك ولا تغامر بمصيرك، وإن لك موعدا لن تُخلفه، وسيأتي اليوم الذي تجني فيه ما زرعت، حتى أمك الحنون ووالدك العطوف يفران منك ذلك اليوم، فما بالك بأضر الخلق عليك، من صحبة شؤم سرقوا دينك وبعثروا آخرتك ، ما يكون حالهم معك؟!

الله تعالى أجاب فقال:

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

أخي ..

احذرهم!! فإنهم والله يزفونك إلى النار، وينسجون لك ثوب العذاب يُلبسونك إياه في الجحيم، فماذا أنت فاعل؟! هل تعلم أنه محال أن تستمر علاقة دنيوية في الآخرة إلا في ظل المحبة في الله، أما المحبة في المال وفي الجاه وفي الشهوة وفي التجارة وفي الحرام، فكل هذه المحاب مصيرها إلى زوال بل -كما نطقت آية الزخرف- إلى عداوة واقتتال.

فهيا أيها البطل، اتخذ قرارك الشجاع من الآن، وانشد به الفرار من حميم آن، وفارق هذه الصحبة التي تجلب عليك الدمار، فإنه والله نعم القرار ؛ هذا .. وإلا ساء في جهنم القرار!!

الحشر مع الأعداء!!

قال تعالى:

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[الصافات: ٢٢].

فتُحشر صحبة السوء سويا وهم يختلفون ويتنازعون ويقتتلون، وذلك مقدِّمة التنازع والتلاوم الأشد والأمَرُّ في سقر. قال ابن الجوزي في زاد المسير مفسِّرا قوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾:

«أمثالهم وأشباههم، وهو قول عمر وابن عباس والنعمان بن بشير ومجاهد وآخرين، ورُوي عن عمر أنه قال: يُحشر صاحب الربا مع صاحب الربا، وصاحب الزنا مع صاحب الزنا، وصاحب الخمر مع صاحب الخمر»(١).

وهذا متسق مع أن أهل النار يُحشرون زمرا وجماعات، وفوجا من بعد فوج، وشمَّ معي رائحة العقاب الأليم تفوح من الآية ليحيق بصحبة السوء: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣].

السياج الواقي

وفي اجتناب رفقة السوء فوائد وقائية للفرد والمجتمع، ما أروعها ومنها:

* تمهيد الطريق المتجه نحو الجنة وقطع الطريق على المتوجِّه إلى جهنم، فاجتناب رفقة السوء صورة من صور قاعدة سد الذرائع التي شرعها الإسلام لأبنائه ليسد عليهم منافذ الشر، ويمنع عنهم كل ما قد يتوهم المرء بساطته وهوانه، وتشمل هذه القاعدة على سبيل المثال: تحريم النظر الموصل إلى الزنا،

---

(١) زاد المسير في علم المسير ٧/ ٥٢.



وتحريم قليل المسكر لأنه مؤدٍ إلى كثيره، وغيرهما الكثير.

* ردع صاحب السوء القائد غيره إلى جهنم وحمله على سلوك الطريق المعاكس، وذلك عندما يُهجر ويدرك أن هجره كان بسبب فساده وإفساده، وربما أدَّى هذا إلى صلاحه وهدايته، وانظر قصة **كعب بن مالك** ﷺ لما تخلف عن غزوة تبوك، وجاءه يعتذر إلى رسول الله ﷺ، فأمر النبي ﷺ الصحابة بهجره، وكان ذلك عونا له على حسن الإياب، ومقدمة التوبة المقبولة التي شهد الله لها في كتابه.

* محاصرة المعاصي في عقر دارها ومنع انتشارها بل وأدها في مهدها، لأن انتشار العدوى مرتبط أساسا بالصحبة والمخالطة، بل وبمجرَّد الرؤية والمشاهدة، فرؤية المعاصي دعوة عملية صامتة أبلغ من الدعوة اللسانية، وتنزع من القلوب كراهية المنكر، فإذا حوصرت المعصية في أضيق حدود وأحيطت بسياج دفاعي منيع تمثل في هجران أصحابها لم تجد ما تقتات عليه، فاختنقت ثم ماتت.

١٠- العشاق

وما الرابط بين العشق والنار؟!

اسمع إلى العشق وكيف يفسد الجوارح كلها. قال ﷺ:

«العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، والفرج يزني»[(١)].

وفي حديث آخر:

«كُتِب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش،

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٥٠.



والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويُصدِّق ذلك الفرج أو يكذِّبه»[1].

وتأمل هذه الأحاديث تجد أن العاشق وقع فيها كلها، من زنا العينين التي تنظر إلى الحسان، واللسان الذي يطلق كلمات الحب والغرام، والأذنين اللتين تطربان لسماع الغزل، والرِّجْل التي تسعى لمواعيد الهوى خلسة أو جرأة وعلانية، أو اليد التي تمس ما حرَّم الله إلا بنكاح، وجرح جارحة واحدة من هذه كاف أن يُدخل النار، فكيف بها مجتمعة؟! لذا كان العشق كبريتا يوقِد نار جهنم.

والله عز وجل «ما نهى عن العشق، وإنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح، وفي الامتناع عن المشتهي دليل على الإيمان بوجود الناهي؛ كصبر العطشان في رمضان عن الماء فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم، و تسليم النفوس إلى القتل والجهاد دليل على اليقين بالجزاء»[2].

أخي الغارق في بحار العشق..

أول العشق: نظرة، وآخره قلبُ قلب.

قُل للمليحة في الخمار الأسـودِ

ماذا فعلتِ بناسـك متعبـدِ

قد كان شمَّر للصـلاة ثيابه

حتى عرضتِ له بباب المسجدِ

---

(١) صحيح: رواه مسلم والبخاري باختصار وأبو داود والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٩٠٤.

(٢) صيد الخاطر ص ٤٧٤.



رُدي عليه صلاته وصيــامه

لا تفتنيــه بحـــقِّ ربِّ مُحمدِ

وأخطر ما يستهدف العشق: قلبك، وهل العبد إلا قلب؟! وهل النجاة يوم القيامة إلا بقلب، فإذا امتلأ القلب بحب غير الله وآثر هوى محبوبه على ربه فكيف النجاة؟! خلق الله قلبك صافيا له، فماذا صنعت فيه يا أخي؟!

والعشق الحرام ضد الإيمان، فطلّق أحدهما تفُزْ بالآخر، لأنه لا يجتمع دين مع عشق في قلب مؤمن، ولابد لأحدهما أن يهزم غريمه، وهو ما فطنت إليه امرأة جميلة لم يشغلها حسنها عن دينها، فقد روى ابن القيّم أن بعض السلف كان يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدين واللذاتُ تُعجبُني

فكيــف لــي بهـوى اللـذاتِ والـدِّين

فقالت له: «دع أحدهما تنل الآخر»[1].

وصدق القائل:

العشق مشغلة عن كل صالحة وسكرة للعشق تنفي سكرة الوَسَن

والعشق كذلك لون من ألوان اتباع الهوى، «والهوى ثلاثة أرباع الهوان وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم»[2]. وهوان الدنيا هو توطئة لهوان الآخرة، ومقدِّمة طبيعية له، ولنا وقفة مع ..

(١) روضة المحبين ص ٤٧٩.

(٢) روضة المحبين ص ٤٠٥.



الهوان العاجل

العشاق يا أخي لا يُبارك لهم في لذتهم في الدنيا فضلا عن الآخرة، يحسبون الحب لذة والغرام متعة، فينقلب عليهم ألما وهمًا لا يُطاق حتى صرخ أحدهم :

يا مَن شكا ألما للحُبّ شبّهَهُ بالنارِ في القلبِ من حُزْنٍ وتذكارِ
إنّي لأُعْظِمُ ما بي أن أُشبّهَهُ شيئاً يُقاسُ إلى مِثلٍ ومقدارِ
لَو أنّ قلْبيَ في نار لأحرقهَا لأن أحزانه أذكى من النّارِ

بكى أحدهم تحت وطأة هذا العذاب حتى أنساه الشيطان به العذاب الأبقى والآلام الأشد، وما درى أن عذاب الآخرة يستعر ونارها تتّقد، وأن ألمه اليوم ما هو غير قطرة في بحر آلامه الأخروية، فقال يخاطب مالكا خازن النار، ويا بئس ما قال :

لو كانَ يدري مالكٌ ما الذي ألقى من الأحزانِ والكَرْبِ
وما ألاقي من أليم الهوى عذّب أهل النّار بالحُبّ

وما قيمة لذة إن بقيت فساعة، ثم تزول ؛ فكيف بها وقد انقلبت غم دنيا وآخرة!! وبقي عارها الأكبر في الجحيم!!

العارُ في هذه الدنيا وإن عظمت يفنى ويبقى الذي بالنّار يؤذيني
والنار لا تنقضي ما دام بي رمقٌ ولستُ ذا ميتةٍ فيها فتُفنيني

أخي الباحث عن الراحة النفسية والسعادة والاستقرار .. إن كنت عاشقا فأنت تسير عكس الاتجاه!

فما في الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق



تــراه باكيـا في كـل حـين	مخافـة فرقـة أو لاشتيـاق
فيبكـي أن نـأوا شـوقا إلـيهم	ويبكـي إن دنـوا حـذر الفـراق
فتسـخن عينـه عنـد الفـراق	وتسـخن عينـه عنـد التلاقـي

سبق وأن أحصى ابن القيّم بعض آثار فتنة العشق، ثم سرد علينا منها ما يزيد على العشرين كارثة فقال:

«وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة، وكم أنزلت من معقل عِزة عزيزا؛ فإذا هو من الأذلين، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب؛ فإذا هو في أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأحدثت من روعة، وأعقبت من ألم، وأحلت من ندم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدرا كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد، وكم جلبت من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء، فقل أن يفارقها زوال نعمة أو فجاءة نقمة أو تحويل عافية أو طروق بلية أو حدوث رزية»[1].

النجاة من الفتنة!!

وما أشد إشفاقي على الشباب اليوم وهو يواجه عواصف الشهوة العارمة بصدور عارية!! نعم .. عارية من الإيمان الذي أُريد لهم أن يخلعوه في ظل إعلام متبجِّح، يضع اليهود برامجه وخططه، وأدوات التنفيذ: أبناء جلدتنا، واسمعوا ما حدث مع الشاعر المؤمن عمر بهاء الدين الأميري في شبابه وكان في كراتشي،

---

(1) روضة المحبين ص ١٨٩.



واستيقظ بعد منتصف ليلة عرفة، هائج النفس، ثائر الشباب، وكان قد تعرَّض في تلك الأمسية إلى إغراءٍ كثير ودعوة إلى الفاحشة صريحة، فانطلق يضجُّ بالشكوى ويطلب الغوث والمدد قائلاً :

كيف أنجو يا خالقي من شبابي ... عارمٍ عاصف التوثب ضاري

مستبدٍ بكلِّ ذرَّاتِ جسمي ... مستفز كوامن الأوطار

كلما رُمْتُ كبْتَه ثارَ جهْلاً ... وتخطى عقلي وأعيا وقاري

فأنا منه ما كبحتُ هواهُ في ... جموح وحدة واستعار

كيف أنجو وإنه مُستقرٌ ... في كياني وفي صميم نجاري

هو من طينتي التي لوَّثتني ... ورمتني فريسةَ الأقدار

إنه رجعة الصدى لفحيح ... لاهب الذات غاشمٍ كفّار

قد تحدَّى أبي الكبيرَ قديما ... فرماه من عالم الأبرار

***



Yamen

١- زينة المرء عقل



يا فرحا بلذة عاقبتها جهنم: الطفل يؤثر هواه وإن أدى إلى هلاكه، وما ذلك إلا لضعف عقله، ألا زلت طفلا؟!

قال أبو حامد الغزالي:

«وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربة طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا، وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟! أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر؟! أم يقضي شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟!

وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار هو أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته.

وليت شعري .. ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟!»[1].

جسمك قد أفنيتَه بِالْحِمَى دهرا من البارد والحار
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي حذر النارِ

أخي .. أجهلُ الجهال مَنْ آثر زائلا على باق، فَأُفٍّ للذة أعقبت عقوبة،

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٤١٨.



وليست أي عقوبة!! بل أقسى عقوبة، وما سُمِّي العقل عقلا إلا لأنه يعقل صاحبه عن ما يضره، أما قليل العقل فإنه يرى العاجلة دون نظر إلى العاقبة، فإن اللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد، والفارغ يرى لذة الكسل وينسى ذل الجهل فضلا عن ضياع أجر الآخرة، والذباب يلتذ بقرب النار يحسبها نورا فيحترق، فقس على هذا وانتبه.

وهذا يدفعنا إلى أن نتقي السيئات، ننفي بذلك الجهالة عن عقولنا، «وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع الجهل، وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله، فإن هذا خاصية العاقل، ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضررا راجحا كالسقوط من مكان عال أو في نهر يغرقه أو المرور بجنب حائط مائل أو دخول نار متأججة أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه، ومن لم يعلم أن هذا يضره كالصبي والمجنون والساهي والغافل فقد يفعل ذلك»[1].

٢- الخوف العامل



وهذا النوع من الخوف وحده هو الذي يؤثِّر، وترجمة كلمة التأثير في العبارة السابقة قام بها باقتدار أبو حامد الغزالي حين قال:

«ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء، تدمع عينك، ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك، فليس هذا من الخوف في شيء، بل من خاف شيئا هرب منه، ومن رجا شيئا طلبه، فلا ينجيك إلا خوف

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٢٨٧.

يمنعك عن معاصي الله تعالى، ويحثك على طاعته، وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فقال أحدهم: استعنت بالله، نعوذ بالله .. اللهم سلِّم سلِّم، وهم مع ذلك مُصِرّون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء، ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعْد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه!! فأنّى يُغني عنه ذلك من السبع، وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقا، ومعنى صدقه: أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره»[1].

خوف لا ينقطع

وهذا الخوف مستمر لا ينقطع عن قلب المؤمن أبدا حتى يوصله إلى بر الأمان كما نطق بذلك الصحابي الجليل الفقيه معاذ بن جبل ﷺ:

«إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه»[2].

لا يهدأ بل يظل في الحياة ساعيا وكأنه في مهمة لابد له أن يدركها، راكضا وراء هدف حتى يلحق به، لا يستريح أبدا بل يظل لاهثا من التعب، وأبواب البذل متنوعة، قد يكون ذلك بصدقة كما «اشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرار أو أربعا، يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة، واشترى عامر بن عبد الله بن الزبير نفسه من الله بدية ست مرات تصدق بها، واشترى حبيب الفارسي نفسه

---

(١) الإحياء ٤/ ٥٢٥.

(٢) الإحياء ٤/ ١٩٨.



من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها»، أو يكون بذكر كما «كان أبو هريرة ﷺ يُسبّح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة بقدر ديته يفتدي بذلك نفسه»[1]، وقد يكون بحركة دؤوب في الدعوة إلى الله وحث الناس على الخير حتى تشهد الطرقات وقلة ساعات مس الفراش على صدق نيته وشدة عزيمته، أو يكون بتعفف عن حرام وزهد في متاع وإيثار للآخرة على الدنيا.

وكل هذه الأعمال يصاحبها ويحوطها: رعايةٌ للأوقات وحرص على اقتناص فوائدها وعدم تضييع أي فرصة فيها تلوح، واسمع علام كانوا يتحسّرون وماذا كانوا يُحصون؟!

عن سفيان قال: سمعت ابن أبجر يقول:

«ذهب من عمرنا ساعة في الحمّام!!»[2].

٣- التنافس المحموم:



اسأل نفسك: هل ستعبر جسر جهنم أم ستسقط فيه من ثقل الأوزار؟! وإن عبرت فبأي سرعة؟! أهي سرعة البرق أم سرعة الريح أم الماشي أم الزاحف؟! مع العلم أن سرعتك هناك على قدر همتك واجتهادك هنا.

وهذا ميدان يتفاوت فيه الناجون ويتسابق الفائزون، إضافة إلى ميادين أخرى:

---

(١) لطائف المعارف ص ٤٨٤.

(٢) الزهد الكبير ص ٢٩٧.



- فهناك مناقشة الحساب، منهم من يناقش ثم ينجو ومنهم من يعبر مجتازا دون نقاش.
- وهناك الحياء عند العرض، منهم المتواري خجلا من لقاء ربه ثم ينجو، ومنهم على العكس منه المسرور الممتلئ فرحا باللقاء ورؤية الله لأول مرة.
- وهناك الانتظار في ساحة الحشر، منهم الوجل المرعوب حتى سماع قرار النجاة، ومنهم الواثق بربه السابق إلى دخولها قبل أن يدخلها سائر الناس.

وكل هذا بحسب السبق في الأعمال والأحوال في الدنيا.

وممن أغراك بالاشتراك في هذه المسابقة رجل ملأ كل لحظة من وقته وكل ذرة في وجدانه حتى لم يبق عنده فرصة لمزيد عمل أو اجتهاد، وهو أبو مسلم الخولاني الملقَّب بحكيم الأمة، واسمع له يصف حاله يدعوك به لتقبس منه:

«لو قيل إن جهنم تُسعَّر ما استطعت أن أزيد في عملي»[1].

٤- الوقفة الجريئة:



قال أبو حامد الغزالي:

«ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي، أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب، وأما الحُمْق الجلي فاعتمادك على كرم الله

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٤، والقول لأبي مسلم الخولاني والملقب بحكيم الأمة.



تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك»[1].

إنها المواجهة الصريحة مع النفس التي تؤدي حتما إلى اكتشاف العيوب ومعرفة الثغرات، ومن ثم التدارك والإصلاح، وربما كانت كلمات الشيخ قاسية بعض الشيء .. فالكفر والحمق كلمتان ثقيلتان كل واحدة منهما أشد من أختها، لكن هل يوقظ النفس من سباتها إلا الهزة العنيفة؟! وهل يرُدُّ السائر في الظلام إلى جادة الطريق لغة الإشارة؟!

وهل هناك أورع في زمانه أو أزهد أو أتقى من الخليفة الخامس **عمر بن عبد العزيز** الذي قال له رجل يوما: يا أمير المؤمنين كيف أصبحت؟ قال:

«أصبحت بطِيًا، بطينا، متلوثا بالخطايا، أتمنى على الله عز وجل الأماني»[2].

وهو الهجوم على النفس الأمارة بالسوء يستهدف تقويمها لا إيذاءها، وتحويلها إلى نفس مطمئنة لا الرمي بها منفردة في ساحة اليأس، ففارق كبير بين معاتبة النفس وبين تحطيمها، الأولى من الرحمن والثانية شيطانية.

٥- لا تغتروا

وحذرك **أبو الوفاء بن عقيل** من الاغترار بعملك الصالح ونسيان عملك السيء في قوله:

«احذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت

---

(١) الإحياء ٤/ ٤١٨-٤١٩.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص ٢٢٢.



الشملة نارًا على من غلَّها وقد قُتِل شهيدًا»[1].

الحساب قادم قادم .. فالله هو المُحصي.. هو الرقيب.. هو الشهيد.. هو السميع.. هو البصير، والثواب أو العقاب ينتظر.. وما كان ربك نسيا.. واسمع شعر الشافعي:

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا
واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب

وارهب مناقشة الحساب فإنه
لابد يُمحص ما جنيتَ ويُكتب

لم ينسه الملكان حين نسيته
بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب

أبعد الناس عن الغرور أقربهم من الله، لأنهم يرون كل ما هم فيه من الطاعات من الله، دون أن يروا لأنفسهم فيه شيئا، واسمع سلوك الفاروق ﷺ يعلّمنا الأدب مع الرب:

عن المسور بن مخرمة قال: لما طُعِن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس وكأنه يُجزّعه: يا أمير المؤمنين.. لقد صحبت رسول الله ﷺ، فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبته (يعني المسلمين) فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، فإنما ذاك مِن منّ الله تعالى مَنّ به علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك من مَنّ الله -

(1) الجواب الكافي ص ٦٩.



جلّ ذكره- مَنَّ به عليَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهبا لافتديتُ به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه»[1].

لكن ..

هل تعلم من أعظم الناس اغترارا؟!

وذلك لتجتنبه وتحذر صحبته وسلوك طريقه بعد أن خبرته ورأيته رؤيا الشمس في وضح النهار؟!

أعطِ القوس باريها واسمع الرد من أبي الفرج ابن الجوزي:

«وأعظم الخلق اغترارا من أتى ما يكرهه الله تعالى وطلب منه ما يحبه»[2].

وهؤلاء كثر .. رآهم ابن الجوزي وهو ابن القرن السادس الهجري في زمانه، فانطلق مطلقا صرخات التحذير والاستغاثة:

«كم في يَمِّ الغرور من تمساح فاحذر يا خائض»[3].

فكم هو عددهم بيننا يا أبناء القرن الحادي والعشرين؟!

فحتام لا تصحو وقد قرُب المدى

وحتّام لا ينجابُ عن قلبك السُّكر

بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا

وتذكر قولي حين لا ينفع الذِّكر

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٣٤٨٩.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٦.

(٣) المدهش ص ٣٨٨.

٦- هذا ما كنزتم لأنفسكم



كل ما قدَّمت لنفسك من خير ستجده يوم القيامة يُبهجك أو يُحزِنك، وينفعك أو يضرك، ويشهد لك أو عليك، فأي كنز لك تحب أن تراه؟! أي شيء ترغب أن يزيِّن صحيفتك؟! أي شهادة تريد أن تنبري دفاعا عنك يوم تكون في أمس الحاجة إلى من يقف إلى جوارك؟!

ومن معاني الكنز: أنه يُجمع رويدا رويدا، ثم يُحافظ عليه، لا أن يُجمع بيد ويُبدَّد بالأخرى؟! ولا أن يهدم صاحبه ما سبق وأن بنى، فأي عقل في هذا؟!

ومن الحفاظ على الكنز الطاعاتي أن لا يُفسد برياء أو رؤية أو عُجب.

ومن معاني الكنز كذلك أن يُخبَأ عن أعين الناس فلا يُفشى سِرُّه وإلا سُرِق وزال.

أخي .. الكنز .. الكنز: كل الناس يكنز، فمنهم من يكنز ما تُكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم في نار جهنم، ومنهم من يكنز ما تهوي به قلوبهم وعيونهم وأرواحهم إلى جنات عدن، فاختر كنزك من اليوم: صلاة .. دعاء .. دعوة .. صدقة .. بر .. واجمعه يوما بعد يوم، واحفظه وراعِه ونمِّه وكبِّره، ولتجدنه يوم القيامة ساطعا أمام ناظريك كما شهد بذلك الحديث:

« والصلاة نور، والزكاة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك».

وهي كلها -كما ترى- كنوز دلَّك عليها رسول الله ﷺ، والمُنتَظر منك أن



تلبي دعوته، فتبدأ من الساعة حملة الاكتناز الإيماني الرائع بدلا من الاكتناز الشيطاني الضائع، وكن كيف شئت، فإنما تجني ما غرست، وفي المثل: يداك أوْكتا وفوك نفخ[1].

واقتفى السَّرِيُّ السقطي خطى نبيه حين أوصى أنجب تلامذته وأحبهم إليه الجنيد فقال له:

«اجعل خزائنك قبرك، واحشُه من كل خير حتى إذا قدمت فرحت بما قدمت إليه من المعروف»[2].

٧- مبشرات نبوية



رأيت أن أسوقها في منتصف هذا الفصل لترطِّب القلب ببعض الرجاء إن كان جفَّ بحرارة الخوف وهيب جهنم، ولتبدِّد اليأس من رحمة الله في قلبك إن كان قد زار أو اقترب.

○ عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج من النار أربعة يعرضون على الله عز وجل، فيأمر بهم إلى النار، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب!! قد كنت أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فيقول: فلا نعيدك فيها**»[3].

---

(١) أصله أن رجلا كان في جزيرة في البحر، فأراد أن يعبر على زقٍّ نُفِخ فيه، فلم يُحسن إحكامه حتى إذا توسَّط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غَشِيه الموت استغاث برجل فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ، فصارت مثلا لمن يجني على نفسه.

(٢) الزهد الكبير للبيهقي ص ٢٩٢.

(٣) صحيح: رواه أحمد ٣/ ٢٢١. تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

يا ربُّ حُسن رجائي فيك حسَّنَ لي

... تضييعَ وقتيَ في لغو وفي لعب

وأنتَ قُلتَ لمن أضحى على ثقة

بحسن عفوك إني عند ظنك بي

○ «والله لا يُلقي الله حبيبه في النار»[1].

والقصة كما حكاها أنس ﷺ قال: مرّ النبي ﷺ بأناس من أصحابه، وصبي بين ظهراني الطريق، فلما رأت أمه الدواب خشيت على ابنها أن يوطأ فسعت والهة، فقالت: ابني! ابني! فاحتملت ابنها، فقال القوم: يا نبي الله! ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا يلقي الله حبيبه في النار».

إخواني..

نصيحتي:

تعلقوا بهذا الحديث، واحفظوه عن ظهر قلب لعله يشفع لكم عند الله، وعندها الله تقولون لربكم بعد أن أقيمت عليكم الحجة وقيدتكم شهادات جوارحكم عن الكلام، تقولون له: قد قال حبيبك: والله لا يلقي حبيبه في النار.

وكيف لا نحسن الظن برب رحيم ودود لطيف، ونفهم ما فهمت الأعراب، وقد رأى أعرابي جنازة وقد أقبلت، فقال: بخ بخ لك .. بخ بخ لك، فقيل له: يا أعرابي!! هل تعرفه؟! قال: «لا، ولكن أعلم أنه قدم على أرحم الراحمين»[2].

---

(١) صفة النار ص ٨٦.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٢٩٢.



○ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا خلص المؤمنون من النار يوم القيامة وأمنوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة له من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار. قال: يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا، فأدخلتهم النار. قال: فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، لا تأكل النار صورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربنا أخرجنا من أمرتنا، ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة. قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[النساء: ٤٠] قال: فيقولون ربنا قد أخرجنا من أمرتنا، فلم يبق في النار أحد فيه خير. قال: ثم يقول الله: شفعت الملائكة وشفع الأنبياء وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين. قال: فيقبض قبضة من النار أو قال قبضتين ناس لم يعملوا لله خيرا قط قد احترقوا حتى صاروا حمما. قال: فيؤتى بهم إلى ماء يُقال له ماء الحياة، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم عتقاء الله. قال: فيقال لهم ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم عندي أفضل من هذا. قال: فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك؟! قال: فيقول رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبدا»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند ٣/ ٩٤ تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.



٨- صراطان

يرسي ابن القيِّم هنا قاعدة قيِّمة :



«وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبوا حبوا، ومنهم المخدوش المُسلَّم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القُذَّة بالقُذَّة، جزاء وفاقا، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟!»[1].

أخي .. كم من جسد صحيح ووجه مليح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح .. أخي:

هل تحافظ على الصلاة مرة وتتهاون مرة؟! هل تغضُّ بصرك مرة وتطلقه مرات؟! هل تمسك لسانك وتتركه؟! تصغي بسمعك للحرام وتسدُّه؟! إن كان ديدنك هذا التردد والاضطراب، فما أخوفني عليك أن يكون جزاؤك من جنس عملك، فتسير على الصراط مرة وتزل مرة، وتمشي لحظة وتكبو لحظات، والزلة هناك ليست كأي زلة، بل هي النار وكلاليب النار.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٦.

٩- أخاف عليك أنك لا تخاف



وهي تغليب نظرية الخوف الاحتياطي والحذر الوقائي الذي إن لم ينفع لم يضر مع أنه والله نافع غاية النفع، وهي مدرسة كثير من السلف ومنهم **الحسن البصري**: قام المغيرة بن مخادش ذات يوم إلى الحسن فقال: كيف نصنع بأقوام يخافوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟! **فقال الحسن**: «والله لأن تصحب أقواما يُخوِّفونك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يلحقك الخوف»[١].

وخذ هذا المثل: لو أن رجلا عُرِض عليه أن يقضي ليلة من أحلى الليالي؛ يأكل فيها أشهى طعام في أفخم قصر وينام مع أجمل امرأة على أن يُحرق من الغد في فرن كبير، فماذا يكون ردُّه؟!

وبمثل هذا المثل تعرف أن استحضار العقوبة عند المعصية نجاة، وأن سبب الوقوع في المعصية هو الغفلة عن عقوبتها واستبطاء الجزاء، كالطالب الذي يُطلب منه أن يُذاكر ولا يفعل حتى يحين موعد الامتحان، وعندها يشحذ كل ذهنه ويركِّز بؤرة شعوره على التحصيل والمذاكرة، ولو فعل ذلك من البداية لكان خيرا له.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٥٠.

الفصل الثاني: طلقات التحذير والتذكير



الفصل الثالث: طاعات مكافحة النيران!!

الفصل الرابع: وللنار عشـــاق



الفصل الخامس: حذار أن تحترق

* * *